دراسات في علوم القرآن

دكتور
أمير عبد العزيز
رئيس قسم الدراسات الإسلامية
بجامعة النجاح الوطنية بنابلس

دار الفرقان
مؤسسة الرسالة

دراسات في علوم القرآن

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الفرقان
للنشر والتوزيع
عمان / الأردن / جبل الحسين شارع خالد بن الوليد
ص.ب ٩٢١٥٢٦ - ت: ٦٦٠٩٢٧

مؤسسة الرسالة
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدمة

هذه دراسات في علوم القرآن أعرض فيها لكثير من الحقائق والعلوم التي تتعلق بالكتاب الحكيم من حيث اسمه واشتقاقه وما يترتب على ذلك من اختلاف في وجه التسمية واختلاف في المدلول الذي تحمله التسمية.

ثم تنجيم القرآن بمعنى تنزيله مفرقا وعلى مُكْث، وما ينطوي عليه ذلك من أسرار ومقاصد تتعلق بالنبي ﷺ وذلك من حيث تثبيته على الحق فلا يتزعزع، وبالمسلمين فلا يفجأهم زخم التشريع الهاطل جملة واحدة مما يؤدي الى التعثّر والنكوص والتقهقر.

يضاف الى ذلك مجاراة القرآن في تنزيله للوقائع والمناسبات كأنْ تتنزل منه آية أو بضع آيات جواباً عن سؤال أو فضّاً لمشكلة.

ثم الكلام عن كيفية إنزال القرآن بدءاً بنزوله من اللوح المحفوظ حتى إرسائه في بيت العزة من السماء الدنيا. وما يتفرع عن ذلك من مختلف المسائل مثل كيفية تلقي النبيّ للقرآن من الوحي وما ورد في ذلك من أقوال متعددة مختلفة، مع ترجيحنا للقول الذي ترتضيه النفس ويطمئن إليه القلب.

ثم الكلام عن ظاهرة الوحي من حيث حقيقته وصوره وما يستتبعه ذلك من تبيين لكيفيات الوحي. تلك الكيفيات التي كانت تتحقق على شواكل مختلفة من الإلهام والرؤى والنفث في الروع وكذلك الصوت المجلجل الذي يأتي كصلصلة الجرس توطئة لمقدم الخبر من السماء.

وكذلك الكلام عن مسألة المكي والمدني وما تبع ذلك من أقوال ومصطلحات سجلها العلماء في التمييز بين ما هو مكي وما هو مدني وما يترتب على هذا التمييز من فوائد ومقتضيات شرعية يعول عليها الأصوليون أشد تعويل.

ثم أسباب النزول. وهي دراسة أساسية وهامة تعتبر من الأساسيات التي ينبغي للعالم أو المفسر أن يقف عليها كيما يحيط بالمقصود من النص القرآني إحاطة وافية تباعد بينه وبين الشطط والزلل عند التفسير.

وتناول البحث أيضا مسألة كانت موضع خلاف كبير للعلماء، وإن كان مثل هذا الخلاف قد مضى وبات الآن غير ذي فائدة عملية إلا مجرد الدراسة العلمية النظرية، وتلكم هي مسألة الأحرف السبعة. فقد كان للعلماء في هذه القضية من الأقوال أربعين قولا. وهي أقوال تتردد بين التباين المتفاوت والموضوعية الراجحة المعقولة. وقصارى القول في هذا الامر المختلف الذي تعددت فيه الآراء والتفسيرات أن القرآن ما عاد يحتمل أي حرف من الأحرف غير الذي استقر عليه عثمان يوم أن نسخ المصاحف في مصحف فاصل جامع واحد.

وهذه المسألة لها ذات ارتباط بمسألة جمع القرآن وكتابته خصوصا ما تعلّق بكيفية الجمع والنسخ زمن الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه. وقد تناول البحث كيفية الجمع للقرآن في مراحله الثلاث وهي مرحلة النبوة الكريمة حيث الكتابة لآيات القرآن في الأدوات البدائية البسيطة كالعُسُب واللِّخاف وغيرهما مما كان يتيسر للرعيل الأول مع بقاء هذه الأدوات منتشرة ومبعثرة في كل مكان من غير أن تتنسق مجتمعة في مصحف واحد.

ثم المرحلة التي في عهد الصدّيق رضي الله عنه الذي جهد من غير تردد كيما يجمع آيات الكتاب الحكيم في مصاحف ملتئمة مجتمعة وذلك مخافة أن يأتي التفريط أو النسيان على شيء من كلام الله سبحانه. ثم المرحلة الأخيرة في زمن عثمان إذ أوعز للجنة من أعاظم الصحابة الحفّاظ بنسخ المصاحف لتكون

في مصحف كامل جامع واحد تعتمد فيه القراءة على حرف دون غيره من أحرف لما في ذلك من صون للكتاب الحكيم من احتمالات الخلاف في القراءة وهو خلاف لا جرم أن يكون مدعاة لبعثرة التفكير لدى المسلمين وشتات كلمتهم على مر الزمن.

ومن أهم المواضيع التي تناولها هذا البحث إعجاز القرآن. وتلك حقيقة خافية عن أذهان كثير من الناس. ولسنا نبتغي من مثل هذا الكلام عن الإعجاز إلا أن نذكّر المسلمين ونعاود التذكير في استدامة لا تنقطع كيما يكّبوا على دراسة هذا الكتاب الرباني المعجز ليقفوا على مكنوناته ومذخوراته من روائع الحقائق والمعاني وروائع التعبير والأسلوب بما يثير في النفس فينا من العجب والدهش ويسكب فيها أطيافا من الرضى والحبور. وذلك لمن كان يحوي في صدره من البصيرة الواعية المدّكرة ما يستعذب حلاوة القرآن وما يجلله من عذوبة الكلم والنغم. أو من كان يحوي في رأسه من سلامة الذهن والتفكير ما يوقفه على معاني القرآن وما يتزاحم فيه من زاخر الحقيقة والحكمة.

وتناول البحث أيضا قضية التفسير من حيث معناه في كل من اللغة واصطلاح العلماء ثم التفريق بينه وبين التأويل وما ورد في ذلك من جملة أقوال لاهل العلم. ثم من حيث مصادره وهي القرآن نفسه ثم السنة النبوية، ثم أقوال الصحابة، ثم الأخذ بمطلق اللغة، ثم التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع. وكذلك العلوم التي يحتاج اليها المفسر ليضطلع بهذه المهمة الكبيرة الجليلة. ثم أنواع التفسير مع ضرب الأمثلة لكل نوع على سبيل التوضيح.

ثم تناول البحث أيضا جملة من العلوم القرآنية ذات الصلة الوثيقة بعلم الأصول وهي: التعريف بالمنسأ، ثم تحريم ما كان مباحاً، ثم المحْكم والمتشابه، ثم الناسخ والمنسوخ، ثم العام والخاص، ثم المطلق والمقيد، ثم المجمل والمبين.

وأخيراً قد تناول البحث مسألة ترجمة القرآن. وذلك من حيث المعنى لهذا

الاصطلاح وأن الترجمة ضربان أحدهما ما كان واقعا على صورة الكلمة ذاتها وتلك هي الترجمة الحرفية. وما كان واقعاً على التفسير والمضمون وتلك هي الترجمة التفسيرية. والاعتبار القاطع في هذه القضية أن الترجمة الحرفية من الوجهة الشرعية محظورة. ولا جناح بعد ذلك على المترجم الذي ينقل تفسير القرآن لا عبارته الحرفية إلى غير لغة العرب.

وثمة مسائل وعلوم أخرى قد تناولها البحث فيما نرجو أن يكون ذلك كله عاملاً متواضعاً في خدمة الكتاب الحكيم ضارعين إلى الله جلت قدرته أن يعفو عن الزلل وأن يتجاوز عن الضعف والتقصير إنه سميع مجيب.

دكتـــور
أمير عبدالعزيز

تعريف القرآن الكريم

تعريفه في اللغة واشتقاقه:

اختلف أهل العلم والبيان في تعريف القرآن من حيث اللغة والاشتقاق. فذهب بعضهم ومنهم اللحياني الى أنه مصدر مرادف للقراءة، استناداً الى قوله تعالى: «إنَّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبعْ قرآنه». وبذلك فإن القرآن مهموز أصلاً فهو يقرأ بالهمز. وذهب آخرون إلى أنه مأخوذ من القَرء بفتح القاف وهو يعني الجَمع. كأن نقول: قرأ الماء في الحوض أي جمعه فيه. ومنه كلمة القرية وهي الموضع من الأرض الذي يجتمع فيه فريق من الناس. وقيل إنه مشتق من الاقتران لأن آياته وسوره مقترن بعضها ببعض اقتراناً وثيقاً يتجلى فيه التماسك والتلاحم.

وعلى هذا التعريف فإن القرآن يكون غير مهموز فيقرأ بقولنا «القرآن» وهو كما بيّنا من الاقتران، وقيل من القرائن. ومع ذلك كله فإن القول الراجح هو الأول. وهو أن القرآن مهموز وهو مشتق من الفعل قرأ، وذلك استناداً إلى الدليل من الآية القرآنية التي بيّناها.

وقد سمّي القرآن بجملة أسماء أخرى يحمل كل منها معناه. منها: الفرقان باعتباره الكلام الذي يفرق بين الحق والباطل. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى «تباركَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيراً».[1]

والكتاب، وهو الكلام المكتوب بين دفتي المصحف وفيه يقول عز من قائل: «ألم ذلك الكتاب لا ريبَ فيه هدى للمتقين».

---

(١) سورة الفرقان آية (١).

والذكر، وهو يعني العلاء والشرف[1] وفي ذلك يقول القرآن: «وهذا ذكرٌ مبارك أنزلناه».[2]

والتنزيل، وفعله «نزّل» بالتشديد أي أنزله منجما تبعا للمناسبات والأحوال. يقول القرآن في ذلك: «تنزيلٌ من حكيم حميد» وهناك أسماء أخرى كثيرة لا داعي لذكرها لاختلاطها الشديد بمعنى الوصف للقرآن الكريم لا الاسم الذي يرادف الأصل المقصود.[3]

تعريفه في الاصطلاح

لعل التعريف السليم الشامل للقرآن الذي يرد على نحو جامع ومانع هو «كلام الله المعجز المنزل على النبي محمد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته».

وفي تقديرنا أن هذا التعريف يتسم بالدقة والشمول بحيث يتناول كل حقيقة لمفهوم الكتاب الحكيم.

ومن خلال هذا التعريف يتبين أن القرآن كلام الله فهو بذلك معجز يعز على الناس والملائكة والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. فهو في مستواه اللغوي والمعنوي وفي روعته التي تأخذ الأسماع والقلوب، كان على غير ما عرفه البشر من كلام.

وهو كذلك قد تنزل على النبي الأمي محمد ﷺ على نحوين: أولهما أنه قد أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وذلك في القديم الذي لا يعرف مداه أو امتداده إلا الله.

وثانيهما أنه قد تنزل من السماء الدنيا إلى الأرض على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام. على أن تنزيله هذه المرة كان تنجيما تتنزل منه الآية أو

---

(١) قاموس المصباح المنير. أحمد الفيومي ص ٢٢٤.
(٢) سورة الأنبياء آية ٥٠.
(٣) مناهل العرفان للزرقاني جـ ١ ص ١٢.

الجملة من الآيات أو السورة القصيرة أو الطويلة أو بعض السورة كما يقتضي الموقف أو الظرف أو المناسبة.

ومن تعريف القرآن كذلك أنه مكتوب. فقد كان مسطوراً بين دفّتي المصحف. وكيفية ذلك أنه كلما نزلت منه آية أو بضع آيات أو سورة أو بعض سورة كانت تتسطر فيما كان يتيسر من وسائل الكتابة كالرقاع أو اللخاف أو الجلد. يقول القرآن في مثل ذلك «والطور. وكتاب مسطور. في رَقٍ منشور»[1]

ويعرف القرآن أيضا بأنه منقول بالتواتر. وهو أن يدركه ويعيه جم غفير من المؤمنين الذين لا يعقل أن يتواطأوا على الكذب ولا يخلص لإدراكهم ووعيهم شيء من الشك لينقلوه إلى خلق كثير من الناس بعدهم ثم الذين يلونهم وهكذا. فقد تناقل المسلمون كتاب الله حفظاً في الصدور وتسجيلاً في القراطيس والكتب تنقله كل أمة في زمانها إلى الأمة التي تليها. وتلك طريقة مطلقة الكمال من حيث الائتمان والتوثيق ومن حيث اليقين والقطع بأن هذا الكلام جاء خالصاً سليماً من الريبة وكل مظهر من مظاهر النقص أو التزّيد.

والقرآن كذلك متعبَّد بتلاوته. أي أن المؤمن يعبد الله بمجرد تلاوته. فإن تلاوته نفسها ضرب من ضروب العبادة يتقرب بوساطتها المسلم إلى الله فيكتب له الخير والفضل والمثوبة. حتى إن أي كلام آخر غير هذا الكلام لا يُتعبد بتلاوته وإنما يُتعبد بالاستفادة من معناه.

الفرق بين القرآن والحديث

بين القرآن وحديث الرسول ﷺ فرق عظيم. ولا يتلو أحد شيئا من كليهما حتى يستيقن أن بين الكلامين بوناً شاسعاً. وتتبين هذه الحقيقة لكل متدبر أدنى تدبّر أو لكل متبصر أيسر تبصّر. وذلك لما يتكشف للقارىء

(١) سورة الطور الآيات ١ ـ ٣.

الواعي من وجوه باهرة عجيبة تملك السمع والقلب وتشد الحس والوجدان شداً، وذلك كلما تدبر أحد بعض آيات القرآن بوعي مدّكر.

فالقرآن غير السنة. وذلك من حيث الروعة في الكلمة والرصانة في التعبير والكمال في الأداء والأسلوب، ثم التماسك الكامل فيما بين الآيات بعضها ببعض في إطار السورة. وكذلك فيما بين السور جميعها يستوي فيها ما كان مكيّاً أو مدنيّاً رغم التفاوت في الزمن الذي تنزلت فيه هذه الآيات والسور، ورغم الاختلاف في الموضوع الذي نزلت فيه الآية أو السورة.

ولا يكاد القارىء يتلو بعضاً من القرآن وبعضا من الحديث حتى تبادره على الفور حقيقة الفرق المستبين الهائل بين الضربين من الكلام. وأحسب أن إدراك هذه الحقيقة بالذات ليست من الأمور العسيرة التي تتيسر لغير الضالعين في العربية أو ذوي القدم الراسخة في علوم اللسان والبيان. بل إنني أحسب أن مثل هذه الحقيقة وهي استشفاف الفرق المكشوف بين القرآن والحديث يمكن أن تتيسر لكل من يبذل أدنى قدر من الجد في الكشف عن الفرق بين الكلامين.

وأعرض هنا لجملة من الآيات والسور حتى يستيقن المتدبر مبلغ الفرق المكشوف بين الكلامين من حيث جمال العبارة وروعة الأسلوب وكمال التناسق والأداء.

فقال سبحانه: «كلا إذا دُكَّت الأرض دكّاً دكّا. وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً. وجيء يومئذ بجهنَم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنَّىٰ له الذكرى. يقول ياليتني قدمت لحياتي. فيومئذ لا يُعذّب عذابه أحد. ولا يوثِق وَثاقه أحد. ياأيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي».[1]

وقوله تعالى: «إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم. يصلَوْنها يوم

---

(١) سورة الفجر الآيات ٢١ ـ ٣٠

الدين. وما هم عنها بغائبين. وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله». [1]

وقوله تعالى: «إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثَمَّ أمين. وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين. وما هو على الغيب بضنين. وما هو بقول شيطان رجيم. فأين تذهبون. إنْ هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين». [2]

وقوله تعالى: «يسألونك عن الساعة أيّان مُرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها». [3]

وقوله تعالى: «وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّارا. إنك إن تذرهم يُضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً. ربِّ اغفر لِي ولوالديّ ولمن دخل بيتيَ مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزِدِ الظالمين إلا تَبارا». [4]

هذه جملة آيات من القرآن العظيم نسجلها للقارىء المتدبّر فيعي ما يتخللها من عذوبة وإشراق من خلال أسلوب عجيب فذ لا نظير له في الأساليب كافة. أما أسلوب الحديث النبوي، فنعرض البعض منه مما قاله النبيّ ﷺ.

فقد أخرج الشيخان إماما الحديثِ بإسنادهما عن عمر بن الخطاب أن النبيّ ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىءٍ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

---

(١) سورة الانفطار الآيات ١٣ - ١٩.
(٢) سورة التكوير الآيات ١٩ - ٢٩
(٣) سورة النازعات الآيات ٤٢ - ٤٦.
(٤) سورة نوح الآيات ٢٦ - ٢٨

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال النبيّ ﷺ «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا».

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يتمنين أحدكم الموت لضُر أصابه، فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وفيما رواه البخاري عن أبي عبدالله خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال «قد كان مَنْ قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

وأخرج الترمذي بإسناده عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، اذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء كتبه الله عليك رفعت الأقلامُ وجفّت الصحف».

فهذه أحاديث نبوية تفوح منها بشرية الأسلوب بما في ذلك من معهود الكلام الذي يقع في دائرة البيان على تعدد ضروبه وتفاوت درجاته. وقارىء هذين الضربين من الكلام يجد الفرق بينهما عظيما هائلا. لا في الكلمة أو التعبير المتميزين وإنما في الطابع والأسلوب اللذين تجللهما إشراقة ربانية كريمة تفيضُ بالجمال ويتقاطر منها البهاء والجلال.

ومثل هذا الفرق الواضح يكشف عن حقيقة ما أجمعت عليه كلمة اللغويين

والبلغاء السابقين من أهل الفصاحة واللسن الذين ذهبوا الى أن القرآن لم يكن على ضرب من ضروب العربية كلها وهي الشعر والنثر والسجع والخطابة والرسالة. ليس القرآن على ضرب من هذه الضروب، فلا هو بالشعر ولا بالنثر ولا بالخطابة ولا بالسجع ولا بالرسالة، ولكنه الكلام المتميز الفذ الذي لا يناسبه غير هذه التسمية الفريدة الخاصة وهي «القرآن». أما الحديث فهو ضرب من النثر البليغ الراقي الذي يسمو إلى أعلى درجات الفصاحة والبيان وهو عليه الصلاة والسلام يقول عن نفسه البليغة: «أوتيت جوامع الكلم» لكن الحديث - مع رفيع مستواه وكريم محتواه ورائع مبناه - إنما يأتي من خلف القرآن الذي يدنو دونه كل كلام ويهبط من ورائه أي بيان مهما بلغ من علو المنزلة وسموقها.

وعلى هذا الاساس ظل القرآن مصونا من العبث والنيل رغم المحاولات الكاثرة التي مارسها الأدعياء والمغرورون ليصطنعوا مثل هذا الكلام. وكلما حاول عابث مصطنع أن يأتي بمثل هذا القرآن أخفق وباء بالفشل وارتد على عقبيه خاسئاً مدحورا. فكان بذلك من المستحيل على أحد من الخلائق أن يأتي بمثل هذا القرآن، أو أن يخلطه بشيء من قول مزيد. وبذلك يجزم المؤمن في يقين لا يداخله شك أن القرآن ظل سليماً من التلاعب والتحريف بدءاً بنزوله على النبيّ الكريم إلى أن يفنى الخلق والزمان جميعاً.

أما الحديث النبوي فقد تمكن بعض المفسدين من زنادقة وعابثين أن ينفذوا إلى دائرته ليصطنعوا منه جزءاً مفترىً موضوعاً وذلك في فترة من موات الضمير أو غفلة من أهل الاختصاص المخلصين. وسبب ذلك في الاصل أن الحديث في عبارته ونسقه وأسلوبه لهو قول بشر لا يبلغ درجة الإعجاز الذي يتحدى الناس جميعا طيلة الدهر.

* * *

والحديث صنفان: حديث نبوي وآخر قدسي.

أما النبوي فهو ما صدر عن النبيّ ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. على أن الذي يهمنا هنا وما نحن بصدده هو أن الجانب القولي من الحديث ما كان من عند الرسول ﷺ وهو عليه السلام في ذلك مخوّل من ربه أن يعبّر بلغته البشرية ليبلغ الناس الرسالة كما يوحى إليه. فالكلام قول بشر لكن المعنى قد أوحي به من الله. وأما الحديث القدسي فهو من القدس بمعنى الطهر. والأرض المقدسة أي المطهّرة. ونقول تقدّسَ الله أي تنزّه. وهو القُدُّوس أي المتنزه عن كل نقص[1].

ويمكن أن نبين الفرق بين كلٍ من القرآن والحديث ثم الحديث القدسي وذلك ازالة للإشكال أو اللبس. فالقرآن كما بيّنا هو كلام الله المعجز المتعبّد بتلاوته والمنقول عن طريق التواتر. فهو بذلك من عند الله سواء فيه الكلام المنطوق أو المعنى المضمون.

أما الحديث النبوي فهو من نطق النبي وتعبيره لكن ما احتواه من معنى ومضمون فهو قد أوحي اليه به. يضاف الى ذلك أن الحديث النبوي غير متعبد بتلاوته اذ لا تجزىء قراءته في الصلاة بدلا من فاتحة الكتاب أو آيات أخرى من القرآن وهو كذلك ظنّي من حيث ثبوته إلا ما كان منه متواتراً.

وأما الحديث القدسي فهو من عند الله على الأرجح والمشهور لكنه قد جيء به على هذا الأسلوب ليكون غير معجز كالقرآن. والإعجاز من حيث الكلام والأسلوب والتعبير لم يتحقق إلا في القرآن. هذا الكتاب الذي له خصائصه المستقلة التي تميزه عن كل من الحديث والحديث القدسي.

وخلاصة ذلك أن القرآن قد أوحي به من عند الله لفظاً ومعنى. وهذه حقيقة لا خلاف فيها إلا أن يكون رأي شاذ ليس له وزن. لكن الحديث القدسي قد أوحي به من عند الله على المشهور وهو الذي عليه أكثر أهل العلم. ونعني هنا الكلام الذي صيغ عليه الحديث القدسي، أما معناه فقد جيء

---

(١) المصباح المنير ص ١٥٠.

به عن طريق الوحي بلا خلاف. وأخيراً الحديث النبوي فهو من عند الله من حيث المعنى والمضمون لكن كلماته كانت من صنع النبي ﷺ وهو بشر.

وثمة مثال على الحديث القدسيّ نسجله هنا ليتدبره القارىء فيعلم أنه غير معجز وأنه من حيث العبارة والأسلوب كالحديث النبوي سواء بسواء.

فقد أخرج الشيخان عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال:« إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وان همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة وان همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

وأخرج الامام مسلم بإسناده عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: « يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنَّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكُمْ كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يُنقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».

ذلك حديث قدسيّ، ربّانيّ في مضمونه ومعناه، غير معجز في صورته

ومبناه. وتلك حقيقة يدركها تمام الإدراك حتى من أوتي قدراً يسيراً من الاطّلاع على لغة العرب أو كان يلمّ بعض الإلمام بصور البيان والكلام.

مما سبق يتبيّن الفرق الواضح بين القرآن والحديث بما يشتمل عليه الثاني من ضربين للحديث. أحدهما الحديث النبوي، وثانيهما الحديث القدسي.

أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل

أما أوّل ما نزل من القرآن فهو موضع خلاف العلماء من مفسّرين ومحدّثين وغيرهم. وقد جاء في ذلك جملة أقوال.

أولها: أن أول ما نزل من كلام الله هو قوله: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم». وقد ورد في ذلك أدلّة كثيرة وقوية تتضافر جميعها على صحة هذا القول. منها ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثانية حتّى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال «اقرأ باسم ربك الذي خلق» حتّى بلغ «ما لم يعلم». فرجع رسول الله ﷺ ترجف بوادره.

ثانيها: أن أول ما نزل قوله: «يا أيها المدّثر. قم فأنذر. وربك فكبّر. وثيابك فطهّر. والرُّجْزَ فاهجُر». وتلك رواية عن جابر بن عبدالله

لما سئل عن أوّل ما نزل فقال: أحدّثكم ما حدّثنا به رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «اني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ثم نظرت الى السماء فاذا هو - يعني جبريل - فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثّروني فأنزل الله: «يا أيها المدّثر. قم فأنذر» وقد ردّ هذا القول بعدة ردود جيدة لا مجال لذكرها هنا.

ثالثها: قيل إنها سورة الفاتحة. وذلك مرويّ عن بعض المفسّرين. واحتجّوا في هذا القول بما أخرجه البيهقي عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة «إني اذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً» فقالت: مَعاذَ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرَّحِم وتَصْدُقُ الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فقصّا عليه فقال: «اذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد. فأنطلقَ هاربا في الأفق» فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول. ثم ائتني فأخبرني. فلما خلا ناداه: يا محمد قل: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين» حتى بلغ: «ولا الضالّين».

وقد رُدّ الاستدلال بهذا الحديث لأنه يحتمل أن يكون خبراً عن نزول السورة بعد أن نزلت عليه اقرأ أو المدّثر.

رابعها: أن البسملة كانت أول ما نزل على النبي ﷺ. فقد روي عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» وأول سورة نزلت «اقرأ باسم ربك الذي خلق» وهي رواية عن ابن عباس، إلا أن هذا القول ضعيف ولا يمكن الاستناد إليه، وذلك لما يخالطه من احتمال يسقط معه الاستدلال. فالصحيح أن البسملة كانت تتنزل على رأس كل سورة. والقول بنزولها أول

آية كان بإطلاق[1].

وقد ورد غير ذلك أقوال أخرى حول أول ما نزل من القرآن، لكنها أقوال يصعب الركون إليها لضعف ما تستند إليه من دليل. ويمكن بعد ذلك أن نتثبت من أن أصدق هذه الأقوال أوّلها وهو أن أول ما نزل قوله تعالى «اقرأ باسم ربك الذي خلق» ويليه في القوة «يا أيها المدّثر» وثمة قول جيد عن طريق الجمع بين الأقوال جميعها إن أول ما نزل من الآيات «اقرأ باسم ربك» وأول ما نزل من أوامر التبليغ «يا أيها المدّثر» وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة[2].

وأما آخر ما نزل من القرآن. فقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرا. منها ما ذكر عن ابن عباس أن آخر ما نزل هي سورة النصر «اذا جاء نصر الله والفتح».

ومنها ما ذكر عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن آخر ما نزل سورة المائدة. وقيل قوله تعالى «واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله».

ومنها ما ذكر عن السُّدي أن آخر ما نزل قوله تعالى: «فإنْ تولّوا فقل حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرشِ العظيم».

ومنها ما ذكر عن البراء بن عازب أن آخر ما نزل قوله تعالى «يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكلالة»

ومنها ما ذكر عن آخرين أن آخر سورة أنزلت كاملة هي سورة براءة وأن آخر آية نزلت هي خاتمة سورة النساء.

ومنها ما ذكر عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب أنه قال: آخر آية نزلت على عهد رسول الله ﷺ: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرشِ العظيم».

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ١ ص ٢٣ - ٢٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

ومنها ما ذكر أن آخر آية هي آية الربا. وقيل آية «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا». وقيل غير ذلك.

والظاهر أن هذه الأقوال كلها محتملة فإنه ليس فيها قول مرفوع إلى النبيّ ﷺ، بل هي واردة على سبيل الاجتهاد وغلبة الظن. فإنه من المحتمل أن كل من له قول في هذه المسألة كان قد أخبر عن آخر ما سمعه من النبيّ ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل مع أن غيره سمع منه بعد ذلك، لنزول الوحي عليه بقرآن بعده كما قال القاضي أبو بكر[1].

تنجيم القرآن

التنجيم اسم مصدر فعله نجّم بالتشديد أو أنجم. والنجم هو الوقت المضروب. يقال: نجّم المال أو أنجمه أي أدّاه نجوما (مفرّقا)[2]. ذلك معنى التنجيم في اللغة. أما في الاصطلاح فإنه يقتضي بياناً وتفصيلاً كما نقف على هذا المفهوم تماما وذلك بالنظر لأهميته في هذه العلوم. ونبادر القول لنبين أن تنجيم القرآن يعني تنزيله على النبي مفرقاً لا جملة واحدة.

وقبل الكلام على تنجيم القرآن أو نزوله مفرقاً على النبي ﷺ فإنه يجدر الكلام عن كيفية إنزاله جملة واحدة. مع أنه قد ورد في هذه المسألة عدة أقوال نبينها فيما يلي:

القول الأول: نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة وذلك في ليلة القدر ثم تنزل مفرقا خلال عشرين سنة أو ثلاث وعشرين سنة أو خمس وعشرين على الخلاف في هذه المسألة. فقد اختلفوا في المدة التي أقامها النبي ﷺ في مكة بعد بعثته. فقد قيل: كانت إقامته هذه عشر سنين، وقيل ثلاث عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة. مع أن مدة إقامته في المدينة بعد البعثة بلغت عشر سنين بالاتفاق. وقيل غير ذلك مما هو قريب منه.

---

(١) الاتقان للسيوطي جـ ١ ص ٢٧ والبرهان للزركشي جـ ١ ص ٢١٠.

(٢) القاموس المحيط جـ ٤ ص ١٨١ ومختار الصحاح ص ٦٤٧

ودليل هذا القول هو قول الله سبحانه «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» أي أنزل القرآن من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا في شهر رمضان وقوله سبحانه «إنا أنزلناهُ في ليلة القدر» أي أنزلنا القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر. وقيل في تفسير هذه الآية غير ذلك.

وثمة روايات عن ابن عباس في إنزاله جملة واحدة ننقلها على النحو الآتي: فقد أخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: «أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه إثر بعض».

وأخرج الحاكم والبيهقي والنَّسائي عن ابن عباس أيضا قال: أنزل القرآن جملة واحدة الى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ «ولا يأتونك بمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزَّلناه تنزيلا».

وأخرج الحاكم وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال «فُصِل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبيّ ﷺ».

وأخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس قال «أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان الى سماء الدنيا جملة واحدة ثم أُنزل نجوما».

وثمة روايات من طرق أخرى عن ابن عباس تحمل نفس المعنى.

القول الثاني: إن القرآن أنزل الى السماء الدنيا في عشرين ليلة قَدْر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين في كل ليلة ما يقدّر الله إنزاله في كل السنة ثم نزل بعد ذلك منجما في جميع السنة.

قال الامام فخر الدين الرازي في تعليل هذا القول: يحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس الى إنزاله الى مثلها من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا.

القول الثالث: وهو رأي الشعبي فقد قال: إن القرآن بُدىء إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً حسب الحوادث والمناسبات.

القول الرابع: وهو ضعيف وهو قول الماوردي إذْ ذهب الى أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة وأن الملائكة الحفظة قد نزّلته تنجيما على جبريل عليه السلام في عشرين ليلة وأن جبريل قد نجّمه على النبيّ ﷺ في عشرين سنة.

هذه أقوال أربعة في كيفية إنزال القرآن ولا جرم أن يكون القول الأول هو الصحيح. وذلك بالنظر الى الأدلة المتضافرة من الكتاب والسنة التي تنطق بإنزال القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم تنزيله تنجيماً على النبي ﷺ تبعاً للأوضاع والأحوال والمناسبات.

السّر في إنزاله جملة واحدة إلى السماء الدنيا

ثمة سر أو مقصد يتجلى للباحث البصير وهو يتدبر هذه المسألة. مسألة إنزال القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة. وهذا السر أو المقصد هو أن يتحقق التفخيم والتعظيم للقرآن الكريم وللنبي محمد ﷺ ثم لهذه الأمة العظيمة وهي أمة القرآن خير الأمم بشهادة القرآن نفسه. فقد أراد الله جلت قدرته - كما تصوّر بعض أهل العلم - أن يبيّن للخلائق في السموات السبع العظيمة أن القرآن لهو الكتاب المنزل على أشرف الأنبياء ليتم تنزيله بعد ذلك على أشرف أمة.

فلئن كانت الكتب السماوية الأسبق قد تحققت فيها خصلة الإنزال جملة واحدة، فإن هذا الكتاب قد تحققت فيه خصلتان. إحداهما إنزال القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة. وثانيهما تنزيله مفرقاً على النبيّ عليه السلام. فتلكما حقيقتان توفرتا في هذا الكتاب خلافا للكتب السابقة كما بيّنا. ذلك ما ذهب اليه بعض أهل العلم وهو رأي لا يتجاوز نطاق الظن والاحتمال.

تنزيله منجّماً

بيّنا أن التنجيم هو التنزيل تفريقاً. فقد نزل القرآن على النبيّ ﷺ مجزّءاً مفرقاً كأن يكون ذلك:

أولا: للإجابة عن أسئلة يوجهها السائلون للنبيّ ﷺ. وذلك كقوله سبحانه وتعالى: «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». وقوله تعالى: «ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا» وقوله تعالى: «ويسألونك ماذا ينفقون. قل العفو» وقوله تعالى: «ويسألونك عن اليتامى. قل إصلاحٌ لهم خير. وإن تخالطوهم فإخوانكم».

ثانيا: للرد على قضايا ومشكلات كانت تحدث في زمن النبوة. ومثل هذه كان حدوثها مفرقاً من حين لآخر. فكانت الآيات تنزل وفقا لهذه القضايا والمشكلات. وذلك كقوله سبحانه في قضية أهل الإفك وافتئاتهم الظالم على أم المؤمنين عائشة: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كِبْره منهم له عذاب عظيم» فكان في هذه الآية وما بعدها الرد على المفترين الذين تطاولت ألسنتهم بالسوء على الحمى الكريم المصون بما يدحض هذا الباطل النكير الذي قارفه أدعياء الشر والسوء من المنافقين والظالمين واليهود.

وقوله تعالى بما يشير إلى اطلاعه على مجادلة حدثت بين النبيّ ﷺ وإحدى نساء المسلمين جاءت تشتكي إلى الله في قضية زوجها الذي ظاهر منها: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير» هذه الآية وما بعدها من آيات في سورة المجادلة جاءت لتردّ مفهوماً جاهلياً فاسداً كان يحيق بالمرأة فيسومها الحيف والتعسف. وذلك أن الرجل كان إذا

أراد النيل من زوجته ومغايظتها يقول لها: « أنت عليَّ كظهر أمّي »، وهي مقولةٌ ظالمة فاسدة تنقلب بعدها المرأة كالمعلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلّقة. وفي مثل هذا التصرف المشين ما يؤذي الزوجة أشد إيذاء. حتى نزلت هذه الآيات لتُذهِب عن المرأة مفسدة من المفاسد التي أفرزتها أعراف الجاهلية قبل الاسلام.

ثالثا: لتقويم الإنحراف في التصوّر أو السلوك يخالج أذهان المسلمين أو يخالط بعض تصرفاتهم بما يقتضي عدداً من الآيات الدالة المرشدة التي تكشف للمسلمين عن وجه الحق وتحضهم على الاستقامة والمسير على صراط الله. وذلك كقوله تعالى عقيب معركة حنين إذْ أخذت المسلمين في مطلعها نوبة من اغترار وثقة راسخة مسبقة بالنصر اعتماداً على كثرة العدد مع أن النصر من عند الله. والله سبحانه يأمر أن يأخذ المجاهدون بالأسباب ثم يركنون بعد ذلك إلى الله: « ويوم حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ».

وكذلك قوله سبحانه بعد معركة أحد التي أصاب المسلمين فيها القرح والشدة فابتلاهم الله بشيء من البلاء إذ سقط فيهم شهداء ومسَّهم الأذى والقرح وانتابتهم موجة عاتية من الكآبة والأسى والابتئاس. « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤمنين. إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثلُه وتلك الأيامُ نداولها بين الناس وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحّصَ الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ». ثم قوله تعالى: « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضر الله شيئا

وسيجزي الله الشاكرين». هذه الآيات جاءت لمناسبة عظيمة وهي معركة أحد حيث الألم الشديد الذي لحق المسلمين لما أصابهم من قتل وانتكاس معنوي. خصوصا وقد شاع في معسكر المسلمين أن رسول الله ﷺ قد قتل فزلزل المسلمون لذلك زلزالاً شديداً. ومثل هذا الحدث المؤثر المريع يتطلب مواساة ربانية كريمة تمسح عن قلوب المسلمين ظواهر الحزن المُمِضّ وتبدد في نفوسهم المرارة والغيظ والاغتمام، وتسوق إليهم فيضاً من المواساة والتحضيض. وقوله تعالى في تبرئة رجل من اليهود قد حاف عليه بعض المسلمين افتراء وزوراً بعد أن اتهموه بسرقة درع. ثم ألحّوا على النبيّ ﷺ ليقيم عليه الحد ليكون في ذلك تبريئاً لرجل منهم كان في الحقيقة سارقاً. وقد همّ النبيّ ﷺ أن ينفّذ فيه عقوبة القطع لولا أن أنزل الله في شأن هذا المتهم البريء آيات بيّنات تعلن للملأ براءته: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكنْ للخائنين خصيما. واستغفر الله إنَّ الله كان غفوراً رحيما. ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيما».

رابعا: للتحريض على قتال الكافرين والمشركين الذين يشاقّون الله ورسوله والذين يصدّون عن سبيل الله ويسعون في الأرض خرابا وإفساداً. وذلك كقوله تعالى: «يا أيها النبي حرِّضِ المؤمنين على القتال إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكنْ منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون». وقوله تعالى: «انفِروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إنْ كنتم تعلمون». وقوله تعالى: «وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أن الله مع المتقين».

خامسا: للكشف عن أسرار المنافقين واماطة اللثام عن وجوههم التي تعلوها البشاشة الخادعة المصطنعة والتي تنطلي على الناس لولا أن الله جلّت

قدرته كشف عن حقيقة نواياهم الخبيثة من وقت لآخر فجعلهم حاسرين مكشوفين[١٦] . وذلك كقوله تعالى: « إنَّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يُضْلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيلا » . وقوله تعالى: « وإذا رأيتهم تعجبُك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هُمُ العدوّ فاحذرهم قاتلهم الله أنّىٰ يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالَوْا يستغفر لكم رسول الله لوَّوْا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون » .

سادسا: مخاطبة الله لرسوله على مناحي شتى من ضروب الخطاب فيما يتراوح بين اللوم العنيف، أو العتاب الحاني، أو التهديد والتخويف في ترعيب بالغ مؤثّر. يقول سبحانه لائماً نبيه الكريم لعبوسه في وجه الأعمى الذي جاء يستوضح بعض المسائل، مع أن النبيّ عليه الصلاة والسلام ما كان ـ إذ سأله الأعمى ـ منشغلا بشؤونه الخاصة بل إنه كان في ذهنه ولسانه وأعصابه مشدوداً نحو فريق من أكابر المشركين يريد أن يبين له روعة هذا الدين وهو يدعوهم الى الله « عبس وتولّى . أنْ جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزّكّى . أو يذّكّر فتنفعه الذكرى » . ويقول عزّ من قائل عاتباً على نبيه في رحمة وحنان وذلك بعد أن أذِن لبعض المنافقين بالانصراف وهم في الحقيقة إنما يبتغون الهروب من ساحة الحرب في ساعة العسرة والتملص من وجيبة الجهاد المقدّس يوم تبوك: « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون » . ويقول الله جلت قدرته لنبيه مهدداً وذلك من خلال

(١) مناهل العرفان للزرقاني جـ ١ ص ٥١ ـ ٥٣ .

عبارات تنطوي على التوعد المخوف بإنزال العقاب نظير أي تقوّل على الله أو انحراف عن خطه المستقيم :« ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين». ويقول سبحانه في رد ما آلت اليه كلمة المسلمين والنبيّ في تسريح الأسرى نظير أموال يؤدونها، وأن ذلك كان تصرفاً غير مقبول قد حذّر الله من العودة لمثله، وأنه لولا فضل الله على المسلمين والنبيّ لعذبهم تعذيبا: « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يُثخنَ في الأرض. تريدون عرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم».

وغير ذلك من الأحداث والمشكلات ومقتضيات الأحوال كثير. وفي مثل ذلك كله كانت تتنزل آيات الذكر الحكيم على سبيل الإحقاق للحق أو الازهاق للباطل أو الترسيخ لمعاني العقيدة والخير والتشريع في حياة الفرد من جهة وفي واقع المجتمع الإسلامي كله من جهة أخرى.

أسرار تنجيم القرآن

ثمة نصوص من الكتاب والسنة على أن القرآن نزل منجماً وذلك تبعاً للحاجات والمناسبات والظروف المتبدلة المتجددة.

أما الكتاب فقد قال سبحانه: « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزّلناه تنزيلاً».

وقوله: « وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآنُ جملةً واحدةً كذلك لنثبتَ به فؤادك ورتّلناه ترتيلا».

وقوله: « ولا يأتونك بمثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا».

أما السنّة فثمة أحاديث كثيرة في هذا الصدد وقد بيّنا شطرا منها عند الكلام على تنجيم القرآن. ومن جملة ذلك ما أخرجه كثير من أئمة الحديث

بإسناد كل منهم عن ابن عباس. فقد أخرج الحاكم وابن أبي شيبة باسنادهما عن ابن عباس قال: «فُصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ».

وأخرج الطبراني كذلك عن ابن عباس من وجه آخر قال: «أنزل القرآنُ في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم أنزل نجوما». إلى غير ذلك من الادلّة ذات الأسانيد الصحيحة.

بعد هذه الأدلّة والنصوص نعرض لجملة أسرار ومقاصد تكمن في تنجيم القرآن. وهي أسرار ومقاصد يمكن إدراكها والوقوف عليها من خلال التدبّر الواعي لما سبق من نصوص قرآنية وكذلك في ضوء الاستقرار والادّكار لطبيعة الدعوة الإسلامية والكتاب الحكيم الذي جاء مسايراً لفطرة الانسان وملائماً أوفى تلاؤم للحياة البشرية في جميع الأحوال على امتداد العصور.

نعرض لهذه الأسرار والمقاصد على النحو الوجيز التالي:

أولا: من المعلوم أن عملية الوحي والتنزيل تنطوي على تكرار مستمر لنزول الآيات على النبي ﷺ بما في ذلك من مختلف المعاني والدروس في ضروب شتى من المواعظ والترشيد والتحضيض وغير ذلك. ولا جرم أن يكون في مثل هذه اللقاءات المستمرة المتكررة ما يبعث السكينة والحبور في نفس النبيّ الكريم ويشيع في صدره الطمأنينة والرضى. وذلك عامل أساسي ومؤثّر من عوامل التثبيت للنبيّ ﷺ. والتثبيت كله من الله فهو سبحانه ييسر للمرء المؤمن أسباب الهداية والتثبيت. يقول سبحانه في هذا الصدد: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا». ومعلوم أن الإنسان تتجلى فيه علائم الضعف البشري. الضعف في العزيمة التي تتحدد عند حدود مقدورة، والضعف في الاحتمال الذي يتفاوت من فرد لآخر أو من أمّة لأخرى، والضعف في القدرة على الاصطبار وهي شيمة أساسية ينبغي توفرها في المصلحين والدعاة إلى الله. يضاف إلى ذلك المشكلات

الكثيرة التي كانت تواجه النبيّ الكريم سواء في ذلك المشكلات السياسية أو الاجتماعية أو الخلقية أو الثقافية وغير ذلك من مشكلات تزيد من صعوبة الدعوة الى الإسلام ومن ثقل المهمة التي كان يطيقها عليه الصلاة والسلام. ومن جهة أخرى فإن المشركين اللُّد كانوا على غاية الخصام المكابر والعناد الذي لا يرضخ للحجة والمنطق ولا يصيخ لأي هتاف من هتافات الحق واليقين إلا التشبث الجاهل بأعراف فاسدة ضالة وتصورات مظنونة موهومة. إن مثل هذه الأسباب الشاقة العسيرة لهي أحجار ثقيلة عوارض تقف في سبيل النبيّ ﷺ وهو يدعو الناس الى عقيدة التوحيد والى الإنسلاخ كلياً من ظلام الجاهلية الى نور الإسلام ومن ربقة الشرك والتردد الى حومة الإيمان واليقين. إن مثل هذه الأسباب المعثرة الكؤود تزلزل الأعاظم من الرجال مهما كانوا عليه من صلابة العزم ورباطة الجأش إلا أن يكونوا من جنس النبيين الذين يستظلون بأفياء السماء، والذين يتنزل عليهم الوحي بين الفينة والأخرى وهو يحمل إليهم بواعث التقوية والتشجيع ويسكب في نفوسهم أفياضاً من شآبيب الراحة والأمن والشرح. وهكذا كان النبيّ محمد ﷺ يعاني من صعوبات جة تعترضه في الطريق. وهي صعوبات في الاقناع، وصعوبات في التنديد بالشرك والوثنية التي كانت تراود أذهان الناس وتصوّراتهم وكذلك صعوبات في التحريض على التمسك بالخلق الجديد بكل ما في ذلك من أصول وجزئيات في السلوك والتصرّف. ومثل هذه الصعوبات والقضايا تضيف فوق كاهل النبيّ مزيداً من العبء الثقيل الذي لا يقوى على احتماله أحد من البشر إلا أن يكون نبيّاً يأتيه الوحي من السماء.

ومن أجل ذلك كان نزول القرآن على النبيّ منجماً ينطوي على فيض من المواساة والتأييد. فكان عليه الصلاة والسلام كلما حزبته

شدة وانتابته ظواهر من النوائب المزلزلة الثقال جاءه الوحي من السماء يقرأ عليه بضع آيات فيما يجلب له الأمن والرضى ويسرّي عنه تسرية تتبدد معها كل عوامل النَصَب أو الحزن أو المضانكة، حتى يبوء النبيّ بعد ذلك بقوة العزم وزيادة الإيمان. وتلك المعاني يمكن الوقوف عليها في ضوء النص القرآني الكريم: «وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة». الكافرون من أهل الكتاب الذين في نفوسهم مرض والذين يغيظهم أشد الغيظ أن يسمعوا دعوة الإسلام ونبيه يطرحون هذا السؤال الذي يقوم على التعصب والجهل: هلّا أنزل عليك القرآن يا محمد دفعة واحدة كالكتب السماوية السابقة الأخرى مثل التوراة والإنجيل؟! وأكرم جواب وأوفاه ما قاله القرآن رداً على سؤالهم وتحضيضهم «كذلك لنثبّت به فؤادك» أي كذلك قد نزّلناه عليك نجوماً لما في ذلك من تثبيت لقلبك على الحق والإيمان ولما في ذلك من شَدٍّ لأزرك وعزمك وتأييدٍ لك في معركتك المضنية الطويلة مع الشرك والمشركين. ويضاف إلى ذلك أيضا ما جاء في القرآن من أخبار النبيين السابقين وذلك في أسلوب قصصيّ مؤثّر على نحو مكرّر في كثير من الأحيان. ومثل هذه الأخبار يُسرّي عن النبيّ عليه السلام ويُذهب عن نفسه الإحساس باللوعة والشجن ويزيد من قدر العزيمة وقوّة الاحتمال في شخصه الكريم. يقول سبحانه: «وكلّاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك».

ثانيا: إن في تنزيل القرآن نجوماً مفرقاً ما يسهل على المسلمين تلاوته وحفظه وإدراك ما فيه من معان في الأوامر والنواهي وفي المواعظ والدروس وفي روائع البيان والتعبير وفي الاعجاز الذي ما فتيء يتحدى البشر على مر الزمن. وكذلك فإن في تنزيله منجماً ما يهوّن على الناس مهمة الالتزام بمباديء هذا الدين والاضطلاع بما في هذا

الكتاب من الاوامر والزواجر. ولا جرم أن يكون النزول تدريجياً أهون على الناس من حيث العمل والتطبيق ومن حيث الوقوف عند كل حد من حدود الإسلام بما فيه من زاخر الأحكام والنظم والتكليفات. ولنا أن نتصوّر فداحة الثقل الذي تنوء بحمله الراسيات الشمّ اذا ما أنزلت تعاليم الإسلام كلها مرة واحدة فكيف بالإنسان وهو الذي يضيق ذرعا بكثافة التكليفات ويتشنج عاجزا أمام سيل منهمر من الأوامر والأحكام والنواهي وهي تهبط مرة واحدة. كيف يقدر الإنسان ـ وهو المحدود في ارادته وطاقته واحتماله ـ أن يضطلع بتنفيذ تكليفات وأوامر جملة واحدة، مع أنها تكليفات وأوامر كثيرة وكبيرة جاء بها دين عظيم يتسم بالاتساع والشمول بما يتناول المشكلات والقضايا جميعها، وبما يغطي الواقع البشريّ كله؟!

كيف يستطيع الإنسان ـ وهو المحدود في ارادته وطاقته واحتماله ـ أن يقوى على احتمال هذا النظام بكل ما فيه من الاركان والأصول والقضايا، وبما فيه من معان ومتطلبات في العقيدة والعبادة والاخلاق دفعة واحدة؟! انه لا سبيل الى ذلك إلا بالتنفيذ والاحتمال تباعا ومن خلال مراحل متدرّجة يتلو بعضها بعضا. واذا لم يكن الأمر كذلك فلسوف يعز على الانسان والبشرية احتمال هذا الدين أو طوق ما جاء به القرآن من مفاهيم وتصورات وأحكام وذلك في العقيدة والعبادات والسلوك والتشريع. ولسوف تُمنى دعوة الاسلام بالانكماش والتعليق فلا يتسنى لها التطبيق والنفاذ. ولسوف يظل الانسان كذلك عاجزاً تمام العجز دون القدرة على الاضطلاع بما أورده القرآن من معان وأحكام. ولا جرم أن تكون النتيجة بالغة الفداحة والانهيار.

أخرج البخاري عن عائشة قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ونزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر

لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً». وقد أمكن الاستقراء من بعض الأحاديث الصحيحة وغيرها من الأحاديث أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل. وقد صح نزول العشر آيات في قصة الافك جملة، وصح نزول عشر آيات من أول سورة المؤمنين جملة، وصح نزول قوله تعالى: «غير أولي الضرر» وحدها وهي بعض آية. وقيل في قوله تعالى «فلا أقسم بمواقع النجوم»: أنزل الله القرآن نجوماً ثلاث آيات وأربع آيات وخمس آيات. وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يعلم الناس القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشيّ ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبيّ ﷺ خمساً خمساً. وروي عن عليّ رضي الله عنه قال: أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الأنعام ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه[1].

يتبيّن من ذلك كله أن نزول القرآن نجوماً كان سببا أكبر في وعي القرآن والالتزام بما فيه من الأوامر والزواجر. وهو كذلك سبب أكبر في تثبيت المسلمين على هذا الدين المتين الذي لا سبيل لوعيه وتطبيقه الا اذا كان نزوله منجما مفرّقا. ولو لم تكن الحال كذلك لظل القرآن معزولا عن مدارك الناس وعن صدورهم ولكان قد عز عليهم أن يعملوا بما حواه هذا الكتاب من عظيم المبادىء والقيم والتصوّرات.

ثالثا: التنزيل تنجيماً، يؤدي بالضرورة الى التدرّج في الإلتزام بتعاليم الإسلام عقيدة وشريعة ويؤدي كذلك الى التدرج في تكوين الشخصية المسلمة التي ما كان في المستطاع اذ ذاك أن تأتي مكتملة طفرة واحدة. فإنه لا سبيل الى تكوين مثل هذه الشخصية المكتملة

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٤٢، ٤٣.

المنضبطة الا عن طريق الالتزام المتدرج. الالتزام الذي يتوارد على النفس والاعصاب والذهن تباعا حتى يتيسر احتماله وطوقه في غير ما تعسير أو اصطدام بطبع الإنسان وفطرته. وذلك الذي حدث للمسلمين الأوائل في مقتبل الرسالة الإسلامية ولدى نزول القرآن منجما. فقد كانت الآيات القلائل تتنزل تترى، وفي كل مجموعة من هذه الآيات المنزلة بعض التكليفات من الأوامر والمناهي مما يستطيع الناس تنفيذه والعمل به في سهولة محببة. حتى إن المسلمين كانوا ينتظرون الآيات تتنزل عليهم بفارغ الصبر وفي تلهف بالغ حرور ليقوموا بأداء ما تحمله هذه الآيات في غاية من الحماسة الدافعة والنشاط المؤثر. وهذه الحقيقة تكشف لنا عن سبب من أسباب التكوين الحكيم الفذّ للشخصية المسلمة العظيمة في مطلع الاسلام، أو عند نزول القرآن بالتحديد. وهو سبب أساسي ومقدور ينبثق عن طبيعة الإسلام في مراعاة الفطرة البشرية التي تنفر من التكليف السريع المراكم، والتي يؤزها أن تتلقى جمعاً هائلاً من الأحكام والأوامر دفعة واحدة وذلك لا جرم أن يؤدي الى تشنج عصابي غريب والى موقف سلبي يتسم بالتردد والضعف والتخاذل.

ولنا أن نتصوّر في هذا الصدد ما آلت اليه الكتب السماوية السابقة التي نزلت على الارض جملة واحدة. لقد نتج عن ذلك ضعف في الإحساس بالانتماء لتلك الكتب والرسالات. ونتج كذلك ضعف خطير في تكوين الشخصية الدينية لدى الأديان السالفة. وهي شخصية هينة وهزيلة الإحساس بالانتماء الى الدين أو هزيلة البذل والعطاء اللذين تفرضهما الأديان وتعاليم السماء وذلك إذا ما قيست تلك الشخصية بالشخصية المسلمة ذات الانتماء الوثيق المكين وذات البذل والعطاء العظيم. وهما بذل وعطاء ما كانت الدنيا لتعرف لهما مثيلا عند أمّة من الأمم. والذي لا يقبل الشك أو الجدل أن رسالة

الإسلام قد تمخضت عن أمّة ليست كالأمم، وهي أمة عظيمة قد انقطع نظيرها في العالمين. سواء في ذلك الفرد المؤمن ثم المجتمع الكريم المتعاون. وأصدق ما جاء في ذلك قوله سبحانه «كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

رابعا: مسايرة الأحوال والاوضاع الطارئة التي كانت تواجه المسلمين وما ينشأ عن ذلك من حوادث ومشكلات تتطلب تشريعاً مناسباً يفضّها جميعا. وطروء مثل هذه القضايا والمشكلات تفرض أن يكون نزول الآيات منجماً ليتلو بعضها بعضاً وذلك بالنظر لما يطرأ من قضية أو مشكلة مما لم يكن في الحسبان.

ولنضرب لذلك بعض الامثلة:

مثال أول: نزلت آيات المواريث عقيب وفاة أوس بن ثابت الأنصاري اذ ترك من بعده امرأة اسمها أم كجة وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصيّاه يقال لهما سويد وعرفجة، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وطاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز الغنيمة. فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلّاً ولا ينكأ عدوّاً فقال عليه السلام: «انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن» فأنزل الله آيات المواريث: «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإنْ كنَّ نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما تركَ وإنْ كانت واحدة فلها النصفُ ولأبويه لكل واحدٍ منهما السدس مما ترك إنْ كان له ولد[1]» فكان ذلك ردا لفهم الجاهليين وإذهاباً لتصرفهم

(١) سورة النساء الآية ١١

الظالم الذي يحرّمون بموجبه توريث النساء والصغار. وقيل انها نزلت في امرأة سعد بن الربيع اذ قالت: يا رسول الله ان سعدا هلك وترك بنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد وانما تنكح النساء على أموالهن. فلم يجبها في مجلسها ذلك حتى نزلت آية المواريث وهي أن يدفع للبنتين الثلثان والى امرأة سعد الثمن وما بقي فهو لأخي سعد[1].

مثال ثان: ما ذكره الإمام مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود قال: اجتمع ثلاثة نفر، قرشيان، وثقفيّ أو ثقفيان وقرشي، قليلٌ فقه قلوبهم، كثيرٌ شحم بطونهم فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إنْ أخفينا. وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا فأنزل الله قوله: «وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون»[2].

مثال ثالث: تحاجّ المشركون في الله. ومحاجّتهم أن قالوا متوهمين: إن الجاهلية سوف تعود. وقولهم ذلك بعد أن كتب الله النصر للمسلمين فنزلت الآية: «والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضبٌ ولهم عذاب شديد»[3] وقيل نزلت في اليهود والنصارى تحاجّوا وقالوا: نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولاد الأنبياء فنزلت الآية لتدحض ما قاله هؤلاء جميعاً.

مثال رابع: الإيلاء ومعناه الحلف. فقد كان الرجل يحلف ألا يأتي أهله نتيجة لغضب أو غيره وفي ذلك من المضارّة بالمرأة ما هو معلوم. فأوجب الشرع بعد ذلك على الرجل إن حلف ألا يواطىء

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤٦، ٥٧.
(٢) سورة فصلت آية (٢٢)
(٣) سورة الشورى آية ١٦.

زوجته أن يتربص مدة أربعة أشهر ثم عليه أن يختار إما الطلاق وإما أن يفيء الى زوجته. أما أن تظلّ الزوجة معلقة بغير تحديد فذلك غير مشروع. وذلك إذا كان الحلف على ألا يواطىء مدة تزيد على أربعة أشهر. وان كانت المدة أقل من ذلك فعليها أن ينتظرا انتهاء المدة. وفي ذلك كله نزل قوله تعالى: «للذين يؤلون من نسائهم تربصُ أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم. وان عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم»[1].

مثال خامس: في القتل العمد. كانت شريعة الإسلام أسلم سبيل لمعالجة هذه المسألة، وهي سبيل وسط بين الإفراط والتفريط، أو بين المغالاة والتنطع اللذين لا يلائمان الفطرة البشرية. فقد كانت شريعة بني اسرائيل لا تعتمد الدية كمبلغ من المال يؤديه القاتل وأهله لأولياء القتيل. كانت تلك الشريعة تعتمد القصاص فقط. أما الإنجيل الذي أنزل على نبيّ الوداعة والعزوف ومناهضة الشهوات والواقع - عيسى عليه السلام - فلم يكن يعرف القصاص أو الدية. وانما شرع للناس العفو فقط، وفي ذلك من مضادة الفطرة وطبيعة الإنسان ما هو واضح مبين. لكن شريعة الإسلام جاءت على نحو أكثر مرونة واتساعاً مما سبق من شرائع وأديان. جاءت شريعة الإسلام لتخيّر بين القصاص أو الدية أو العفو وذلك أكثر شمولا وأوسع مدى بما يوافق الطبائع والمجتمعات على اختلافها وتعددها وامتدادها. وفي ذلك يقول القرآن في القتل العمد: «يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عليكم القصاص في القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتِّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابَ أليم»[2].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٦ وانظر.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٨

مثال سادس: وهو متعلق بالمحظورات من اللحوم. فقد كان العرب في الجاهلية يأكلون الميتة والدم وما أهل به لغير الله. وكان أولوا الأديان المحرفة الأخرى يأكلون لحم الخنزير وبعض الأطعمة الأخرى مما حرمته شريعة الإسلام. حتى جاءت هذه الشريعة فحرّمت كل ميتة أو دم أو لحم خنزير أو ما أهل به لغير الله إلا ما كان في اضطرار من غير بغي أو عدوان. فقال سبحانه في ذلك «إنما حُرّمَ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم»[٣].

هذه أمثلة من نصوص الكتاب الحكيم نزلت على النبي ﷺ وذلك تبعاً لحاجة برزت أو قضية تتعلق بالعقيدة أو التصوّر أو الخلق أو التشريع.

خامسا: الإجابة عن أسئلة السائلين. وهي أسئلة كانت ترد من حين لآخر يوجهها للنبي أفراد مختلفون من المسلمين وغيرهم. حتى إن كثيراً من هذه الأسئلة يطرحها نفر من الناس بقصد الإحراج ثم يتولى الوحي عملية الإجابة عن مثل هذه الأسئلة في صراحة واضحة أو أن تكون الإجابة على نحو معيّن من الكلام الذي يناسب الموقف.

وأعرض لعدد من الأمثلة على آيات كريمة احتوت أسئلة طرحها السائلون من مسلمين وغير مسلمين:

مثال أول: في الإنفاق. اذ يسأل فريق من المسلمين رسول الله ﷺ عن كيفية الإنفاق والى من يكون فيجيبهم الله بقوله: «يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم»[١].

مثال ثان: عن القتال في الشهر الحرام. ذلك أن المشركين كانوا

---

(٣) سورة البقرة آية ١٧٣.

(١) سورة البقرة آية ٢١٥.

يأخذون على المسلمين قتالهم لهم في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال. فرد الله مقالتهم هذه بأن المشركين قد ارتكبوا ما هو أشد عتواً ونكراً من القتال. فقد كانوا في الأشهر الحرم نفسها يصدّون عن دين الله فيعذّبون المسلمين ويفتنونهم عن دينهم ويخرجونهم من ديارهم ويكفرون بالله والمسجد الحرام نفسه، فإن ذلكم لهو أشد من المحاربة واشهار السلاح في الأشهر الحرم. قال سبحانه وتعالى في ذلك:

« يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قُلْ قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنةُ أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . »[٢]

مثال ثالث: في إتيان البيوت من أبوابها، وذلك على سبيل التنبيه الى ضرورة اتيان الأمور من مأتاها المعقول والذي ندب الله إليه. أما أن تؤتى الأمور من غير مأتاها المناسب السليم فإن ذلك سبيل الخطأ والزلل أو هو سبيل التكلف الذي لا يجدي ولا يأتي بخير. فقد سأل فريق من الناس النبيّ ﷺ عن الهلال يظهر دقيقاً بسيطاً ثم يكبر رويداً رويداً ثم يصبح مستديراً مستوياً على التمام ثم يأخذ في التناقص والاضمحلال. وذلكم سؤال سابق لأوانه أو هو سؤال لا يطرحه إلا من كان ذا دراية علمية مسبقة بمثل هذه الأمور. والسائلون في ذلك الزمان لمثل هذا السؤال ليسوا على شيء من المعرفة أو العلم حتى يتمكنوا من إدراك الجواب أو استيعابه لو قيل لهم بحقيقته العلمية. فهم بذلك كالذي يأتي البيوت من ظهورها لا من مداخلها الصحيحة وهي أبوابها لذلك جاء الرد مناسبا ليعلم هؤلاء السائلون أنهم يستبقون الأمور والزمان استباقا من غير دراية في العلم. قال سبحانه

---

(٢) سورة البقرة آية ٢١٧.

« يسألونك عن الأهلّة قُلْ هي مواقيتُ للناس والحجّ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرَّ من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون »[1] هكذا كان الجواب منصبّا على ما يقع في دائرة التصوّر والمقدور الذهني لأولئك السائلين في ذلك الزمان وهو أن الأهلّة على حالها المعلومة انما جعلت لتكون مواقيت للناس تتحدد بها آجالهم في التعامل من بيوع وإقراض وأيمان وغير ذلك، وكذلك تتحدد بها مواقيت الحجّ والصوم والفطر وما أشبه ذلك من المسائل والقضايا.

مثال رابع: عن محيض النساء والإتيان فيه. فإن ذلك حرام. فقد سئل النبيّ ﷺ عن حكم الوطء في حال المحيض فأجابهم الله في محكم كتابه بأن ذلك محظور وأن على الأزواج أن يعتزلوا زوجاتهم وهنّ حوائض حتى يطهران من الحيض ثم يغتسلن بالماء ليتطهّرن تماما. قال سبحانه في ذلك « ويسألونك عن المحيض قُلْ هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهّرين ».[2]

وثمة أسئلة أخرى كانت توجه للنبيّ ﷺ من مسلمين أو مشركين أو أهل كتاب ثم يأتي بعد ذلك الرد بما يلائم الموقف أو حال السائلين، وذلك كالسؤال عن ذي القرنين أو عن الخمر والميسر أو عن الأنفال أو عن الروح وغير ذلك من أسئلة.

سادسا: ان في تنزيل القرآن منجماً وعلى فترات تجاوزت عشرين عاماً لأعظم تأكيد على إعجاز هذا الكتاب الحكيم. وذلك أن مجرد استمراره في النزول طيلة هذه المدة إنما يحمل للعرب تحدياً قائماً متواصلاً. وهو

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩.
(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢.

تحدّ ظل يتراءى للعرب وهم ناكصون على أعقابهم، عاجزون كل العجز عن مجاراته أو الإتيان بمثله. وما كان التحدّي بسورة أو مجموعة آيات تمر سراعاً في جيئة من زمان عابر وإنما كان التحدي قائماً باستمرار طيلة مدة النبوّة. فما كان القرآن يتنزل منه آية أو سورة أو آيات إلا وكان في ذلك ما يقضّ العربَ قضّا ويهزهم في نفوسهم وأشخاصهم من الأعماق وهم يتمنّون أن لو استطاعوا الرد والمجابهة. ولو كان التحدي من خلال آية أو سورة فقط في عبرة عاجلة من زمن لكان حجم هذا التحدّي بسيطاً ولكان تأثيره في العرب يسيراً ولكان قد مر كما تمر الأصوات المتعاقبة يطويها مرور الأيام والنسيان.

كيفيّة إنزال القرآن

نبحث في هذا الموضوع مسألتين: إحداهما: معنى الإنزال. ثانيتهما: حقيقة ما نزل على النبيّ ﷺ.

معنى الإنزال

تباينت أقوال العلماء والمفسّرين في معنى إنزال القرآن. أو الكيفية التي كان يتنزّل عليها. ويمكن أن نعرض لهذه المسألة في الأقوال الآتية:

القول الاول: إن الله جلّت قدرته قد ألهم جبريل كلامه وهو عال في السماء ثم هبط به الى الأرض يعلّمه النبيّ ﷺ ويقرئه إياه. أما سبيل تنزيله على النبيّ فتحقق في إحدى طريقتين. أولاهما: أن ينخلع الملَك عليه السلام من طبيعته الملكية الى طبيعة البشر ليستطيع النبيّ أخذ القرآن منه، لما في ذلك من تجانس الطبيعة والتركيب بما ييسر للنبيّ ﷺ أن يتعلم القرآن ويحفظه. وبغير هذه الطريقة لا يستطيع النبيّ وهو البشريّ في طبيعته وأسلوبه ـ أن يدرك القرآن وذلك بالنظر للإختلاف الهائل بين الطبيعتين. ثانيتهما: أن ينخلع النبيّ ﷺ من طبيعته البشرية ليتحوّل بعد ذلك الى طبيعة ملكية فيكون بذلك

التجانس في الصورة والتركيب كي يستطيع النبيّ ﷺ أخذ القرآن من الملك (جبريل).

القول الثاني: إن الإنزال كان يتم بإحدى طريقتين على الخلاف. الأولى: أن يتلقف الملك القرآن من الله تلقفاً روحانياً. ولا يقع ذلك في دائرة الحس أو التصوّر المادّي، ولكن ذلك سبيله الروح. الثانية: أن يحفظ الملك القرآن من اللوح المحفوظ ثم ينزل به بعد ذلك على النبيّ فيعلمه معناه وقراءته.

الترجيح

هذه الأقوال وإن كانت متفرقة من حيث التصنيف أو التفريع لكنها متقاربة من حيث الاتفاق على حقيقة المعنى وجوهره. فالقول بأن الله قد ألهم جبريل القرآن ليقرأه بعد ذلك على النبيّ أو أن القرآن كان ينزل بعد تلقفه تلقفاً روحانياً أو أن الملك كان يحفظه من اللوح المحفوظ، فإن مثل هذه الأقوال جميعاً لا يردها تنافر أو تباين مثلما أنها لا تجانب الصواب. وعلى أية حال فإننا نرجّح الطريقة الأولى من القول الثاني وهو أن الملك عليه السلام كان يتلقف القرآن من الله سماعا وذلك على طريقة التلقف الروحاني الذي لا يدرك أحد من الناس حقيقته. ونستدل على ذلك بما أخرجه الطبراني بإسناده عن النواس بن سمعان من حديث له مرفوع أنه « اذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجّدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهي به إلى الملائكة فكلما مرّ بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أمر».

حقيقة ما نزل على النبيّ

واختلفوا كذلك في الذي أنزل على النبيّ. فكان العلماء في هذه المسألة بين مجانب للحقيقة مشتط، وآخر قريب منها معتدل، ونعرض لهذا الخلاف في الأقوال التالية:

القول الاول: إن الذي أنزل على النبيّ ﷺ كلا اللفظ والمعنى مجتمعين وان جبريل قد حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به إلى الأرض ليعلمه النبيّ ويقرئه إياه.

القول الثاني: إن جبريل قد نزل بالمعاني للقرآن خاصة وما احتواه من مضمون وإن النبيّ ﷺ قد أدرك هذه المعاني والمضامين ثم عبّر عنها بلغة العرب إستناداً الى قوله تعالى: «نزلَ به الروحُ الأمين على قلبك لتكونَ من المنذِرين» ويمكن الرد على هذا القول بأن الاستدلال بهذه الآية هو في غير المقصود هنا. وعلى ذلك فإن هذا القول مردود ولا يمكن التعويل عليه. ذلك أن النبيّ ﷺ ما كان ليعبّر عن معنى القرآن بلغة العرب، ولو جاز لنا أن نقول ذلك لأدى بنا مثل هذا القول إلى الوقوع في فادح الزلل. فإنه من المعلوم أن كل كلام يدلي به بشر لا ينطوي على شيء من الإعجاز. وما هو إلا ضرب من الكلام الذي يمكن أن يجارى. وعلى هذا الأساس نرفض مثل هذا القول الذي يسوق بالتالي إلى القول بخلوّ القرآن من الإعجاز طالما كان تعبيراً من تعبير الرسول ﷺ. مع أن القول الحق الذي لا يقبل الجدال أو التردد هو أن القرآن من عند الله وذلك من ناحيتين هما التعبير ثم المعنى. وغير هذا الكلام لا يستند إلى شيء من حجة أو دليل.

القول الثالث: هو أن جبريل قد ألقي اليه المعنى من الله ثم ان جبريل قد عبّر عن ذلك (المعنى) بلغة العرب ثم نزل به بعد ذلك على النبيّ ﷺ. أي أن جبريل قد تلقّى معاني القرآن أولا ثم عبّر عنها بلسان عربيّ مبين، وبعد ذلك هبط به جبريل على الأرض ليقرأه على النبيّ[1]. ومثل هذا القول لا يقل عن سابقه في الخطأ وفداحة الزلل. فإنه مما لا شك فيه أن قولاً كهذا سيؤدّي بالضرورة أخيراً إلى نفي الطابع الإلهي عن كلام القرآن المعجز. وهو كلام ليس كمثله أي كلام وذلك من حيث جمال الأسلوب وروعة العبارة وعذوبة الألفاظ الموحية المؤثرة. كل ذلك ينطق بحقيقة الإعجاز لهذا الكلام

(١) الاتقان للسيوطي ج ١ ص٤٣، ٤٤

المتميّز الفذ. أما أن يتقوّل أحد في غير تمحيص مستنير بأن القرآن من تعبير الوحي أو من تعبير الرسول فذلك ليس من الحقيقة والحكمة في شيء. بل هو قرآن كريم من كلام الله وحده. وليس أدلّ على ذلك من قوله سبحانه وتعالى: «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مددا».[١]

«ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمدّه من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفدت كلمات الله».[٢]

«فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته»[٣]

«واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته».[٤]

«وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرهُ حتى يسمع كلام الله».[٥]

«قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآنٍ غير هذا أو بدّله، قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبعُ إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم».[٦]

هذه الكلمات الربانية تدل على نحو قطعيّ لا يقبل الشك أن هذه الكلمات ليست من صنع النبيّ أو جبريل عليهما الصلاة والسلام وانما هي من صنع اللهِ الذي أتقن كل شيء خلقه. وهو الذي أتقن هذه الكلمات لتكون قرآناً مجيداً يحمل التحدّي الصارخ أن يأتي الناس بمثله.

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٩.
(٢) سورة لقمان آية ٢٧.
(٣) سورة الأعراف آية ١٥٨.
(٤) سورة الكهف آية ٢٧.
(٥) سورة التوبة آية ٦.
(٦) سورة يونس آية ١٥.

ظـــاهرة الوحـــي

نعرض لهذه المسائل فنبيّن حقيقة الوحي في كل من اللغة والمفهوم الديني كما ينطق به الاسلام. ومن خلال المفهوم الديني لهذه الظاهرة سوف نعرض للوحي من حيث صوره وكيفياته بشيء من التفصيل دون أن نتجاوز في الكلام تجاوزاً يورد موارد التكلف والشطط.

أما الوحي في اللغة فهو معناه: الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفيّ، وكل ما ألقيته إلى غيرك، والصوت يكون في الناس وغيرهم[1].

وسوف نلاحظ أن ثمة صلة كبيرة بين معنى الوحي في لغة العرب، ومعناه في المفهوم الديني الاصطلاحي الذي نحققه في كيفيات الوحي أو في صوره ومراتبه وهي على النحو الآتي:

كيفيات الوحـــي

الكيفية الأولى: الرؤيا الصادقة. فقد كان عليه الصلاة والسلام أول بعثه لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وقد ورد في ذلك عدة أحاديث صحيحة تتضمن كيفية نزول الوحي من خلال الرؤيا الصادقة. فقد أورد الإمام البخاري في حديثه المشهور بإسناده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت «أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ أي يتعبّد ويتطهّر ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزح إلى أهله ويتزود إلى ذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال اقرأ. فقال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ.

(١) القاموس المحيط ج ٤ ص٤٠١.

فقلت ما أنا بقارىء. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ. فقلت ما أنا بقارىء. فأخذني فغطّني الثالثة ثم قال «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم» فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة وأخبرها الخبر وقال: «لقد خشيت على نفسي». فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك أبدا. انك تصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزّى ابن عم خديجة. وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع ابن أخيك. فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى. فأخبره رسول الله خبر ما رآه. فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على سيدنا موسى ويا ليتني فيها جذع. ليتني أكون حيّا اذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أوَ مخرجيَّ هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزّرا».

وحديث قد رواه الطبري عن عبدالله بن الزبير قال: قال رسول الله: «فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ماذا أقرأ؟ فغتّني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ماذا أقرأ. وما أقول ذلك الا افتداء من أن يعود إليّ بمثل ما صنع بي. قال «اقرأ باسم ربك الذي خلق» الى قوله «علّم الانسان ما لم يعلم» قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عنّي وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا».

الكيفية الثانية: وهي ما يلقيه الملك في روع النبيّ ﷺ وقلبه من غير أن يراه. كما قال عليه الصلاة والسلام في ذلك «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنّكم إستبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا يُنال

إلا بطاعته». وذلك شعور داخليّ عميق كان النبيّ يحسه إحساساً يخالج روعه وذلك هو النفث وهو صورة من صور الوحي التي لا يتراءى فيها جبريل للنبيّ عليه السلام عياناً.

الكيفية الثالثة: أن يتمثل الوحي للنبيّ ﷺ على هيئة رجل فيخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول له، حتى إن الصحابة في هذه الحالة كانوا يرونه أحيانا. وهذه الصورة من صور الوحي هي أهون ما يكون من مراتب الوحي على النبيّ ﷺ.

أما فيما يتعلق برؤية الصحابة له عياناً بعد أن يتمثل لهم على هيئة رجل فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطّاب قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ حتى جلس إلى النبيّ ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفّيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن إستطعت إليه سبيلا» قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه» قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقد زيد في رواية أخرى أنه لما أدبر السائل (جبريل) قال النبيّ ﷺ لأصحابه «ردّوه» فلم يروا شيئا فقال: «هذا جبريل جاء يعلّم النّاس دينهم».

الكيفية الرابعة: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس وكان ذلك أشد مراتب الوحي على النبيّ ﷺ. فقد كان يتلبّس به الملك حتى ان جبينه ليتفصّد عرقا في اليوم الشديد البرد وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها. ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها. وقد جاء في بعض كتب الحديث عن عبدالله

ابن عمر قال: سألت النبيّ ﷺ هل تحسّ بالوحي فقال: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض».

وفي طبقات ابن سعد عن السيدة عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ويتربد وجهه أي يتغير لونه ويجد برداً في ثناياه ويعرق حتى يتحدّر منه مثل الجمان».

ولدى التدبّر في هذه الكيفية تبرز الحقائق التالية:

أولا: كانت الراحلة التي يركبها النبيّ تبرك وذلك عند قدوم الوحي على النبيّ ﷺ يحمل إليه أمرا من ربه. وبروك الراحلة لهو من ثقل الوحي الذي يؤثّر بدوره على جسد النبيّ الكريم فيضغطه وهو على الناقة حتى لا تقوى على البقاء واقفة إلا أن تبرك. وذلك دليل حسّي مشاهد كان الصحابة يرونه بأنفسهم رأي العين. وفي ذلك من البرهان على صدق ظاهرة الوحي ما هو معلوم مبين.

ثانيا: كان النبيّ عليه السلام يتكيء بفخذه على فخذ صاحبه زيد بن ثابت التي كادتْ تُرضّ لضغط فخذ النبيّ عليها وذلك بتأثير الوحي عليه السلام. وتلك شهادة ينطق بها حس معاين قد رآه الناس من حوله وعاينوه.

ثالثا: كان جبين النبيّ لدى هبوط الوحي اليه يتفصّد عرقاً حتى في اليوم الشديد البرد. وتلك ظاهرة تحمل دلالة قطعية على حدوث أمر ليس كغيره من الأمور المعتادة ولكنه الحدث الكبير الذي يتجلّى في صدق نبوّة الرسول وما أخبر به من نزول الوحي عليه. وهو لا جرم ثقيل وبالغ التأثير لما للوحي نفسه من منظر رعيب وصورة هائلة مخوفة فضلا عن كلمات القرآن التي كانت تنقش في قلب النبيّ نقشاً ثم تؤثّر فيه أعظم تأثير.

رابعا: هناك ظاهرة الصلاصل التي كان النبيّ يسمعها قبيل مجيء الوحي إليه. ولعل المقصود من هذا الصوت هو أن يأخذ النبيّ حذره مسبقاً

فلا يفجأه الوحي فجأً فتأخذه هزة ويملكه اضطراب لهول المنظر المريع. فكان عليه السلام إذا ما سمع صوت صلصلة يتهيأ لاستقبال الوحي فيكون بذلك رابط الجأش لا تدكّ قلبه وأعصابه جيئة للوحي مريعة.

الكيفية الخامسة: أن يرى النبيّ الملك جبريل في صورته الحقيقية التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه. ومثل ذلك قد وقع للنبيّ في حياته مرتين. وهما مرّتان قد شاهد النبيّ عليه السلام الوحي خلالهما عيانا وذلك على هيئته الطبيعية التي خلقه الله عليها. وقد ذكر الله جلت قدرته هاتين المرتين في سورة «النجم». يقول الله عن جبريل وهو يدنو من الأرض ويهبط قريبا من النبيّ ﷺ عند تحنّثه في حراء: «ثم دنا فتدلّى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذبَ الفؤاد ما رأى».[1]

وفي المرة الثانية التي شاهد فيها النبيّ الوحيَ عند سدرة المنتهى ليلة عروجه إلى السماوات العلا يقول سبحانه: «ولقد رآه نزلةً أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنّةُ المأوى. إذْ يغشى السّدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى».[2]

الكيفية السادسة: أن يكلم الله النبيّ تكليماً وذلك إما في اليقظة أو في النوم. ومن تكليم الله له في اليقظة ما حدث له في ليلة الإسراء والمعراج فقد أمره الله في تلك الليلة المشهودة بالصلاة من فوق سبع سماوات. وذلك على سبيل التعظيم للصلاة وإشهار ركنيتها وأهميتها في دين الإسلام[3].

وأما أن يكون التكليم في النوم. وعلى أية حال فإن التكليم من الله لنبيّه محمد ﷺ لم يجاوز إطار الظن فإن مثل هذا القول لم يثبت إلا لموسى عليه السلام بصريح القرآن «وكلّم الله موسى تكليما».

---

(١) سورة النجم الآيات ٨ ـ ١١.

(٢) سورة النجم الآيات ١٣ ـ ١٧.

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية جـ ١ ص١٨.

هذه الكيفيات الست التي بيناها لهي الصور المعتمدة للوحي والتي نكتفي بذكرها هنا في هذا البحث لنفرغ للكلام عن أمور ومسائل أخرى في هذه العلوم القرآنية، مع أن أقوالا أخرى تعرض لكيفيات غير التي سقناها لا نرى من الأهمية أن نذكرها.

الوحي في القرآن

كلمة الوحي وما اشتق منها تتناول عدة معان مثلما تتفرع إلى فروع كثيرة مختلفة. وهي تفترق عن بعضها بعضا من حيث الحقيقة والمفهوم بحسب نوعية الكائن المخلوق الذي نيط به كل فرع من هذه الفروع. فعملية الوحي المقدرة للنبيين والمرسلين تختلف عن التي قدرت للناس الآخرين. وكلتا الطريقين تختلفان عن طريقة الإيحاء للكائنات من الجوامد.

على أن الوحي من حيث أقسامه ونوعياته التي تختلف من كائن لآخر، قد وردت في القرآن من خلال آيات كثيرة متفرقة في مختلف السور نعرض لها في البيان التالي الذي يتناول طريقة الوحي عند:

- النبيين والمرسلين.
- البشر من غير النبيين والمرسلين.
- الأحياء من غير البشر.
- غير الأحياء (الجوامد).

أما النبيّون والمرسلون فقد ورد ذكرهم في القرآن كثيراً. وهم فريق من البشر الممتاز الذي يعلو على غيره من الناس وذلك من حيث التفوق العظيم في مجالات الروح والذهن والنفس وبما ينشأ عن ذلك كله من عطاءات هائلة في قوة العزم والإرادة وفي قوة التحمل والاصطبار وفي روعة الخلق والمثالية التي تعلو على طبائع الخلائق العاديين.

يقول القرآن في ذلك:

« كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل

وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ».[١]

« وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ».[٢]

« وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاكَ الحجر »[٣]

« فأوحينا إليه أن اصنع الفلكَ بأعيننا ووحينا ».[٤]

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ».[٥]

« وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ».[٦]

ويقص القرآن علينا خبر النبي الخاتم ﷺ وأنه رسول كريم قد آتاه الله القرآن وحيا منزلا. فقال سبحانه في ذلك:

« وأوحي إليَّ هذا القرآنُ لأُنذركم به ومن بلغ ».[٧]

« واتْلُ ما أوحيَ إليك من كتاب ربك »[٨]

« أتل ما أُوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة »[٩]

« قل إنما أتّبعُ ما يوحى إليَّ من ربّي »[١٠]

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد ».[١١]

« إن اتّبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين »[١٢]

« ولا تعجلْ بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه »[١٣]

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٣.
(٢) سورة الأعراف الآية ١١٧.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٦٠
(٤) سورة المؤمنون الآية ٢٧.
(٥) سورة يوسف الآية ١٠٩.
(٦) سورة الأنبياء الآية ٢٥.
(٧) سورة الأنعام الآية ١٩.
(٨) سورة الكهف الآية ٤٥.
(٩) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(١٠) سورة الأعراف الآية ٢٠٣.
(١١) سورة فصلت الآية ٦.
(١٢) سورة الأحقاف الآية ٩٠.
(١٣) سورة طه الآية ١١٤.

فالأنبياء والمرسلون كان يأتيهم الوحي من السماء. وتلك صلة كريمة عظيمة تعلو على كل دائرة من دوائر الحس الثقيل أو المادة المتبلّدة المركومة. إن هذه الصلة التي تربط النبيين بالسماء لهي صلة روحية بحتة تنبثق من حقيقة الوحي القدسيّ الذي يتنزل على فريق من البشر المتميز ممن اختارهم الله لمثل هذه المهمة الجليلة. ولا جرم أن تكون هذه كبرى المهام التي تناط بالبشر وذلك لفرط جلالها وقدسيتها وعظمتها التي تفوق كل تصوّر وتتجاوز كل حسبان. وهي مهمة لا تتيسر لغير هذا الصنف المختار من الناس ممن اصطفاهم الله لأداء أمانة عزّ حملها على السموات والأرض والجبال.

وأما الآخرون من الناس ممن ليسوا أنبياء ولا مرسلين فقد قدر لهم ضرب من الوحي في مفهومه الآخر، وهو مفهوم أخف وأدنى غير متجاوز بالناس نطاق البشرية المحدود. وهذا الضرب من الوحي لا يعني غير الإعلام أو الإخبار في سرعة إما عن طريق الإلهام الذاتي يتوفر للفرد في ذاته بتوفيق مقدور من الله، وإما عن طريق الإيحاء الشعوري الذي يراود النفس المطمئنة بما يحفزها لممارسات معينة. أو غير ذلك من طرائق الإعلام الخفيّ السريع الذي يكتبه الله لفريق من عباده غير النبيين والمرسلين. ولنسجل هنا بعض النصوص القرآنية الكريمة التي تقص علينا مثل هذه الظاهرة:

« وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي »[1]

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليّم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليكِ وجاعلوه من المرسلين »[2]

« اذ أوحينا الى أمك ما يُوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ »[3]

وحول إيراد الوحي بمعنى الإشارة يذكر القرآن قصة زكريا عليه السلام وهو يشير إلى قومه لكي يسبحوا الله بكرة وعشيّا « فخرج على قومه من

(١) سورة المائدة الآية ١١١ والحواريون نفر من بني اسرائيل ممن آمنوا برسالة المسيح عليه السلام وممن آزروه والتفّوا من حوله.
(٢) سورة القصص الآية ٧.
(٣) سورة طه الآيتان ٣٨، ٣٩.

المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا بُكرةً وعشيّا».

ويقّص القرآن نبأ الوحي جبريل وهو يتمثل لمريم البتول على هيئة رجل جاء يبشّرها بغلام زكيّ: «فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّا»[1] ومثل هذا الموقف لا يقفز بالعذراء البتول إلى مستوى الأنبياء والمرسلين فإن كل ما في القضية أن جبريل قد جاءها على صورة بشر من أجل أن يتحقق بينهما التفاهم والخطاب إذ لايستطيع أحد غير النبيين معاينة الوحي والاستفادة منه وهو على صورته الحقيقية.

ويمتد التعبير بكلمة الوحي في معناه (الإشارة أو الإعلام الخفي السريع) ليتناول جزءا خبيثا من الخليقة الشريرة وهم الشياطين والمجرمون من الناس. وهؤلاء جميعا خليط فاجر من الخلائق الفاسدة التي تأسست على الشر والباطل والتي تظل على الدوام في شقوة من الإفساد والتخريب في هذه الدنيا.

قال سبحانه في مثل هؤلاء الأشقياء الذين يُغرون الناس بالباطل ويؤزونهم نحو الغواية والضلال: «وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوّا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القولِ غُرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون».[2]

وقال عزّ من قائل: «وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون».[3]

والملائكة وهم أرواح نورانية قدسية ومن خلائق الله الأبرار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، هؤلاء الأطهار من العباد يوحي الله إليهم بما يأمرهم به من تصرّف في الأرض أو في السماء. يقول سبحانه في ذلك: «إذْ يوحي ربك إلى الملائكة أنّي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في

---

(١) سورة مريم الآية ١٧.
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٢.
(٣) سورة الاصنام الآية ١٢١

قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »[1] .

ويوم القيامة، يوم الفزع الأكبر، يوم تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، يوم تبرز الخلائق كلها واقفة واجمة حائرة أمام الخالق بعد أن تتزلزل الأرض وتدكها رجفة القيامة العارمة المدمّرة. في هذا اليوم الرهيب المذهل تستجيب الأرض لكلمة الله سبحانه وهو يوحي إليها آمراً إياها أن تندكّ وأن تتزلزل ثم تقذف بمن في بطنها من أموات حان حسابهم. وفي ذلك يقول سبحانه: « إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها. وقال الإنسان مالها. يومئذ تُحدّث أخبارها. بأنَّ ربك أوحى لها. يومئذ يصدر الناس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالهم »[2] .

والوحي من حيث الإعلام الخفيّ الذي يبعثه الله في ذات المخلوق يذكّرنا بشطر من الكائنات غير العاقلة التي تهتدي إلى ممارسات غاية في الروعة والعجب. وما اهتداؤها في ذلك إلا ضرب من ضروب الإلهام الخفيّ الذي يغرسه الله في طبائع بعض الأحياء التي لا تعقل. ومن أجل ذلك تبتعث الحكمة الكبيرة التي تحمل الذهن والفطرة معا على التصديق في يقين قاطع مطلق بوجود الخالق المبدع سبحانه. وهذه حقيقة أساسية كبرى تفوق كل حقيقة وتهيمن على كل معلوم أو مفهوم.

والقرآن في هذا الصدد يقّص علينا خبر النحل التي تتخذ من الجبال والكهوف والأشجار بيوتاً وأكناناً تثوي اليها لتؤدّي رسالتها العجيبة الرتيبة في إفراز العسل وهو الطّعام الجيّد المرغوب الذي ينطوي على شفاء للناس. يقول سبحانه: « وأوحى ربكَ إلى النّحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يَعْرِشون. ثم كُلي من كل الثمراتِ فاسلكي سبلَ ربك ذُلُلاً يخرُجُ من بطونها شرابٌ مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون »[3] .

---

(١) سورة الانفال الآية ١٢ .

(٢) سورة الزلزلة الآيات ١ - ٦ .

(٣) سورة النحل الآيتان ٦٨، ٦٩ .

المـــكّي والمـــدنّي

حرص المسلمون أشد الحرص على دراسة القرآن والوقوف على ما فيه من حقائق وروائع وعلوم وهذه حقيقة قد مورست بالفعل من خلال الاهتمام البالغ الذي أحاط به المسلمون كتاب الله وهم يكبّون على وعيه ودراسته إكبابا لا نظير له في تاريخ العلوم والكتب.

ندرك هذه الحقيقة ونحن نضرب لذلك مثلا عن نخبة من العظماء العالمين من المسلمين الأوائل الذين واكبوا نزول القرآن مواكبة لا تعرف التواني أو الانقطاع. نذكر مثلا الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود إذ يقول: «والذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية الا وأنا أعلم فيما نزلت. ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

وقد سئل عكرمة عن آية من القرآن فقال: «نزلت في سفح ذلك الجبل». وفي ذلك بيان على حرص هذه الأمّة بالكتاب الحكيم حتى بات علماؤها يصبّون بالغ جهودهم وطاقاتهم وما يتضافر فيهم من طاقات ومهارات لوعي ما يحويه القرآن من معارف في شتى المجالا ت الأدبية والفنية واللغوية والتربوية والاجتماعية والقانونية والسياسية والعلمية وغير ذلك من جوانب في شتى مناحي الدراسة والمعرفة.

ومن جملة ما اهتم به العلماء المسلمون من علوم القرآن هو جانب (المكّي والمدنّي) فيه. وما يتفرع عن ذلك من تقسيمات وأنواع أو جزئيات وأطراف يحمل كل منها معنى من المعاني التي تنبثق عن هذا الاصطلاح (المكي والمدني).

يقول العالم أبو القاسم النيسابوري في هذا الصدد: «من أشرف علوم لقرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه

مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة. وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي. وما نزل بالجحفة، وما نزل في بيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا. وما نزل مشيعا وما نزل مفردا، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكّيات في السور المدنية، وما حُمل من مكة الى المدينة، وما حُمل من المدينة الى مكة، وما حُمل من المدينة الى أرض الحبشة، وما نزل مجملا، وما نزل مفسّرا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدنيّ وقال بعضهم مكّي».

فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب الله تعالى». هذا ما قاله أبو القاسم النيسابوري فيما يتعلق بموضوع المكّي والمدنيّ من القرآن بما يدل على بالغ العناية والاهتمام اللذين أحاط بهما المسلمون كتاب الله الحكيم ليعوا ما حواه من معان كثيرة مختلفة في كل مناحي الفرد والجماعة والحياة برمّتها.

فائدة هذا التقسيم

يستفاد من تقسيم القرآن إلى مكّي ومدنيّ بعض الفوائد التي نذكرها في الأمور التالية:

أولا: إن الاطلاع على تقسيم القرآن الى مكي ومدني يمكّن المتدبر لهذه المسألة من معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن. وذلك موضوع عظيم الشأن والأهمية وهو وثيق الصلة بتفسير القرآن والوقوف على مقاصده وأحكامه.

ثانيا: إن معرفة المكّي والمدني في القرآن تعين على معرفة مواقع النزول وذلك سبب كبير في الكشف عن أسباب النزول للآيات أو السور. وهو كذلك سبب يمكّن الباحثين والمتدبّرين من التعرف على المعاني المقصودة للقرآن.

ثالثا: هذا الضرب من المعرفة يكشف عن مجريات السيرة النبوية ويزيد في

وصوحها واستجلائها للباحثين والمؤرخين أو الذين يضطلعون بالتصنيف في حياة الرسول ﷺ. ليتسنى لهؤلاء العلماء أن يقفوا على ذلك من خلال التمرس في دراسة الآيات والسور المكية والأخريات المدنية.

معرفة المكّي والمدنيّ

الآيات والسور المكية من حيث الكثرة والعدد أكثر منها فيما هو مدني وذلك بالنظر للفرق في المدة الزمنية لفترة النبوة فهي في مكة أطول منها في المدينة. ذلك من جهة.

ومن جهة أخرى فان الحاجة كانت تقتضي من مقارعة الشرك والتنديد بالأوثان ومحاربة الأعراف والعادات المشينة الفاسدة ما هو كثير. وكذلك فإن الحاجة كانت تلح في التركيز على أهم وأخطر قضية وهي العقيدة التي ظل القرآن يرسخها ويؤكد عليها طيلة ثلاث عشرة سنة. ومعلوم أن العقيدة لهي أعظم ما في نظام الإسلام من قضايا وأساسيات. فهي لبالغ أهميتها وعظيم شأنها تؤلف الركن الأهم والركين في بنيان هذا الدين كله.

أما الكيفية التي يمكن بها التمييز بين كل من المكي والمدني فإن للعلماء في ذلك ثلاثة اصطلاحات نبينها على الوجه التالي:

الاصطلاح الأول: وهو يعوّل فيه على الناحية الزمنية. فالمكي ما كان نزوله قبل الهجرة، والمدني ما كان نزوله بعد الهجرة سواء كان النزول في مكة أو المدينة، وسواء كان عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم في سفر من الأسفار مادام الأصل الذي ينبني عليه التمييز في هذه المسألة هو العامل الزمني.

الاصطلاح الثاني: وهو يعوّل فيه على الناحية المكانية. فالمكي ما كان نزوله بمكة ولو كان ذلك بعد الهجرة، أما المدني فهو ما نزل بالمدينة. ويترتب على هذا القول حصيلتان. الأولى: أن ما نزل بالأسفار لا يكون مكيا ولو كان ذلك بعد الهجرة، كالذي نزل على النبي ﷺ بتبوك أو بيت المقدس.

والحصيلة الثانية: هي أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يعتبر مكيا، علما بأنه يندرج تحت مكة ضواحيها مثل منى وعرفات والحديبية. أما المدينة فيندرج تحتها بدر وأحد وسلع.

الاصطلاح الثالث: والمعتبر فيه المخاطبون. فما كان خطاباً لأهل مكة فهو مكي، وما كان خطاباً لأهل المدينة فهو مدني وذلك بغض النظر عن المكان أو الزمان الذي وقع فيه النزول.

أما عدد السور القرآنية كلها فهو أربع عشرة سورة بعد المائة ما بين مكّي ومدنيّ وما هو موضع اختلاف. وقد ورد في مسألة العدد لكل صنف من سور القرآن عدة أقوال غير أننا نعتمد الرأي القائل أن عدد السور المدنية عشرون. أما السور المكية فإن عددها اثنتان وثمانون سورة. وبذلك يكون الباقي وهو موضع خلاف العلماء اثنتي عشرة سورة.

والسور المدنية العشرون هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر.

وأما السور المختلف فيها وهي اثنتا عشرة سورة فهي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، التطفيف، القدر، البينة، الزلزلة، الاخلاص، الفلق، الناس.

أما السور المكية وهي اثنتان وثمانون سورة فهي ما كانت غير السور التي بيناها آنفاً.

ضوابط كل من المكّي والمدنيّ

يمكن تحديد جملة ضوابط لكل من المكي والمدني في القرآن. على أن تكون هذه الضوابط واردة على وجه التغليب لا القطع واليقين. وهي ضوابط تمكّن العلماء من ملاحظتها وإدراكها بعد استقرائهم الممحص الواعي لسور القرآن وطبيعة الأسلوب والمواضيع المحتواة في كل من الجانبين (المكي

والمدني) بما يستطيع معه الباحث أن يتحقق من هذه الضوابط التي تميز مختلف السور بعضها عن بعض.

ضـــوابط المكّي

أولا: كل سورة فيها الخطاب موجّه للناس كافة بقوله «يا أيها الناس» فهي مكية. وذلك بالنظر لطبيعة المجتمع والأفراد في تلك الفترة وذلك من حيث هيمنة المشركين وكثرتهم. فكان من مقتضيات الحال أن يكون الخطاب للناس جميعا بمن فيهم المؤمنون ثم المشركون وهم الأكثرون.

ثانيا: ما كان فيه قوله «يا بني آدم» فهو مكي. وتعليل التعبير في قوله «يا بني آدم» شبيه بما قلناه في التعليل السابق. يضاف الى ذلك ما يبعثه هذا النداء من تذكير بالأصل الأول الذي ينتمي إليه الإنسان، وهو ضرب من التذكير الحاني الذي يمس الوجدان فيثير فيه حنين الذكرى.

ثالثا: كل سورة جاء فيها بيان بحال النبيين السابقين أو ألامم والقرون الأولى فهي مكية وذلك أمر تقتضيه طبيعة الدعوة الاسلامية في تلك الفترة. فإن في ذكر الأمم السابقة ما يسرّي عن الرسول ﷺ ويبعث في نفسه السلوان فيزداد بذلك اصطباراً على احتمال الشدائد والأهوال التي كانت تحيط به من كل مكان وهو في مكة. وكذلك فإن في هذا الذكر ما عساه أن يثير في نفوس المشركين الخوف. فإن ذلك نذير لهم بين يدي عذاب ماحقٍ يصيبهم في هذه الدنيا إذا لم يهتدوا ويتوبوا الى الله كالذي حصل للأمم الخالية من هلاك وتدمير بعد أن تمردوا على الله وعلى رسله.

رابعا: كل سورة فيها «كلّا» فهي مكية وعلة ذلك والله أعلم أن هذه الكلمة تفيد الردع وهي تناسب الرد المؤثّر العنيف على المشركين في الطور المكي وقد كان فيهم جبابرة غلاظ، وعتاة معاندون أفظاظ لا

تلين قلوبهم للكلمة الحانية الرقيقة بل يناسبهم أسلوب من نوع آخر فيه شدة تؤزهم وفيه تخويف يتهددهم ولا جرم أن تكون « كلّا » أنسب مقولة رادعة تقال في مثل هذا الظرف الشديد ومع هؤلاء الأشقياء الجبابرة القساة.

خامسا: كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

سادسا: كل سورة مبدوءة بحروف التهجّي مثل: ألم، كهيعص، حم عسق، طسم، ألر، فهي سورة مكية. وذلك بالنظر لقوة التحدي الذي يتجلى في مثل هذه الحروف. اذ جاءت تحمل تحدّيا للعرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعض منه، هذا القرآن الذي يتألف من مثل هذه الحروف. ويستثنى من ذلك سورتا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان دون خلاف.

سابعا: كل سورة يقع التركيز فيها على العقيدة وأمور التوحيد وأركان الايمان كاليوم الآخر والملائكة والنبيين فهي مكية.

ثامنا: من أهم ضوابط الآيات المكية وخصائصها القصر في المقاطع، لكن كل مقطع ينطوي على تعبير غاية في الروعة والمتانة والقوة بما يخاطب الطبيعة البشرية من الأعماق ويهزها هزا. وهي آيات في قصرها وعذوبة ألفاظها وعجيب مبناها فإنها تبهر النفس بهراً وتسوق الحكيم المتذوّق من الناس إلى الإيمان سوقاً وعن طواعية.

ضـــوابط المدنيّ

أولا: كل سورة فيها « يا أيها الذين آمنوا » فهي مدنية. وذلك لهيمنة المسلمين وظهور سلطانهم ومنعتهم فباتوا مخاطبين قبل غيرهم.

ثانيا: كل سورة نزلت فيها أحكام الفرائض أو الحدود والقصاص أو الجهاد فهي مدنية. ومثل هذه المسائل لا تتحقق بغير سلطان يضطلع بهذه المهمة. وقد تحققت للمسلمين دولتهم التي جاءت لتنفذ شريعة الله وتحكم بما نزل من السماء.

ثالثا: كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية. اذ لا نفاق في مكة وهي بلد الشرك والمشركين في أول الاسلام فما كان أهلها العتاة المشركون ليكتموا شركهم أو يخافوا. فهم بذلك لم يكونوا مضطرين للتلصص أو النفاق لأنهم كان لهم هيمنة وسلطان. لكن النفاق قد ظهر في المدينة بعد أن استعلت كلمة الإسلام وبان عزه ودولته.

رابعا: كل سورة فيها الرد على أهل الكتاب ومخاصمتهم فهي مدنية. ويعود ذلك الى أن أهل الكتاب لم يكن لهم وجود في مكة فلا داعي للحديث عنهم، غير أنهم كانوا يقيمون في المدينة خصوصا اليهود وقصتهم مع النبي والإسلام والمسلمين طويلة ومثيرة ومريرة.

خامسا: كل سورة تتضمن آيات تتعلق بالأحكام الشرعية كالعبادات والمعاملات والأحوال الشخصية مثل الزواج والحلال والأسرة وأمورها فهي مدنية.

سادسا: السورة المدنية تمتاز في الغالب بطول الآيات فهي بذلك واسعة المقاطع لما في ذلك من احتواء لمسائل الشرع في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية. ومثل هذه القضايا والمسائل يقتضي طولاً في العبارات وامتداداً في المقاطع.

تعقيب على هذه الضوابط

لا نتصور أن هذه الضوابط لكل من القرآن المكي والمدني تتسم بالقطع الذي لا يقبل التخلف. فإنه لدى الملاحظة ندرك أن مثل هذه الضوابط المذكورة قد يتخلف سواء في السور المكية أو المدنية. وعلى سبيل المثال فهذه سورة البقرة وهي مدنية فان فيها «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» وفيها كذلك «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيّبا». ثم سورة النساء وهي مدنية فان فيها «يا أيها الناس اتقوا ربكم» وفيها «إن يشأ يذهبكم أيها الناس» ثم

سورة الحج مكية وفيها «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم».

والقول المانع الفصل في ذلك هو أن هذه الضوابط انما ترد على سبيل التغليب والرجحان لا التحديد القاطع الذي لا يقبل التخلف أو الاستثناء[1]. وذلك أبعد عن الزلل وأقرب للحقيقة والصواب. والله تعالى أولى وأعلم.

الآيات المدنية في السور المكية

لا يلزم من كون السورة مكية أن تكون آياتها كلها مكية أيضا، ولا يلزم كذلك من كون السورة مدنية أن تكون آياتها مدنية بلا استثناء. وفي ترتيب السور في المصحف يذكر في مطلع كل سورة عدد آياتها وانها مكية ماعدا كذا وكذا من الآيات المدنية، أو أنها مدنية ماعدا كذا وكذا من الآيات المكية. ولنضرب لذلك بعض الأمثلة من السور المكية والتي تحوي بعضها من الآيات المدنية.

سورة الانعام. وهي مكية باستثناء ست آيات هي: «وما قدروا الله حق قدره» والآيتان الاخريان بعدها. ثم ثلاث آيات أخريات من آخرها فإنها مدنية.

سورة الاعراف. وهي مكية باستثناء ثلاث آيات هي «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر» وما بعدها فإنها مدنية.

سورة ابراهيم. وهي مكية باستثناء آيتين هما «ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار» فإنها مدنية.

سورة النحل. وهي مكية حتى قوله تعالى «والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ولأجرُ الآخرةِ أكبر لو كانوا يعلمون» فهي وما بعدها من آيات مدنية.

---

(١) انظر في ذلك البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ١ ص ١٩٠.

سورة الاسراء. وهي مكية باستثناء قوله تعالى «وإنْ كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره إذاً لاتخذوك خليلا» فإنها مدنية.

سورة الكهف. وهي مكية باستثناء قوله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا» فإنها مدنية.

الآيات المكية في السور المدنية

من جملة ذلك على سبيل المثال:

سورة الحج: وهي مدنية باستثناء أربع آيات مبدوءة بقوله تعالى «وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يُلقي الشيطان ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم» حتى قوله تعالى: «أو يأتيهم عذاب يوم عقيم» فهي مكية.

سورة الأنفال. وهي مدنية باستثناء قوله تعالى «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» فهي مكية.

سورة التوبة. وهي مدنية باستثناء هاتين الآيتين «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولّوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» فهما مكيّتان.

بحوث أخرى

اعتاد العلماء أن يبحثوا لدى الكلام عن هذا الموضوع جملة مسائل ترتبط بذلك ارتباطاً وثيقا نذكرها هنا في غير ما تفصيل وهي:

ما نزل بمكة وحكمه مدنيّ

من أمثلة ذلك قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» نزلت هذه الآية بمكة يوم الفتح فهي مدنية لنزولها بعد الهجرة.

وقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» وهي من سورة المائدة المدنية. وقد نزلت على النبيّ ﷺ لدى وقفته بعرفات يوم الجمعة فكان ذلك بمكة لكن الآية تأخذ حكم المدنيّ لنزولها بعد الهجرة وذلك هو الاعتبار الذي يعوّل عليه.

وقوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا» وهي من سورة النساء المدنية. وقد نزلت هذه الآية على النبيّ يوم الفتح وهو في جوف الكعبة ومع ذلك فهي مدنية.

ما نزل بالمدينة وحكمه مكّي

من أمثلة ذلك قوله تعالى «والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنبوّئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» فقد نزلت هذه الآية في المدينة لتخاطب أهل مكة فهي لذلك تأخذ حكم الآيات المكية.

ومن أول سورة براءة من قوله تعالى «براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين» الى قوله تعالى «إنما المشركون نجس فلا يقربوا

المسجد الحرام» فالسورة مدنية لنزولها بعد الهجرة لكن هذه الآيات نزلت مخاطبة لمشركي أهل مكة فلها بذلك حكم الآيات المكية.

وسورة الممتحنة. فقد نزلت في المدينة. وخطابها متعلق بأهل مكة. فهي مدنية من حيث النزول لكن حكمها مكّي.

وسورة الرعد كذلك مدنية ويخاطب الله فيها أهل مكة فحكمها مكّي.

ما نزل من القرآن ليلا

لا داعي للكلام عن الذي نزل في النهار لأن ذلك أكثر القرآن. وعلى هذا فإن من الحسن من الوجهة النظرية والعملية أن نبيّن بعضا مما نزل ليلا.

من ذلك قوله تعالى من سورة آل عمران: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب» وما بعدها حتى آخر السورة. فقد روي عن بلال أنه أتى النبيّ ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي فقال يا رسول الله ما يبكيك قال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ هذه الليلة «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكّر».

ومنها قوله تعالى: «والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين». فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيّ ﷺ يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من القبة فقال «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله».

ومنها سورة الأنعام. فقد روي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملةً حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح.

ومنها سورة مريم. روي عن أبي مريم الغساني قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت ولدت لي الليلة جارية فقال «والليلة أنزلت عليّ سورة مريم سمّها مريم».

ما نزل من القرآن على النبيّ في الشتاء

من ذلك قوله تعالى في قصّة الإفك: «ان الذين جاءوا بالإفك عُصْبة منكم لا تحسبوه شرّا لكم بل هو خير لكم». فقد ذكر عن عائشة أن هذه الآيات نزلت في يوم شاتٍ.

وكذلك الآيات التي نزلت في غزوة الخندق من سورة الأحزاب. فقد كان نزولها في البرد الشديد. وقد روي عن حذيفة قوله: تفرق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب الا اثني عشر رجلا فأتى رسول الله ﷺ فقال: «قم فانطلق الى عسكر الأحزاب». قلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء من البرد. فأنزل الله «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا» وما بعدها من الآيات.

ما نزل من القرآن في السفر

من جملة ذلك قوله تعالى «واتقوا يوما تُرجَعون فيه إلى الله» فقد نزلت هذه الآية بمنى عام حجة الوداع.

ومنها آية التيمم في سورة النساء وهي قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنُباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيدا طيّبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوّا غفورا».

وقوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نِعِمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا» هذه الآية من سورة النساء نزلت على النبيّ ﷺ يوم الفتح في جوف الكعبة.

ومنها قوله تعالى «يستفتونك قُل الله يفتيكم في الكلالة» فقد رُوي عن حذيفة أن هذه الآية نزلت على النبيّ في مسيرٍ له.

ومنها أول سورة المائدة فقد ذكر أنها نزلت بمنى.

ومنها «اليوم أكملت لكم دينكم» نزلت في عرفة عام حجة الوداع.

ما نـــزل مشـــيعاً

التشييع الإتّباع والخروج. شيّعت الضيف أي خرجت معه إكراماً له. وشيّعت رمضان بست من شوال أي أتبعته بها[1]. وثمة عدة سور من القرآن أنزلها الله مشيّعة بجمهور عظيم من عباد الله الأطهار (الملائكة).

ومن جملة ذلك: فاتحة الكتاب نزلت ومعها ثمانون ألف ملك.

وآية الكرسي نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك.

وسورة يونس نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك.

ونكتفي بهذا القدر من البيان في مثل هذه البحوث. مع أن بحوثا أخرى شبيهة بهذه المسائل لا داعي لذكرها هنا ومن أراد أن يستزيد فله العودة على مثل هذه الابحاث في مظانّها من كتب علوم القرآن.

---

(١) المصباح المنير ص ٣٥٣.

معنى السورة والآية

السورة في الأصل هي كل منزلة من البناء. والسورة من القرآن المنزلة بعد المنزلة وبينهما انفصال. وتجمع على سور أو سورات[1]. وقد سميت بذلك لشرفها وارتفاع منزلتها فهي كالسور ذلك البناء المرتفع البارز المستبين. يقول الشاعر في مثل ذلك:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أي أن الله قد أعطاك منزلة مرتفعة شريفة تدنو دونها كل منازل الملوك.

وفي القرآن من السور أربع عشرة ومائة ما بين مكية ومدنية. والقرآن من حيث ترتيبه في المصحف مبدوء بسورة الفاتحة وهي السبع المثاني أو أم الكتاب. وقد روى الترمذي عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل» وذلك مما يرويه الرسول عن ربّه.

وأخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلّي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت يا رسول الله اني كنت أصلّي فقال: ألم يقل الله: «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم» ثم قال: «اني لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين. هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

ويأتي بعدها في الترتيب سورة البقرة وهي أطول سورة من القرآن وأعظم ما فيه من حيث الأحكام الكثيرة والمواعظ الجليلة والاخبار الغزيرة. وقد حفظها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكل ما تحويه من معان وروائع

(١) مختار الصحاح ص ٣٢١.

وأحكام في اثنتي عشرة سنة. قال فيها النبيّ ﷺ: «اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة» أي السحرة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر. ان الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

أما الآية فهي لغةً العلامة، وجمعها آي وآيات وآياي[1].

والآية من القرآن هي جماعة من ألفاظ أو حروف. وبذلك فإن أقل الآية كلمة واحدة كقوله سبحانه «الحاقّة» أو «القارعة» أو «الرحمن» أو «والفجر» وغير ذلك من فواتح السور. وقد يكون أقل الآية بضعة حروف كقوله سبحانه «ألم» أو «طسم» أو «المص» أو «طه».

أو أن تكون الآية مؤلفة من جملة كلمات قليلة أو كثيرة كقوله تعالى «والنازعات غرقا. والناشطات نشطا» أو قوله «سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم».

أما عدد الآيات في القرآن كله سواء فيه المكّي والمدنيّ فهي على المعتمد الراجح ست آلاف وست وعشرون آية. وثمة أقوال بأنها أقل من ذلك أو أكثر قليلا.

أما عدد كلماته فقد ذكر أنها سبعة وسبعون ألفا وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه فهي ثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر. وقيل غير ذلك[2].

أسباب تسمية السور بأسمائها

بعد الاستقراء والتدبّر يمكن الوقوف على الأسباب التي من أجلها سميت السور في القرآن بأسمائها المعروفة. وعلى ذلك فاننا نعرض للاسباب التالية التي نحسب بعد الملاحظة الوافية أنها أسباب معقولة وأنها تعطي الاجابة عن هذه المسألة.

---

(١) مختار الصحاح ص ٣٧.

(٢) تفسير القرطبي جـ١ ص٦٥.

أولا: كثيرا ما يؤخذ الاسم بناء على كلمة ذات مدلول كبير ترد في مطلع السورة أو في أول آية من آياتها. وذلك كسورة النساء، في قوله تعالى: « ... وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام». وسورة الأنفال، في قوله تعالى: «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول». وسورة الإسراء، في قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا». وسورة المؤمنون، في قوله تعالى: «قد أفلح المؤمنون». وسورة الذاريات، في قوله تعالى: «والذاريات ذروا». وسورة الطور في قوله تعالى: «والطور. وكتاب مسطور». وسورة الواقعة، في قوله تعالى: «اذا وقعت الواقعة». وسورة المجادلة، في قوله تعالى: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما». وغير ذلك من السور بكثير.

ثانيا: يطلق الاسم على السورة في بعض الأحيان تبعا لفاتحة السورة المؤلفة من حرف أو أكثر من حروف التهجّي وذلك مثل:

سورة طه، في قوله تعالى: «طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى».

وسورة يس، في قوله تعالى: «يس. والقرآن الحكيم».

وسورة ص، في قوله تعالى: «ص. والقرآن ذي الذكر».

وسورة ق، في قوله تعالى: «ق. والقرآن المجيد».

ثالثا: يطلق الاسم على السورة تبعاً لموضوع هام وأساسي في السورة، أو هو من المسائل الركينة الرئيسة الواردة في السورة، بما يجعل هذا الموضوع الهام يستأهل أن يطلق عنوانا للسورة أو اسماً لها. وذلك مثل: سورة آل عمران. فان هذه السلالة ميمونة الأصل والمحتد وهي من العراقة في العلم والتقى وشرف النبوّة ما جعلها مثالا في النبل والخير والدين فهي بذلك تستأهل أن تكون عنوانا بارزا

للسورة كلها. واسم السورة مأخوذ من قوله تعالى في الآية «ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم».

وسورة الأنعام. وأساس التسمية بذلك يقوم على التنديد بتصوّر الجاهليين الفاسد الذي يقوم على الإشراك بالله. فقد كانت الأنعام في الجاهليين جزءا من الوثنية العمياء التي تضم مناحي شتى من الأصنام على اختلاف أنواعها. من أجل ذلك فإن القرآن يعرض لهذه المسألة في تنديد بتصوّر المشركين الحمقى. هذا التصوّر المقبوح الشاذ الذي بلغ من السفه والضلالة والغباء أن ينظر هؤلاء الجهلة للانعام بما تشتمل عليه من أبقار وأغنام وإبل بمنظار الإجلال والتقديس. يقول سبحانه في سورة الأنعام عن هذه المسألة: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصلُ إلى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون». وقوله تعالى «وقالوا هذه أنعام وحرث حَجْر لا يَطعَمُها الا من نشاء بزعمهم وأنعام حُرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم الله بما كانوا يفترون». وقوله تعالى: «وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم».

وسورة الاعراف. وهو مكان بين الجنة والنار يقف فيه من تتساوى حسناتهم وسيّئاتهم فهم بين دارين متضادتين متناقضتين هما الجنة والنار. وهذا الصنف من الناس يظل واقفا حائرا متأرجحا وفي غاية من الخوف والاضطراب والتردد. انه صنف من الناس لا يعرف الى أين سيؤول وما هو المصير؟ فهو بذلك حائر مترقب ينظر إلى أهل الجنة تارة فتغمره الحسرة والتمني المحموم لو يحظى بالدخول.

وتارة أخرى ينظر الى النار ومن فيها من المعذبين الخاسرين الذين يتقاحمون كما تتقاحم القردة وهم يعانون ألوان العذاب والويل فيتملكهم اليأس والرعب. هذا الموقف العسير المحيّر الذي تجتمع فيه كل أسباب الحيرة والارهاب والشك والخوف والتمني، يستأهل أن تتسمى السورة من أجله بهذا الاسم المعبّر المصوّر المناسب. فقال سبحانه في ذلك: «وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلّاً بسيماهم ونادوا أصحابَ الجنّة أنْ سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. واذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون».

وسورة التوبة. وأساس التسمية بهذا الاسم منوط بالثلاثة من المسلمين وهم: كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية. فقد تخلّفوا عن ركب رسول الله ﷺ في ساعة العسرة يوم ذهب المسلمون والنبيّ في غزوة تبوك. وهي غزوة لا جرم أنها تقوم على العسرة والخطورة لأسباب لا مجال لذكرها هنا. وقد مكث هؤلاء الثلاثة يعانون من الكرب والحرج العظيمين حتى الدرجة التي ضاقت عندها بهم الأرض بما رحبت. وظلّوا على هذه الحال من كظم الحزن والاغتمام والضيق الى أن جاءهم الفرج بالتوبة من الله فقال سبحانه: «وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارضُ بما رَحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم»

وسورة النحل. هذا الكائن الذي يبدو بسيط المظهر والشكل ولكنه عظيم الخير والعطاء بما يقدمه من غذاء فيه شفاء للناس. وذلك

من خلال عملية بالغة العجب والروعة والتعقيد تتدخل فيها أسباب شتى من التفاعلات. كل ذلك وهذا الكائن المخلوق لا يعي ولا يدرك بل إنه مسيّر تسييرا يقوم على الإلهام الذاتي المفطور. قال سبحانه في ذلك: «وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يَعْرِشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُلَلا يَخرجُ من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقومٍ يتفكّرون».

رابعا: يطلق اسم السورة تبعاً لمعجزة ورد ذكرها في خضمّ هذه السورة نفسها. والمثال على ذلك:

سورة البقرة. وذلك الاسم مبنيّ على معجزة وقعت لبني اسرائيل اذ قتل فريق منهم أخاً لهم طمعاً في ماله ليرثوه استعجالاً قبل الأوان فاختصموا لدى نبيّهم ورسولهم موسى عليه السلام عسى أن يكشف لهم عن الجاني، ثم أمرهم الله على لسان نبيّهم موسى أن يضربوا القتيل بجزء من بقرة ذبيحة. فلما فعلوا ذلك أحياه الله فحدّثهم بما جرى له وأخبرهم بقاتليه. وتلك قصة عن حادث من حوادث الاعجاز يتحقق من خلال هذا الكائن الحيّ (البقرة) فسميت السورة بهذا الاسم. يقول سبحانه في ذلك: «واذْ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون».

سورة المائدة. وهذا الحدث من أعلى درجات الاعجاز التي تتحقق للنبيّين لكي يستيقن قومهم وأمتهم. فقد طلب الحواريّون من المسيح عليه السلام أن يدعو ربه ليُهبط عليهم مائدة من السماء يأكلون منها وتطمئن بها قلوبهم. وقد استجاب الله لهذا الدعاء من نبيه وروحه عيسى عليه السلام فأهبط عليهم المائدة وهم ينظرون اليها واستيقنت ذلك أذهانهم ونفوسهم ومثل هذه العملية الفريدة العجيبة

تستحق أن تكون عنوانا لهذه السورة. يقول سبحانه في خبر المائدة: «إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن يُنَزِّل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكلَ منها وتطمئن قلوبنا ونعلمَ أن قدْ صدقتنا ونكونَ عليها من الشاهدين. قال الله إني منزّلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنّي أعذبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين».

سورة الكهف. وهي تقص علينا خبر الفتية المؤمنين الذين هجروا الديار والأهل والعشيرة هربا من وصمة الشرك وعار الجاهلية الكافرة الحمقاء. حتى لجأوا إلى كهف بعيد يمارسون فيه عبادة الله وحده لا شريك له وهم في معزل من الشرك والجهالة والمشركين، حتى أخذتهم سِنةٌ من نعاس فناموا. وكانت نومة فريدة تثير الغرابة والدهش وتسكب في الذهن والنفس والفطرة جميعا كل بواعث اليقين والتصديق بقدرة الله وبكلماته الرائعة المعجزة. ومن أجل ذلك جاءت السورة لتتسمّى بهذا العنوان الكبير الذي يحوي خبر المعجزة عن فتية مؤمنين كرام مكثوا في نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا. يقول سبحانه في ذلك: «إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا. ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا».

سورة الفيل. وهي سورة تذكّر في ايجاز بقصة أصحاب الفيل من مشركي الحبشة الذين جاءوا الى مكة يمتطون الفيلة ليعتدوا على البيت العتيق بالهدم والتخريب. ولم يكن للبيت آن ذاك من دولة عتيدة متمكنة تدفع العدوان والأذى عنه.

ولم يكن في تلك الساعات العصيبة الحرجة الا أن تتدخل ارادة الله فتنبري للدفاع عن أقدس مكان في الأرض ولرد الظالمين المعتدين على أعقابهم ليبوءوا بالخسران والفشل. وذلك هو الذي كان. ومن

أجل ذلك كان هذا الحدث الجَلَلُ جديرا بكونه عنوانا لهذه السورة القصيرة المؤثرة المعبرة النفاذة. يقول سبحانه: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجّيل. فجعلهم كعصفٍ مأكول».

خامسا: ثمة سور في القرآن يكون اسم السورة فيها تبعا لنبيّ كريم أو مؤمن غيره عظيم قد ورد ذكره في السورة. فهو بذلك جدير بكونه عنوانا للسورة كلها كي تتسمى باسمه ومن أمثلة ذلك سورة: يونس وهود ويوسف وابراهيم ومريم ولقمان ومحمد عليهم الصلاة والسلام. فإن هؤلاء جميعا من عباد الله الأبرار الذين يقفون في الطليعة الأولى من مواكب المؤمنين في جميع الأزمنة والأمكنة. فكان كل فرد منهم يشكل نبراسا للأجيال والأمم على مر الزمن.

ذلك ما نعلمه من أسبابٍ لتسمية السور بأسمائها. وقد يكون من الأسباب غير ما ذكرنا لكن الذي بيّناه هو ما وقفنا عليه والله المستعان.

أسباب نـــزول القـــرآن

من المعلوم أن القرآن من حيث نزوله كان قسمين.

أولها: ما كان ينزل ابتداءً، وذلك بمبادرة ربانية غير مسبوقة بسبب من الأسباب التي تقتضي النزول كواقعة من الوقائع أو سؤال من الأسئلة. وأمثلة هذا القسم في القرآن كثيرة لاداعي للحديث عنها هنا.

ثانيها: ما كان ينزل تبعا لواقعة من الوقائع أو سؤال يطرحه المسلمون أو غيرهم. وهذا القسم يمثل شطرا عظيما من القرآن، وليس من شأننا هنا أيضا أن نعرض تفصيلا واستقصاء لكل آية نزلت تبعا لحادثة من الحوادث أو سؤال من الأسئلة.

فان الخوض في ذلك يقتضي جهدا هائلا غير هذا الجهد الذي يقتصر على البيان المقتضب الوجيز في علوم القرآن.

زعـــم مـــــردود

ثمة رأي غير مقبول يذهب الى أنه لا قيمة لمثل هذا البحث الذي يتعلق بنزول القرآن تبعا للحوادث أو المناسبات المختلفة. ويذهب هذا الزعم كذلك الى أن هذا البحث لا يعدو كونه بحثاً من بحوث التاريخ وهو لا يضيف الى خزائن العلوم القرآنية شيئا الا الضرب من ضروب الاستذكار التاريخي.

ونجزم في يقين أن هذا الزعم خاطىء وأنه لا يستند الى برهان من الدين مقبول. ونجزم كذلك أن معرفة أسباب النزول تنطوي على فوائد عظيمة نوردها في البيان التالي:

فوائد معرفة أسباب النزول

أولا: الكشف عن الحكمة التي تكمن خلف تشريع حكم من الأحكام وفي ذلك ما ييسر على الفقيه المجتهد مهمة الاستنباط لدى تخريجه

للأحكام الشرعية.

ثانيا: تخصيص الحكم الشرعي الذي ينطوي عليه النص القرآني، انطلاقا من الرأي القائل: إن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ. وهذه المسألة موضع خلاف الأصوليين. لكن ذهب بعضهم الى أنه عند تصوّر الحكم فان العبرة ليست بعموم اللفظ بل بخصوص السبب. وضربوا لذلك مثالا وقالوا: أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى «لا تحسبّن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم». قال مروان: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذّبا لنعذّبن أجمعون. فأرسل من سأل ابن عباس عن معنى هذه الآية فبيّن له ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبيّ ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك اليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه.

ثالثا: قد يكون اللفظ عامّا ويقوم الدليل على تخصيصه. فتكون معرفة السبب مؤثرة في وضوح التخصيص على ماعدا صورته (السبب). ولان صورة السبب دخولها قطعيّ ولا يجوز اخراجها عن طريق الاجتهاد أو الاجماع. وعلى هذا فانه اذا لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أن هذا السبب يخرج بالتخصيص وهو لا يجوز إخراجه.

رابعا: إزالة الإشكال. فان معرفة سبب نزول الآيات يورث ادراك المعنى المقصود من الآية كيلا يقع الباحث أو المفسّر في اللّبس أو الإشكال. ولنضرب أمثلة تدل على أهمية معرفة سبب النزول وأن ذلك يمهد للوقوف على المعنى الحقيقي للنص القرآني.

مثال أول: عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معدي كرب أنهما كانا يقولان: الخمر مباحة ويحتجّان بقوله تعالى: «ليس على الذين آمنوا

وعملوا الصالحات جناح فيما طعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين». وهذه الآية على إطلاقها قد تورد الإشكال لدى الوقوف على حقيقة المعنى أو المقصود حتى وقع الوهم بأن الخمر غير محرّمة استدلالاً بهذا النص على هذا النحو. لكن معرفة سبب نزول الآية تدفع اللبس والإشكال وتكشف عن المعنى الحقيقي للآية. أما سبب النزول فهو أن أناسا قالوا لما حرّمت الخمر: كيف بمن قُتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس فنزلت الآية. وبذلك فلا علاقة بين المقصود من الآية وعدم تحريم الخمر.

مثال ثان: قوله تعالى «واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن». فقد أشكل معنى هذا الشرط وهو قوله «إن ارتبتم» على بعض الائمّة ومنهم علماء المذهب الظاهري اذ قالوا إن الآيسة لا عدّة عليها إذا لم يساورها الارتياب. لكن سبب النزول بيّن المقصود وكشف عن المعنى بجلاء لا لبس فيه ولا إشكال. وهو أنه لما نزلت آية العدد في سورة البقرة قالوا: بقي عَدد من عِدد النساء لم يذكرن وهن الصغار والكبار اللواتي لا يحضن فنزلت الآية لتبيّن أن قوله «ان ارتبتم» تعني: إن أشكل عليكم حكمهن ولم تعرفوا كيف يعتدُّون فحكمهن كما بينّا.

مثال ثالث: قوله تعالى: «فأينما تولّوا فَثَمَّ وجهُ الله» فإن مدلول اللفظ بظاهره يقتضي أن لا يكون استقبال القبلة واجباً لا في السفر ولا في الحضر. لكن معرفة سبب النزول تزيل هذا الغموض وتبيّن أن هذه الآية متعلقة بمن صلى مجتهدا ثم تبيّن له أنه أخطأ القبلة فصلاته صحيحة على الخلاف في ذلك. وقيل نزلت لما صلى النبي ﷺ نافلة وهو راكب راحلته لدى ذهابه الى المدينة عائدا من مكة. فهي إذن في نافلة السفر.

خامسا: من فوائد معرفة أسباب النزول دفع توهم الحصر. وقد أبدع الامام الشافعي رحمه الله في إدراك هذه الفائدة من خلال وقوفه على المقصود من قوله تعالى: «قل لا أجد فيما أُوحي اليّ محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحمَ خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهِلَّ لغير الله به» فقال (الشافعي) في دفع توهم الحصر: لما حرم الكفار ما أحلّ الله وأحلّوا ما حرم الله وكانوا على المضادّة والمحادّة جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال الا ما حرّمتموه ولا حرام الا ما أحللتموه. والغرض من ذلك المضادّة لا النفي والاثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: لا حرام الا ما أحللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ولم يقصد حل ما وراء ذلك اذ القصد اثبات التحريم لا اثبات الحل[1].

سادسا: معرفة اسم من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها كيلا يختلط الامر فتضيع الحقيقة ويدان البريء ظلما. فقد قال مروان في عبدالرحمن بن أبي بكر إنه الذي أنزل فيه «والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أنْ أُخرجَ وقد خلت القرونُ من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنَّ وعدَ الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الأوّلين» قال مروان فيه ذلك بعد أن رفض عبدالرحمن مبايعة يزيد بن معاوية. فأراد مروان بعد ذلك أن ينال من عبدالرحمن سوءا فاختبأ هذا في بيت أخته عائشة أم المؤمنين ثم نافحت عنه وردّت مقالة مروان فيه بقولها: كذب مروان والله ما هو به ولو شئت أن أسمّي الذي نزلت فيه لسمّيته».

ذلك الذي يمكن الوقوف عليه في فوائد معرفة أسباب النزول. يقول الاصوليّ ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قويّ في فهم معاني القرآن.

---

(٦٧) الاتقان جـ ١ ص ٢٩ والبرهان جـ ١ ص٢٣.

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب.

هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب

اختلف الاصوليون في هذه المسألة الى قولين.

القول الاول: وهو ما ذهب اليه جمهور الأصوليين وهو أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. واستندوا في ذلك الى آيات نزلت في أسباب مع أنها تتعدى الى غير هذه الأسباب دون خلاف وضربوا لذلك عدة أمثلة من الكتاب الحكيم منها:

المثال الأول: آية الظّهار. وهي قوله تعالى: «الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتِهم إن أمهاتُهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون مُنكرا من القول وزوراً وإن الله لعفوّ غفور». فقد نزلت هذه في سلمة بن صخر، وقيل في أوس بن الصامت لكن حكمها يتعدى الى غيره ولا يقتصر عليه بالخصوص.

المثال الثاني: آية اللعان. وهي قوله تعالى: «والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهِم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسةُ أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إن كان من الكاذبين» فقد نزلت هذه الآيات في هلال بن أمية الذي قذف امرأته عند النبيّ ﷺ بشريك بن سحماء. ومع أن هذه الآيات قد نزلت في هلال وزوجه لكنها تتعدى الى كل من يقذف زوجه ليتوجب اللعان بينهما.

المثال الثالث: هو القذف في رماة السيدة عائشة أم المؤمنين ثم تعْدِية الحكم بوجوب إنزال الحد بكل قاذفٍ لمحصنة.

المثال الرابع: قوله تعالى: «والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهُما» نزلت في امرأة سرقت ويسري حكمها ليشمل كل سارق في أي زمان أو مكان. وقد سئل ابن عباس عن هذا النص هل هو خاص أم عام؟ فقال: بل عام.

وقال ابن تيمية رحمه الله: « قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا لا سيّما إن كان المذكور شخصاً، كقولهم أن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس وان آية الكلالة نزلت في جابر بن عبدالله وقوله « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » نزلت في بني قريظة والنضير، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم من اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق. والآية التي لها سبب معيّن إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خيراً بمدح أو ذمّ فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته ». أ هـ

القول الثاني: إن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ. بمعنى أن اللفظ في الآية إنما يكون مقتصراً في الحكم على الشخص أو الحادثة التي نزل فيها النص. لكن الأشباه الأخرى من القضايا التي تماثل الحادثة المعينة الوارد فيها النص لا يشملها الحكم الذي يحمله هذا النص. وانما يعلم حكم هذه القضايا المشابهة عن طريق القياس الذي استوفى أركانه أو عن طريق دليل آخر من الكتاب أو السنة، وقد ذهب الى هذا القول فريق من الأصوليين وهو قول مرجوح. فقد قال هؤلاء إن اللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص فقط ولا ينسحب حكمه ليشمل كل الأشباه الاخرى التي تماثل الشخص المعيّن أو الحادثة المعيّنة وفي موضع الآية النازلة.

وقد استدلّ هؤلاء ببعض الآيات القرآنية التي يقتصر فيها الحكم على الشخص الذي نزل فيه النص. وذلك كقوله تعالى: « ولا تحسبَنّ الذين يفرحون بما أتوا ويُحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا » فان هذه الآية لا يعتبر فيها العموم بل هي مقتصرة على فريق خاص من الناس نزلت فيهم وهم أهل الكتاب، وذلك الذي فهمه ابن عباس من مدلول هذه الآية. والرد على ذلك كما قال صاحب كتاب الاتقان هو أن ابن عباس لا يخفى عليه أن اللفظ أعم من السبب لكنه بيّن أن المراد باللفظ هنا خاص ونظيره تفسير النبيّ ﷺ الظلم

في قوله تعالى: «ولم يَلبِسوا إيمانهم بظلم» بالشرك من قوله تعالى «إن الشرك لظلم عظيم» مع فهم الصحابة العموم في كل ظلم.

هذا ما استند اليه الذين يذهبون الى خصوص السبب لا عموم اللفظ. وهو استناد ضعيف لا يعوّل عليه. وعليه فإن قول الجمهور هو المعتمد والراجح وهو أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وذلك نظراً لما بيناه في موضعه من دليل يمكن الاستناد إليه.

طريق معرفة أسباب النزول

القول في سبب من أسباب نزول القرآن لا يتم الا عن طريق الرواية والسماع من الصحابة الكرام، وهم الذين عاينوا عملية الوحي وشاهدوا تنزيل القرآن على النبيّ ﷺ وعرفوا الأسباب التي نزلت فيها آيات الكتاب الحكيم.

سأل محمد بن سيرين عبيدة عن آية من القرآن فقال عبيدة: اتق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن.

وقال آخرون من أهل العلم: معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم فقال: أحسب هذه الآية نزلت في كذا. وقد مثّلوا لذلك بما أخرجه الأئمة الستة عن عبدالله بن الزبير قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شراج الحرة فقال النبيّ ﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء الى جارك» فقال الأنصاريّ يا رسول الله أنْ كان ابن عمتك. فتلوّن وجه النبيّ ﷺ. قال الزبير فما أحسب هذه الآيات الا نزلت في ذلك «فلا وربّك لا يؤمنون حتى يُحَكّموك فيما شجر بينهم».

وقد ذكر أيضا في علوم الحديث أن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل إذا أخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإن هذا الحديث يكون مسنداً، واعتمد ابن الصلاح وآخرون من علماء الحديث هذا القول.

واختلفوا فيما إذا قال الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا هل يجري ذلك مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي نزلت من أجله الآية أو أن ذلك يجري

مجرى التفسير وهو غير مسند. فقد ذهب البخاري الى إدخال هذا القول من الصحابي في المسند. وذهب آخرون الى عدم ادخاله.

ذلك متعلق بقول الصحابي وهو بمثابة الحديث المرفوع. ذلك أن الصحابة موثوق بهم ولا يتكلم أحدهم في مثل هذا المجال من أمور الدين والوحي الا أن يكون منه ذلك من باب الرفع للنبيّ ﷺ وان لم يقل الصحابيّ في روايته: قال رسول الله ﷺ.

أما اذا كان سبب النزول قد أورده تابعيّ فان قوله يأخذ حكم المرسل وهو لا يكون موثّقا مقبولا إلا إذا كان من أئمة التابعين الكبار الذين أخذوا التفسير عن الصحابة على أن يعزز ذلك مرسل آخر. ومن أمثال هؤلاء التابعين: سعيد بن المسيّب ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير.

ما تكرّر نزوله من القرآن

ذهب بعض العلماء الى أن من القرآن ما تكرر نزوله. وقد يتكرر نزول الآية على سبيل التذكير والموعظة بما يكون باعثاً للسامعين على التأثر والاستجابة ومن جملة ما نزل مكرراً السور والآيات التالية:

أول سورة الروم: «ألم. غُلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون». فقد نزلت هذه الآيات مرتين وذلك على سبيل التذكير والموعظة.

وقوله تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربيّ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» مع أن هذه مكية وهي من سورة الاسراء لكنها نزلت مرة أخرى في المدينة لما سأله اليهود عن الروح.

وسورة الفاتحة نزلت مرتين. مرة في مكة، وأخرى في المدينة.

وقوله تعالى: «ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» نزلت لما حضرت أبا طالب الوفاة وتلكّأ في النطق بالشهادة

حينما دعاه النبيّ أن ينطق بها فظل متعثّرا من غير أن ينطق بها فمات على الشرك. فقال النبيّ ﷺ: «والله لاستغفرن لك مالم أُنْهَ» وهي من سورة التوبة وهي مدنية مع أن موت أبي طالب كان في مكة فكيف يتفق ذلك؟ والجواب أنها قد نزلت مرتين إحداهما في مكة والأخرى في المدينة.

وقوله تعالى: «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيّئات» وسبب نزولها أن أبا اليسر وهو من أهل المدينة قد أصاب من امرأته قبلة فأتى النبيّ ﷺ فأخبره، مع أنّ هذه الآية من سورة هود وهي مكية. ولكي يزول الإشكال نقول بنزولها مرتين.

وسورة الاخلاص (قل هو الله أحد). فقد نزلت بمكة جواباً للمشركين وكذلك نزلت في المدينة جواباً لأهل الكتاب.

على أن الحكمة في نزول مثل هذه الآيات أو السور مرتين هو طروء سبب في مثل سؤال أو حادثة يقتضي نزول آية مع أنه قد نزل قبل ذلك ما يتضمن هذه الحادثة لذلك يوحي الله إلى النبيّ ﷺ بهذه الآية نفسها وذلك على سبيل التذكير ولفت النظر والاهتمام.

خلاصة هذه المسألة أن السورة أو الآيات قد تنزل مرتين وذلك من باب التعظيم لشأن هذه السورة أو الآيات، أو من باب التذكير بها لدى طروء سبب نزولها مرة أخرى وذلك خشية النسيان ولكي يترسخ مقصود السورة أو الآيات في النفس فتظل مستديمة الهداية والإفادة.

نزول القرآن على سبعة أحرف

الحرف في اللغة معناه الوجه، أو الطريق. ويجمع على أحرف وحروف. أما نزول القرآن على سبعة أحرف فقد ورد فيه جملة أحاديث بأسانيد قوية من رواية فريق من أجلّ الصحابة جاوز عددهم العشرين ومن بينهم أبيّ بن كعب وأنس وحذيفة بن اليمان وزيد بن أرقم وسمرة بن جندب وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وعبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب

ومعاذ بن جبل وهشام بن حكيم وغيرهم آخرون.

ونعرض الآن لبعض ما روي عن النبي ﷺ في هذا الصدد من طرق مختلفة تتفق جميعها على أن القرآن أُنزل على النبيّ على سبعة أحرف.

فقد ثبت في الصحيحين بإسنادهما عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته ثم لم أزل أستزيد، فيزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

وكذلك ثبت في الصحيحين بإسنادهما عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها ـ وفي رواية ثانية ـ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ. فقلت يا رسول الله اني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ» فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ «هكذا أنزلت» ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه».

وأخرج مسلم في صحيحه بإسناده عن أبي بن كعب أن النبيّ ﷺ قال من حديث له: «فإني أرسل اليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت اليه: أن هوّن على أمتي، فرد الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت اليه: أن هوّن على أمّتي، فرد إلى الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت: اللهم اغفر لأمّتي».

وأخرج قاسم بن أصبغ الأندلسي في مصنفه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ولا حرج ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة».

أما حقيقة هذه الأحرف وماهيتها فهي موضع خلاف كبير بلغ من الاقوال خمسة وثلاثين، وقيل أربعين قولا نعرض لشطر منها في البيان التالي اذ لا حاجة للكلام عنها جميعا:

القول الأوّل: إن هذه الأحرف من المشْكِل الذي يعز الوقوف على حقيقته أو المقصود منه. وسبب الإشكال أن كلمة الحرف تصدق من حيث اللغة على كل من الحرف الهجائي والكلمة والمعنى أو الجهة. وعلى هذا فان الحرف في حقيقته يدخل حيّز الإشكال الذي تصعب إزالته.

القول الثاني: لا يقصد بالسبعة أحرف حقيقة العدد ولكن المقصود التسهيل والتيسير والسعة. وذكر العدد هنا على سبيل الكثرة لا الحصر. وذلك قول مردود بحديث الشيخين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف».

القول الثالث: هو أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع. وهو قول الخليل بن أحمد، وذلك قول ضعيف. فإن القراءات لا علاقة لها بالأحرف بل انها كلها مندرجة في الحرف الواحد من الأحرف السبعة وهو الحرف الذي كتب عليه عثمان المصحف، على نحو ما سنبينه في موضعه.

القول الرابع: القراءات السبع هي الأوجُه التي يقع بها التغاير وهي على النحو التالي: ما تتغيّر حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل قوله: «هنّ أطهرُ لكم» و «هنّ أطهرَ لكم».

ما يتغير معناه ويزول بالاعراب ولا تتغير صورته كقوله تعالى: «ربُّنا باعدَ بين أسفارنا» و «ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا».

ما يتغير معناه بالحروف واختلافها ولا تتغير صورته مثل قوله تعالى: «كيف نُنْشِزُها» و «نُنْشِرُها».

وما تتغير صورته ولا يتغير معناه مثل قوله: «كالعهن المنفوش» و «الصوف المنفوش».

وما تتغير صورته ومعناه مثل قوله: «طلحٍ منضود» و «طلعٍ منضود».

وما يتغيّر بالتقديم والتأخير مثل قوله تعالى: «وجاءت سكرة الموت بالحق» و «جاءت سكرة الحق بالموت».

القول الخامس: إن المراد بها سبعة أصناف من الكلام في القرآن وكل صنف منها بخلاف غيره. فبعضها أمر ونهي ووعد ووعيد، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه وغير ذلك من الوجوه التي ترد مختلفة. وهذا القول ضعيف أيضا لأن هذه الاصناف لا تسمى أحرفا. والمعلوم أن المقصود بالأحرف تحقيق التوسعة والتيسير على المسلمين في قراءة القرآن، وكل من التوسعة والتيسير لا يقع في تحريم حلال ولا تحليل حرام، أو في أمر ونهي، أو وعد ووعيد.

القول السادس: المراد بها سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة نحو: أقبِلْ وتعالَ وهلمّ وعجّلْ وأسرِعْ. وفي مثل هذه الأوجه ما يهوّن على المسلمين قراءة القرآن وادراكه والاستفادة منه خصوصا وأن العرب كانوا في أول الإسلام أميين تعز عليهم القراءة والكتابة. وقد استند القائلون بذلك الى جملة أحاديث منها حديث أبي هريرة «أنزل القرآن على سبعة أحرف عليماً حكيماً غفوراً رحيماً». ومن حديث عمر بأن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذاباً وعذاباً مغفرة.

وذكر عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ: «كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه مرّوا فيه سعَوا فيه».

وكان عبدالله بن مسعود يقرأ «للذين آمنوا أُنظُرونا أمهلونا أخّرونا».

وعلّل الطحاوي التنويع في القراءة ذات المعاني المتفقة، والألفاظ المختلفة بأن ذلك من باب الرخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط واتقان الحفظ ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ.

على أن القراءة اليوم لا تكون إلا على مصحف عثمان وهو قائم على حرف واحد وهو حرف زيد بن ثابت الذي كان قد نيطت به مهمة جمع المصاحف في مصحف واحد وهو مصحف عثمان. والى هذا ذهب معظم العلماء إلا من شذّ. حتى قيل إنه لا تجوز الصلاة الا بالقراءة على مصحف عثمان وهو على

حرف واحد. لان ما عدا مصحف عثمان لا يرد مورد القطع لجريانه مجرى خبر الآحاد.

وقال الامام مالك فيمن قرأ في صلاة بقراءة تخالف مصحف عثمان: لم يُصَلَّ وراءه.

القول السابع: المراد به سبعة أشياء وهي المطلق والمقيّد، والعام والخاص، والنصّ والمؤوّل، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفسر. وهذا القول لا أظنه مستندا الى دليل فهو ضعيف لا يعوّل عليه.

القول الثامن: وهو مرويّ عن القرّاء. وعندهم أن المراد بالاحرف السبعة ما كان من طريق التلاوة وكيفية النطق بها مثل المسائل التالية: الإظهار والادغام والتفخيم والترقيق والإمالة والإشباع والمد والقصر وغير ذلك من وجوه التلاوة والنطق. ولا نركن لهذا القول لبعده عن حقيقة المقصود وعدم استناده الى الدليل.

القول التاسع: وهو أن المراد سبع لغات لسبع قبائل من العرب. ولا يعني ذلك أن يرد في الحرف الواحد سبعة أوجه. بل يعني أن القرآن سبع لغات متفرقة في القرآن فبعضه نزل بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة تميم، وبعضه بلغة أزد وربيعة وبعضه بلغة هوازن. وذلك ما ذهب اليه بعض أهل العلم في هذا المجال. واحتجوا لهذا القول بما قاله عثمان حين أمرهم بكتْب المصاحف: وما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه أكثر ما نزل بلسانهم.

وقد رُد على هذا القول بأن القرآن لم ينزل الا بلغة قريش وذلك لقوله تعالى «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه».

وقال ابن عبدالبر: قد أنكر أهل العلم أن يكون معنى سبعة أحرف سبع لغات. لأنه لو كان ذلك صحيحا لما أنكر القوم بعضهم على بعض بادىء الامر فإن كلاً مطبوع على لغته.

وكذلك فان كلاً من عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم قرشيّ، ومع ذلك فقد اختلفت قراءتهما ولا يعقل أن ينكر عمر عليه لغته.

القول العاشر: وهو مرويّ عن أهل اللغة إذ قالوا إن المراد بالاحرف السبعة: الحذف والصلة، والتقديم والتأخير، والقلب والاستعارة، والتكرار، والكناية، والحقيقة والمجاز، والمجمل والمفسّر.

القول الحادي عشر: وهو مرويّ عن النحاة إذ قالوا إن المراد: التذكير والتأنيث، والشرط والجزاء، والتصريف والإعراب، والأقسام (مفردها قسم) وجوابها، والجمع والتفريق، والتصغير والتعظيم.

وهذان القولان الأخيران لا يستندان الى دليل معتمدٍ فهما بذلك لا يجاوزان إطار الضعف.

القـــول الراجـــح

من خلال ما بيّناه من أقوال في حقيقة الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن وفي ضوء الأدلّة المسوقة لكل ما ورد في هذه المسألة فإننا نرجح القول التاسع. وهو ترجيح نحسب أنه أقرب للصواب ولكنه لا يجاوز الى القطع الذي يطمئن اليه القلب. ذلك أن هذا القول بعيد عن شطط القول وعن المغالاة في ابداء الرأي من غير برهان.

وعلى ذلك فاننا في هذه المسألة العسيرة التي اختلفت فيها الآراء الى وجوه وأقوال كثيرة بلغت من العدد أربعين ـ نرجح أن يكون المراد بالسبعة أحرف اللغات السبع. ولئن قيل إن لغات العرب أكثر من سبع لغات أجيبَ بأن المقصود أكثرها فصاحة. وقد ذكر عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز يعني سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، وهؤلاء كلهم من هوازن، ويقال لهم: عليا هوازن. ولهذا قال بعض أهل العلم في لغة العرب: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم.

على أنه لا يراد بذلك أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل إن اللغات

السبع منتشرة في القرآن فبعض القرآن بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن، وبعضه بلغة غيرهم، وذلك على تفاوت بين أنصباء هذه اللغات جميعا في القرآن. وبعبارة أخرى فإنه لا يشترط أن يكون نصيب كل من هذه اللغات مساويا لنصيب لغة أخرى منتشرة في القرآن. فقد تكون لغةٌ أكثر نصيبا من حيث التواجد والانتشار من لغة أخرى غيرها. والمهم في المسألة أنّ كل لغة من هذه اللغات السبع كان له نصيب في القرآن ليكون ذلك أيسر للعرب على اختلاف قبائلهم وتباين لغاتهم ولهجاتهم.

ولقد ذُكر عن بعض أهل العلم في هذا المجال أن القرآن أنزل بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ثم أبيح بعد ذلك لكل قبيلة من العرب أن تقرأ القرآن بلغتها التي جرت عليها رغم الاختلاف في اللغات بين مختلف القبائل وذلك من حيث اللهجة أو الألفاظ والإعراب. (ذلك ما نرجحه والله سبحانه أعلم بحقيقة الصواب).

تنـــــبيه

لا نعتقد أن القرآن ما يزال الى يومنا هذا يقرأ على الاحرف السبعة. بل نعتقد أن القراءة على هذه الأحرف قد مضت لفوات الحاجة اليها.

يقول الطحاوي في ذلك: إن ذلك (الأحرف السبعة) كان في وقت خاص لضرورة دعت اليه لأن كل ذي لغة كان يشق عليه أن يتحول عن لغته ثم لما كثر الناس والكتابة ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم الأحرف السبعة وعاد ما يقرأ به الى حرف واحد.

ونستطيع أن نقرر بعد ما بيّناه أن مصحف عثمان قد جمع على حرف واحد ليكون ذلك أحفظ للمسلمين من الاختلاف والشطط في القراءة. وبذلك فان مصحف عثمان هو الذي يعوّل عليه فقط وأية قراءة أخرى تخالف ما جاء عليه مصحف عثمان لا تجاوز نطاق الظن الذي لا يعوّل عليه والذي لا يُغني من الحق شيئا. وقد قال الامام مالك فيمن قرأ في الصلاة بقراءة عبدالله

ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف مصحف عثمان: إنه لا يصلّى وراءه. وتعليل هذا الحكم من ناحيتين.

إحداهما: أن أيّة قراءة غير ما جاء عليه مصحف عثمان فهي ظنية لاستنادها الى خبر الآحاد ولا مساغ للاعتماد على الظن في أخطر مسألة وهي قراءة القرآن. اذ أن قراءته ينبغي أن تكون على الحقيقة المشروعة والوجه الصحيح الذي يقوم على القطع واليقين.

ثانيهما: أن مصحف عثمان من حيث جمعه وترتيبه وقراءته قد وقع عليه الإجماع فلا مساغ بحال لخرق الإجماع خصوصا وأنه إجماع قد التقت عليه كلمة الرعيل الأول من صدر الإسلام ـ هذا الرعيل الذي يضم الصحابة الأبرار وهم خير البشرية بعد الأنبياء والمرسلين.

ويقول الامام مالك كذلك عن بعض العلماء المكيين إنهم مجمعون على أن ما عدا مصحف عثمان غير مقطوع به لقيامه على خبر الآحاد. وفي ذلك ما يدل على أن السبعة أحرف التي وردت في جملة الأحاديث النبوية ليس منها بأيدي الناس اليوم إلا حرف واحد وهو ما كتب على أساسه القرآنَ زيدُ بن ثابت الذي جمع عثمان المصاحفَ عليه فيما بعد.

ونود أن ننبه كذلك الى ضرورة الاعتقاد بأن كل قراءة تدور في فلك الأحرف السبعة لهي مُنزلّة من عند الله وليس لأحد أن يقرأ مثلما يريد وتبعاً لهواه بحجة التوسعة ونفي الحرج. ولو أبيح لكل قارىء أن يتلو على النحو الميسّر أو على الطريقة التي يستسيغها وبغير ضابط معتبر لكان في ذلك مدعاة للتسيّب والخلط في كلام الله فيما يؤدي في النهاية الى التفريط في الكتاب الحكيم ليأتي عليه الاختلاق واصطناع العبارة تذرعا بالتسهيل والتيسير. وذلك لا يقول به عاقل. أو هو تصور ضال وموهوم يخالط بعض المشتطين المتساهلين الذين يظنون صدق التلاوة كيفما تيسر لهم حتى ولو كلفهم ذلك إبدال كلمة مكان أخرى، أو عبارة موضع عبارة أخرى. مع أن المعلوم من الدين بالضرورة أن كل كلمة في القرآن بل كل حرف فيه منزل من عند الله

وليس لاحد أن يختلق شيئا من ذلك. حتى النبيّ الكريم كان لا يتلو الا ما جاءه به الوحي من عند الله. قال سبحانه: « واذا تتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآنٍ غير هذا أو بدّله قُلْ ما يكونُ لي أن أبدّله من تلقاءِ نفسي إن أتّبعُ إلا ما يوحى إليّ إني أخَافُ إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ».

لذلك يجب الاعتقاد بأن أية قراءة للقرآن في نطاق الأحرف السبعة إن هي الا قد جيء بها من عند الله فهي قرآن من القرآن العظيم المنزل من السماء « إنْ هو الا وحيٌ يوحى. علّمه شديد القوى » فليس لأحد كائناً من كان أن يصطنع من عند نفسه كلاما ثم ينسبه للقرآن تحت ستار أن ذلك من الاحرف السبعة أو أننا مخوّلون بذلك على سبيل التيسير والتسهيل.

وقد ذكر القرطبّي في تفسيره عن ابن عطية قوله في هذا الصدد:

أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: « فاقرأوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب اعجاز القرآن وكان معرضا أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله. وانما وقعت الاباحة في الحروف السبعة للنبيّ ﷺ ليوسع بها على أمته، فأقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطّاب لسورة « الفرقان » وقراءة هشام بن حكيم لها وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ ﷺ في كل قراءة منهما وقد اختلفا: « هكذا أقرأني جبريل » هل ذلك الا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ « إن ناشئة الليل هي أشد وطْئاً وأصوبُ قِيلا » فقيل له: إنما نقرأ « وأقوم قيلا » فقال أنس: وأصوب قيلا، وأقوم قيلا وأهيأ، واحد، فانما معنى هذا أنها مرويّة عن النبيّ ﷺ، والا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه

لبطل معنى قوله تعالى: « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ».

هذه العبارات الجيدة تكشف عن المقصود تماما لنعلم أن الاحرف السبعة كلها من عند الله وأن أي حرف منها قد نزل به الوحي فليس لاحد بعد ذلك أن يستبدل كلمة من كلمات القرآن بأخرى الا أن يكون ذلك مما قرأه جبريل على النبيّ ﷺ.

القـــراءات السبـــع

نكتب في هذا الموضوع عَرْضاً وجيزاً عن القراءات المشهورة التي تنسب لستة قرّاء مشاهير سوف نعرض لكل واحد منهم فيما بعد.

ونود قبل ذلك أن نميز تماما بين المراد بكل من القراءات السبع والأحرف السبعة. فالمعلوم لكل ذي نظر أن هذه غير تلك فالمعروف أن هذه القراءات السبع متأخرة من حيث الظهور وأنها جميعها ترجع إلى حرف واحد من الأحرف السبعة التي كانت العرب تقرأ بها لدى مطلع الاسلام الى أن جُمع القرآن في مصحف عثمان على حرف واحد. وبذلك فان هذه القراءات جميعا مندرجة في حرف واحد من الاحرف السبعة، وهو الحرف الذي جمع عليه عثمان المصحف[1]. ومنشأ هذه القراءات يعود الى الاختلاف في اللهجات وكيفية النطق بها وذلك كالترقيق والتفخيم والإمالة والإدغام والإظهار والمد والقصر والوقف والوصل والتشديد والتخفيف وغير ذلك من طرق الأداء.

ويجب القول هنا إن هذه القراءات متواترة وذلك الذي ذهب اليه جمهور العلماء. وقيل انها مشهورة وذلك بالنظر لإنكار بعض ما قرأه حمزة وابن عامر وكلاهما من مشاهير القرّاء على ما سوف نبيّن في موضعه من هذه المسألة وكذلك لما استثناه بعضهم من هذه القراءات فاعتبروه غير متواتر وذلك كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة، اذ قالوا انها ليست متواترة. لكن الراجح أن هذه القراءات قد ثبت تواترها عن هؤلاء الأئمة السبعة. وذلك لكونها منقولة عن جمع من الناس يستحيل تواطؤهم على الكذب.

ومن ناحية أخرى فإن هذه القراءات السبع توقيفية وليست اختيارية بمعنى أن قراءة هؤلاء الأئمة السبعة سنة متبعة أو هي مروية عن النبيّ ﷺ. فهي بذلك لا مساغ لإيرادها من غير هذه الطريق وهي كذلك لا مجال للإجتهاد فيها.

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٤٦.

وجدير بالبيان هنا أن الاختلاف في هذه القراءات ينشأ عنه اختلاف في الأحكام من الوجهة الفقهية. وعلى هذا الأساس من الاختلاف في القراءات أقام الفقهاء مذاهبهم في كثير من المسائل التي يقع فيها الخلاف تبعا لتنوع القراءات المختلفة.

ومن جملة الخلاف الفقهي على سبيل المثال انتقاض الوضوء أو عدمه بسبب اللمس وذلك تبعاً للإختلاف في القراءة في قوله تعالى «أو لامستم النساء» وقوله «أو لمستم النساء» والأصل في ذلك اللمس أو الملامسة وهما من حيث نقض الوضوء موضع خلاف. فهل اللمس والملامسة يحملان نفس المعنى أو أنهما متغايران ليختلف بذلك الحكم؟ وهل يشترط القصد في اللمس لنقض الوضوء مثلما ذهب الامام مالك، أو لا يشترط القصد وأن مجرد اللمس ينقض كما ذهب الشافعي؟

ومن جملة ذلك أيضا مسألة وطء الحائض عند الانقطاع وقبل الغُسل. فهل يجوز الوطء قبل الغسل وإن انتهت مدة الحيض أو لا يجوز ذلك الا بعد الغُسل وإن انتهت مدة الحيض أو لا يجوز ذلك الا بعد الغُسل؟ ومثل هذا الخلاف ناشيء عن اختلافهم في القراءة وذلك في قوله: «ولا تقربوهن حتى يطهرن» أو قوله «ولا تقربوهن حتى يطّهّرن» بتشديد الطاء والهاء. وقد استنبط بعض الفقهاء عدم جواز الوطء قبل الغسل رغم الإنقطاع وذلك استفادة من التشديد على الطاء والهاء. وأدركوا بثاقب بصائرهم وملكتهم الفقهية المرهفة أن التشديد لا يخلو من فائدة في الحكم أو أن ثمة فارقاً بين الكلمة مشددة وغير مشددة.

ومنه كذلك قوله تعالى في سورة النحل «ألّا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبءَ في السماوات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون». فقوله «ألا» قرئت بالتخفيف والتشديد ويختلف الحكم من الوجهة الدينية من حيث الأمر أو النهي تبعا لكل من القراءتين فقوله «ألا» بالتخفيف تفيد التحضيض وطلب السجود. أما التشديد فهو يفيد النهي عن السجود.

أما القراءات من حيث نقلها وتمييزها فقد كان ذلك في القرن الرابع الهجري، وقد انبرى لهذه المهمة أبو بكر بن مجاهد شيخ القرّاء في بغداد المتوفى عام ٣٢٤ هـ فهو الذي اضطلع بمهمة الجمع والتدوين للقراءات السبع، ورغم هذا الجهد المبذول في عملية الجمع والتدوين فقد لِيم ابن مجاهد من قِبل النقاد العالِمين لما أورده بعمله هذا من توهيم لدى كثير من الناس الذين ظنوا خطأً أن هذه القراءات السبع هي الأحرف السبعة نفسها، وذلك وهم وخلط كبيران ينبغي التحذير منهما والتنبيه عليهما.

وكان أجدى كثيرا لو أن ابن مجاهد جمع أكثر من سبع قراءات ولو أنه صنع ذلك لكان قد ترتب على ذلك صنيعان.

أحدهما: دفع الإيهام الذي راود كثيراً من الناس بأن القراءات السبع والأحرف السبعة يحملان نفس المسمّى والمضمون.

ثانيهما: أن ثمة قراء آخرين ليسوا أقل قدراً في العلم في هذا المجال ممن ذكرهم ابن مجاهد. ولو أنه ذكر مثل هؤلاء القرّاء لكان في ذلك بيان لنخبة جيدة من المتخصصين العارفين في هذا الفن[1] كأمثال أبي جعفر وشيبة والأعمش ونحوهم، فإن هؤلاء مثل القرّاء السبعة أو فوقهم كما يقول أبو بكر بن العربي.

القـــرّاء الســـبعة

الأول: عبدالله بن كثير المكّي القرشيّ، وهو من التابعين. وقد سمع القراءة عن عبدالله ابن الزبير وغيره، توفي بمكة عام ١٢٠ هـ. لقي من الصحابة أنس بن مالك وعبدالله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري.

الثاني: نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم، وهو مدني أصله من أصبهان، توفي بالمدينة عام ١٦٩ هـ. تلقى القراءة عن عدد كبير من التابعين الذين أخذوا عن أبيّ بن كعب وعبدالله بن عباس وأبي هريرة.

---

(١) مباحث في علوم القرآن للدكتور الصالح ص ٢٨١.

الثالث: عبدالله بن عامر الدمشقي قاضي دمشق، وهو من كبار التابعين توفي بدمشق عام ١١٨ هـ بعد أن بلغ من العمر مائة وعشر سنوات. أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان.

الرابع: أبو عمرو بن العلاء البصري، توفي بالكوفة عام ١٥٤ هـ، وقد روى عن مجاهد بن جبير وعبدالله بن عباس عن أبيّ بن كعب.

الخامس: عاصم بن أبي النجود الكوفي، توفي بالكوفة عام ١٢٨ هـ. قرأ على زرّ بن حبيش على عبدالله بن مسعود.

السادس: حمزة بن حبيب بن عمارة التيمي الكوفي. توفي بحلوان عام ١٥٦ هـ. قرأ على سليمان بن مهران.

السابع: الكسائي علي بن حمزة الأسدي. توفي عام ١٨٩ هـ. قرأ على حمزة وألحق بالقراء السبعة في زمن المأمون الخليفة العباسي إلحاقاً، فإنما كان السابع يعقوب الحضرمي كما قيل.

ويتبيّن من التحقيق أن هؤلاء القرّاء جميعا ليسوا من العرب باستثناء اثنين هما: عبدالله بن عامر، وأبو عمرو بن العلاء البصري.

ولا يقتصر عدد القرّاء على هؤلاء السبعة بل ان ثمة قرّاء آخرين كانوا أقل حظا من حيث الشهرة وذيوع الصيت من هؤلاء المذكورين وذلك لما سنبينه من سبب.

وثمة اصطلاح يحمل عنوان «القراءات الاربع عشرة»، وكذلك «القراءات العشر» وهي لعشرة قرّاء وهم السبعة الذين بيّناهم آنفا مضافا اليهم ثلاثة قراء آخرين وهم: يعقوب الحضرمي وخلف بن هشام، ويزيد بن القعقاع[1].

سبب اشتهار القرّاء السبعة

بيّنا أن ثمة قرّاء آخرين لم يظهروا على ألسنة الذاكرين أو في بطون الكتب

(١) البرهان جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣٢٩.

كما ظهر هؤلاء السبعة الذين اشتهروا وفاضت ذكراهم، مع أنهم ليسوا بأعلم من غيرهم من القرّاء. وسبب ذلك كما قيل هو أن عثمان رضي الله عنه لما فرغ من كتابة المصاحف وأرسل نسخها الى الأمصار كان القرّاء آن ذاك كثيرين. فأراد الناس أن يعوّلوا في القراءة على ما يوافق مصحف عثمان فيركنوا اليه ويعتمدوا القراءة على أساسه، فنقّبوا في كل مصر من الأمصار ليجدوا إماماً في الفقه والأمانة والدين فيجتمعوا على أخذ القراءة عنه على أن يكون مصحف عثمان معتمدا في كل مصر دون غيره. وعلى ذلك وجدت كل أمة في كل عصر ضالّتها في إمام لهم مشهور صفته العلم والنقل والأمانة والتقوى، يأخذون عنه القراءة عن مصحف عثمان. فكان في البصرة أبو عمرو، وفي الكوفة حمزة وعاصم، وفي العراق الكسائي، وفي مكة ابن كثير، وفي الشام ابن عامر، وفي المدينة نافع. وهؤلاء السبعة من أفاضل القرّاء وأجلّهم اشتهروا بجودة القراءة وغزارة العلم وطول العمر واكتمال الدين فكانوا للناس أئمّة يشدّون اليهم عصا الترحال في أمصارهم ليأخذوا عنهم القراءة.

ذلك هو سبب اشتهار القرّاء السبعة وذلك في ضوء الدراسة والتحقيق في هذه المسألة.

ولا يفوتنا أن نذكّر بأهمية القراء الثلاثة الآخرين وهم يعقوب الحضرمي، وخلف بن هشام، ويزيد بن القعقاع، ليكون بذلك مجموع القراءات الصحيحة عشرا. وهي قراءات منقولة بالتواتر عن النبيّ ﷺ وقد استفاض ذكرها وتلقّتها الأمّة بالقبول. وما عدا هذه القراءات العشر فموضع شك من حيث الثبوت والقطع بما يمتنع معه القراءة منع تحريم لا منع كراهة سواء كان ذلك في الصلاة أو خارجها.

شـــروط القـــراءة الصحيحة

ثمة ضوابط وضعها العلماء في هذا المجال للقراءة كيما تكون صحيحة معتبرة يطمئن اليها القلب وتكون هي المعتمدة دون غيرها من قراءات.

وأول هذه الشروط: التواتر وهو النقل عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه. والتواتر شرط أساسي وركين في صحة القراءة ليمكن اعتمادها والأخذ بها إلزاماً. وعلى ذلك فإنه لا تصح القراءة غير المتواترة أو المشهورة وهي التي صح سندها لكنها لم تبلغ درجة التواتر.

ثاني هذه الشروط: موافقة العربية بوجه من الوجوه بحيث لا تصح القراءة التي لا تتفق مع قواعد العربية.

ثالث هذه الشروط: أن تكون القراءة موافقة لرسم المصحف العثماني بحيث لا تصح القراءة التي تغاير الرسم المذكور.

رابع هذه الشروط: أن تكون القراءة صحيحة الإسناد. ذلك أن القراءة كما بينّا سنة متبعة فيجب الالتزام بها وهي في ذلك تثبت عن طريق النقل لا الرأي والاجتهاد.

هذه هي الشروط التي تنضبط على أساسها القراءة لتكون صحيحة معتمدة وهي شروط اذا اختل أحدها باتت القراءة شاذة غير مقبولة بحيث تمتنع القراءة بها لا في الصلاة ولا خارجها.

القـــراءة الشـــاذّة

الشاذّ ما لم يصح سنده. والقراءة الشاذة: ما نقل قرآناً من غير تواتر أو استفاضة متلقّاة بالقبول من الأئمة. بمعنى أن القراءة التي تنقل باعتبارها قرآنا من غير تواتر فهي التي تتسم بالشذوذ وهو ما يرفع عنها صفة الصحة والقبول.

وأفتى بعض أصحاب المذاهب بعدم جواز القراءة بالشاذ في صلاة ولا غيرها. فقد نقل عن بعض أئمة المذهب المالكي أنه ليس لاحد أن يقرأ بالقراءة الشاذة سواء كان ذلك في الصلاة أو في غير الصلاة، وسواء كان القارىء عالما بالعربية أو جاهلا. واذا قرأها قارىء، فإن كان جاهلا بالتحريم عُرِّف به وأُمر بترك القراءة، واذا كان عالما بالتحريم أُدّب.

ونقل الامام النووي في شرح المهذّب عن أصحاب الشافعي أنه لا تجوز القراءة في الصلاة ولا في غيرها بالقراءة الشاذة لأنها ليست قرآنا، فالقرآن لا يثبت الا بالتواتر، والشاذة غير متواترة، ومن قال غير ذلك فهو غالط أو جاهل. ولو خالف وقرأ بالقراءة الشاذة وجب انكار ذلك عليه سواء كان ذلك في الصلاة أو خارجها حتى إن فقهاء بغداد قد اتفقوا على استتابة من قرأ بالشواذ.

ونقل ابن عبدالبر اجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشواذ ولا يصلى خلف من يقرأ بها.

ومن الأمثلة على القراءة الشاذة ما ذكر عن قراءة ابن السميقع «فاليوم ننحيك ببدنك لتكون لمن خلَفك آية» والشذوذ هنا في قوله «ننحيك» وكذلك «خلَفك» بفتح اللام. ثم قوله في الفاتحة «مالك يوم الدين» قرأها بعضهم «ملَكَ يوم الدين» باعتبار أن ملك فعل ماض، ويوم مفعول به منصوب.

أسباب اختلاف القـــرّاء

يمكن ارجاع الاختلاف في القراءات للاسباب التالية:

السبب الأول: الاختلاف في اعراب الكلمة أو حركتها على أن تظل على صورتها وألا يتغير معناها. وذلك كقوله تعالى «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل» بضم الباء في البخل أو فتحها. وقوله تعالى في سورة المجادلة «الذين يظاهرون من نسائهم ما هنّ أمهاتِهم» بكسر التاء في أمهاتهم أو ضمّها. وقوله تعالى «وهل نجازي الا الكفور» أو «وهل يُجازى الا الكفور».

السبب الثاني: الاختلاف في اعراب الكلمة وفي حركاتها بما يغيّر معناها لكنها تظل على صورتها من حيث الكتابة. وذلك كقوله تعالى «ربّنا باعد بين أسفارنا» بتسكين الدال وكسر العين في باعد، أو فتحها. وعلى النحو الأول تكون باعِدْ فعل أمر، أما على التحريك الثاني فتكون فعلا ماضيا.

السبب الثالث: الاختلاف في تبديل الحروف في الكلمة مع بقاء اعرابها على حاله ومع تغيّر معناها وعدم تغيّر صورتها في الكتابة. وذلك كقوله تعالى «وانظر الى العظام كيف ننشزها» أو ننشرها. أي ابدال الزاي بالراء. وقوله «فُزّع عن قلوبهم» أو «فَزّع عن قلوبهم» فالكلمة فُزع في الأولى فعل مبني للمجهول أما الثانية فهي فعل مبني للمعلوم.

السبب الرابع: الاختلاف في الكلمة بما يغيّر صورتها ولا يغيّر معناها وذلك كقوله تعالى: «وتكون الجبال كالعهن المنفوش» أو «كالصوف المنفوش» ومثل هذه القراءة الثانية لا تجوز لأنها تخالف ما عليه المصحف العثماني.

السبب الخامس: الاختلاف في الكلمة على نحو تزول معه صورتها في الكتابة ويزول معناها أيضا. كقوله: «وطلح منضود» أو «وطلع منضود».

السبب السادس: الاختلاف بالتقديم والتأخير. فقد روي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قد قرأ عند الموت «وجاءت سكرة الحق بالموت» ومثل ذلك لا يقرأ به لمخالفته مصحف عثمان.

السبب السابع: الاختلاف بالزيادة والنقص في الحروف والكلام. كقوله تعالى «جنات تجري تحتها الانهار» أو «جنات تجري من تحتها الأنهار» بزيادة من. وقوله تعالى: «فإن الله هو الغنّي الحميد» أو «فإن الله الغنّي» وغير ذلك من وجوه القراءة التي لا يجوز أن يقرأ بها إلا إذا جاءت موافقة لمصحف عثمان بغير زيادة أو نقصان[1].

---

(١) البرهان جـ ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٦.

جمع القرآن وكتابته

كان القرآن من حيث آياته وسوره زمن النبيّ ﷺ يكتب في أوعية بدائية كالعسب والرقاع والأكتاف. وكان للنبيّ الكريم كتبة وحي يسجلون كل ما ينزل من القرآن دون تأخير الى أن انقطع الوحي وقبض الرسول ﷺ والقرآن منتشر في مثل تلك الأوعية من غير جمع حتى جاء الصديق واضطلع بمهمة جمع الكتاب الحكيم.

وعلى ذلك ينبغي القول إن جمع القرآن قد مر في مراحل ثلاث كل مرحلة تعني نوعا خاصا من الجمع الذي يقتضيه ظرف من الظروف. وهذه الجموع الثلاثة هي على النحو التالي:

الجمع الأول: وهو زمن النبيّ ﷺ. ويقصد بالجمع هنا الكتابة في السطور والحفظ في الصدور. فقد كان القرآن في زمن النبوة تكتب آياته كلما نزلت تباعا، فلا يهبط الوحي ومعه الآيات إلا ويبادر كتبة الوحي لتسجيلها في العسب واللخاف وغير ذلك من أدوات. يضاف إلى ذلك أن القرآن كان يحفظ في صدور الصحابة وأذهانهم لفرط حرصهم على الكتاب الكريم وعنايتهم المثلى به. أما ما قاله زيد بن ثابت بأن النبي ﷺ قبض ولم يكن القرآن جمع في شيء، فتأويل ذلك أن القرآن إذ ذاك لم يكن مجموعا في مصحف متعيّن متميّز، بل كان من حيث آياته وسوره منتشراً في ما كان يكتب فيه من أدوات وأوعية. ولعل السبب في عدم جمعه في مصحف واحد هو ما كان يترقبه النبي من ورود الناسخ لبعض الأحكام والتلاوة فما دام ذلك متوقعا فلا يناسب أن تكتب آيات القرآن وسوره مرتبة ترتيبا في موضع متعيّن واحد.

الجمع الثاني: في زمن الصديق أبي بكر رضي الله عنه. إذ هداه الله لهذه المهمة العظيمة الجليلة وهي أن يجمع القرآن في مصحف واحد مصون ليأمن بعد ذلك احتمالات الضياع أو النسيان أن تأتي على شيء من كلام الله

خصوصا بعد أن لاحظ الصدّيق استحرار القتل في القرّاء والحفظة في حروب الردّة باليمامة. وأصدق ما ورد في هذا الصدد ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالمواطن فيذهب كثير من القرآن واني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: والله إن هذا خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك وقد رأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: وقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا أتّهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن واجمعه. قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر التوبة «لقد جاءكم» مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل النبيّ ﷺ شهادته بشهادة رجلين، لم أجدها مع أحد غيره فألحقتها في سورتها فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى قبض، ثم عند حفصة بنت عمر.

وقد ذكر أن أبا بكر قال لعمر وزيد كليهما: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. وقد فسّر بعضهم الشاهدين بالحفظ والكتابة، وفي قول آخر وهو أن المقصود بالشاهدين أن يشهد اثنان على أن ذلك المكتوب قد كتب بين يدي رسول الله ﷺ. وقد كان ذلك أبلغ في التثبت وأوفى من حيث التيقّن والتوثيق. كان عمر وزيد لا يكتبان إلا ما جاءهما من اثنين مكتوباً، وهما لا يكتفيان من ذلك بمجرد الحفظ وحده. وفي ذلك أبلغ الدلالة على أن كتاب الله ظل مصوناً من أي وجه من وجوه النسيان أو العبث أو غير ذلك بدءاً بنزوله وحتى جمعه في صحائف

معلومة مميزة زمن عثمان رضي الله عنه على نحو ما سنبيّن ان شاء الله.

وقد أوجز الليث بن سعد رحمه الله جمع القرآن زمن أبي بكر في هذه العبارات اذ قال: أول من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية الا بشاهدي عدل وان آخر سورة براءة لم توجد الا مع أبي خزيمة بن ثابت فقال اكتبوها فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب.

ومن أصدق ما ورد في هذا المجال ما قاله الحارث المحاسبيّ: كتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب فإنما أمر الصدّيق بنسخها من مكان الى مكان مجتمعا وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشرا فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء. قال: فإن قيل كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال قيل: لأنهم كانوا يصدُرون عن تأليف معجز ونظم معروف قد شاهدوا تلاوته من النبيّ ﷺ عشرين سنة فكان تزوير ما ليس منه مأمونا وانما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه. ا.هـ

هكذا كان القرآن يجمع على عهد أبي بكر. كان ذلك بطريقة موثوقة تقوم على اليقين القاطع الذي لا يعتريه شك. وقد قدّر الله لكتابه الكريم أن يظل مصوناً تمام الصون إذ هيأ له رجالاً أبراراً أتقياء أوفياء من مثل أبي بكر وعمر. وكذلك زيد هذا الشاب الحافظ الصدوق الورع الذي انبرى للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة فجعل يكتب الآيات والسور في مصحف واحد بعد أن جمعها من العسب واللخاف والرقاع والأديم والأكتاف والأقتاب.

أما العسب فهو جمع عسيب وهو جريد النخل كان يكشط ما عليه من خوص ثم يكتب على صفحته العريضة الصلبة. وأما اللخاف بكسر اللام فهي صفائح من الحجارة تسهل عليها الكتابة. وأما الرقاع فهي جمع رقعة وهي اسم

عام يشمل أيا من الجلد أو الكاغد، بفتح الغين وكسرها، أصلها فارسيّ وتعني القرطاس[1]. وأما الاكتاف فهو جمع كتف وهو عظم الكتف في الشاة أو البعير، كانوا يكتبون عليه اذا جف. وأما الاقتاب جمع قتب وهو خشب الرحل الذي يوضع على البعير فيركب عليه.

يقول عليّ بن أبي طالب في مبادرة أبي بكر إذ هُدي الى جمع القرآن: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

الجمع الثالث: وكان ذلك على يد الخليفة الراشد الثالث عثمان رضي الله عنه، ذلك الامام التقيّ الورع الوقور الذي خشي على كتاب الله من اختلاف الأمة فيه نظرا لاتساع رقعة الاسلام وانتشار اللحن والعجمة في أوساط كثير من المسلمين الذين امتدت بهم الأرض الى بلاد بعيدة. وكان ذلك سببا في حدوث الاختلاف في قراءة القرآن، وهو اختلاف يؤدي الى وجوه من التعارض والتضارب في المعاني والمدلولات. وقد ذكر عن أنس بن مالك قوله في ذلك: اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه فمن نأى عنّي كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً. يا أصحاب محمد: اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً فاجتمعوا فكتبوا.

وخير إخبار عن جمع عثمان للمصحف وكيفية ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل الى حفصة أن أرسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان

(١) قاموس المنجد.

للرهط القرشيين الثلاثة اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه انما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان المصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفقٍ بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال زيد: ففقدت آية من الاحزاب حين نسخنا الصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فألحقناها في سورتها في المصحف.

يستفاد من هذا الكلام أن عثمان أقدم على تلك الخطوة العظيمة بعد أن رأى كثرة الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأ الناس بلغاتهم على كثرة هذه اللغات مما أدى الى أن يخطّىء بعضهم بعضاً حتى خاف عثمان من تفاقم القضية بما يؤثر على سلامة القرآن وبراءته من الاختلاف أو النقص أو الزيادة فبادر رضي الله عنه بأن نسخ الصحف التي كانت مودعة لدى حفصة زوج النبيّ ﷺ لتكون في مصحف واحد. وهو مصحف مرتب السور تماما وقد كتب بلغة قريش وهي أفصح اللغات وأعذبها جميعا.

الفـــروق بين الجموع الثلاثة

بيّنا أن الجمع في عهد النبوة يعني الكتابة للقرآن في وسائل بدائية كانت تتسطر فيها آياته وسوره كلما نزل شيء منها من السماء. فكانت آيات الذكر الحكيم بذلك متفرقة مبعثرة على صفحات اللخاف والعسب والأديم كما ذكرنا الى أن جاء الصدّيق فصنع صنيعه المعروف.

أما الجمع في زمن الصدّيق رضي الله عنه فكان يقتضي جهدا غير يسير فيما يتعلق بدقة البحث المتواصل ليؤخذ القرآن عن ثقة مطلقة ويقين كامل لا يتدسس اليه أدنى من الذرّة من الشك. وطريقة أبي بكر في ذلك أن يجمع زيد الآيات والسور المنتشرة لتكون كلها قرآناً تاماً غير منقوص بين دفتين

لمصحف واحد مرتب الآيات. والقصد من ذلك هو ألا يضيع القرآن بفقدان حفظته وقرائه، فإن موت الحفظة يعني الضياع والنسيان البطيئين للقرآن على مر الأيام، لكن القرآن اذا ما تجمعت آياته وسوره في مصحف واحد متكامل فانه يظل أبد الدهر باقيا محفوظا لا يأتي عليه نسيان أو تفريط حتى وإن ذهب الحفظة أو ماتوا.

وأما صحائف الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فإنما يعني أن تنسخ صحائف أبي بكر في مصحف منسق الآيات والسور وذلك على نحو من الترتيب التوقيفي وليس على أساس النزول. أي على أساس من الكيفية التي شرعها النبيّ ﷺ في وضع كل آية أو سورة في موضعها المقدور من القرآن. حتى اذا تم له ذلك ألزم المسلمين جميعا بأن يقتصروا على هذا المصحف دون غيره فيكبّوا عليه دراسة وتلاوة وحفظا ووعياً. ثم بعد ذلك تجتمع كلمة المسلمين جميعا في كل مكان وزمان حول هذا المصحف مع غض النظر تماما عن أية صحائف أخرى وان تعددت.

وقد أورد السيوطي في كتابه «الاتقان» عن الفرق بين جمع كل من أبي بكر وعثمان نقلا عن بعض أهل العلم أن جمع أبي بكر كان خوفاً من ذهاب شيء من القرآن بذهاب حملته وحفّاظه. ذلك لأن القرآن في عهد الصدّيق لم يكن بعدُ مجموعاً في موضع واحد. فجمعه في صحائف قد رتب فيها الآيات كما وقّفهم النبيّ ﷺ على ذلك.

لكن جمع عثمان كان، لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة مما أدى الى تخطئة بعضهم بعضا، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور.

ومن ناحية أخرى فإن عثمان لم يقصد ما قصده أبو بكر وهو جمع القرآن بين دفّتين ولكنه قصد أن يجتمع المسلمون على القراءات الثابتة المعروفة عن النبيّ ﷺ والغاء ما ليس كذلك ليأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا هو منسوخ التلاوة وذلك لئلا تدخل الشبهة والحيرة على المسلمين فيختلفوا.

أما المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان رضي الله عنه فقد رُد ذلك بأن عثمان قد حَمَل الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، وذلك لما خشي عثمان الفتنة عقيب اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات والقرآن لكن المصاحف قبل ذلك كانت مطلقة تقرأ على الحروف السبعة التي أنزل عليها القرآن. وعلى ذلك فإن أبا بكر كان السابق في الجمع. وقد روي عن عليّ في هذا الصدد: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.

عـــدد مصاحف عـثمان

ثمة أقوال في عِدة المصاحف التي نسخها عثمان ثم بعث بها الى الأمصار. فقد قيل إنها أربعة مصاحف، بعث ثلاثة منها الى الأمصار، واحداً لكل من الكوفة والبصرة والشام وأبقى عنده واحداً في المدينة. وقيل إنها خمسة مصاحف، منها أربعة للأمصار وواحد بقي في عاصمة المسلمين «المدينة».

وقيل انها سبعة. واحد منها بقي في المدينة وستة أرسلت الى الأمصار لكل مصر منها مصحف. والأمصار هي: الكوفة والبصرة والشام ومكة واليمن والبحرين. وذلك الذي نرجحه والله أعلم.

افـــتراء جاهـــل

زعم بعض الجهلة من الروافض والمفترين أن عثمان قد ارتكب خطيئة بإحراقه الصحف التي تحوي القرآن بعد ما استخلص منها نسخه التي بعث بها الى الأمصار. وتلك تهمة فاسدة ومردودة. والأمر في حقيقته يحتمل أحد وجهين. أحدهما أن عثمان لم يحرق شيئا من الصحف لان ذلك لم يثبت على القطع واليقين. وثانيهما: أنه لو ثبت الحرق فما في ذلك بأس على عثمان رضي الله عنه فقد كان مراده من عملية الإحراق أن تجتمع كلمة المسلمين على مصحف واحد يقبلون عليه تلاوة وحفظا واستفادة وألّا يتفرقوا بتفرق

القراءات واختلاف الاحرف المبعثرة في مختلف الصحائف. ولو ترك عثمان المسلمين وشأنهم في قراءة القرآن لاختلف المسلمون مع مرور الأيام وتقطعت بهم الأسباب وتفرقت بهم السبل باختلافهم في القراءات المتعددة. أما وقد جمعهم على مصحف واحد مكتوب على حرف واحد فإن ذلك أعظم للمسلمين في الحيطة ألّا يختلفوا حتى بات من المعلوم شرعاً وجوب إحراق الصحائف الأخرى الباقية كيلا تتفرق قلوب المسلمين وأهواؤهم بتفرق قراءاتهم. يقول عليّ بن أبي طالب في ذلك: لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل.

رحم الله ذا النورين رحمة عظيمة واسعة وأدخلنا بجواره في جنات النعيم. آمين.

ترتيب الآيات والسور

للعلماء في هذه المسألة أقوال مفصلة نعرض لها بايجاز بادئين الكلام أولا عن ترتيب الآيات ثم عن ترتيب السور وما ورد في ذلك من خلافٍ وتعدد في الآراء.

ترتيب الآيــات

تتضافر النصوص النبوية على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي. بمعنى أن الآيات من حيث ترتيبها في مختلف سور القرآن كانت توقيفا من الرسول ﷺ فهو الذي كان يأمر صحابته من كتبة الوحي أن يضعوا الآية أو مجموعة الآيات في موضعها المعين من السورة وذلك بناء على توجيه من الوحي الذي يتلقى عنه النبيّ مجموعة أقواله وأفعاله وممارساته. وبذلك فإنه لا شأن للصحابة الكرام في ترتيب آيات القرآن في السور، والزعم بأن ذلك كان يتم عن طريق الاجتهاد يعتبر أمراً مردوداً، والحجة في ذلك الأدلة الصحيحة الكثيرة من السنة ثم إجماع الأمة على أن ترتيب الآيات في القرآن توقيفي. أو أن النبيّ عليه السلام قد أوقف صحابته على كيفية هذا الترتيب.

أما الأدلّة من السنّة على التوقيف في ترتيب الآيات فهذه مجموعة أحاديث نذكرها في الآتية:

الحديث الأول: وهو مرويّ عن أحمد والترمذي وأبي داود والنسائي عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال.

فالعبارة المرادة هنا والتي عليها التعويل هي قوله عليه السلام «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا».

الحديث الثاني: ما أخرجه أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذْ شَخَصَ ببصره ثم صوّبه ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي».

الحديث الثالث: أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر قال: ما سألت النبيّ ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء».

الحديث الرابع: ما ثبت من قراءة النبيّ ﷺ لسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء. وذلك عن طريق حذيفة بن اليمان. وفي صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب. وروى

النسائي أنه عليه الصلاة والسلام قرأ سورة «قد أفلح المؤمنون» في صلاة الصبح. وفي صحيح مسلم أنه كان يقرأ سورة «ق» في الخُطبة، وفي صحيح مسلم أيضا أنه كان يقرأ «اقتربت الساعة وانشق القمر» وسورة «ق» في العيد والجمعة. وفي مسلم كذلك أنه ﷺ كان يقرأ سورة «المنافقون» في صلاة الجمعة.

وغير ذلك من السور كثير مما كان النبيّ عليه السلام يقرأه في الصلاة وفي غيرها من مناسبات. وفي مثل هذه السور التي كان النبيّ يقرأها بمشهد من الصحابة ما يدل على أن ترتيب هذه السور توقيفي، وأنه ليس للصحابة أن يرتّبوا آيات القرآن خلافاً لما سمعوه من النبيّ بترتيبه المعروف. فكان في ذلك إجماع الصحابة على هذه المسألة.

وقد أورد السيوطي رحمه الله في الإتقان جملة أقوال لبعض العلماء يؤكدون فيها على أن ترتيب الآيات كان بأمر من الرسول ﷺ. وعلى سبيل المثال. يقول القاضي أبو بكر: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول «ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقال نفسه أيضا: الذي نذهب اليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدّفتين الذي حواه مصحف عثمان وأن ترتيبه ونظْمه ثابت على ما نظَمَه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور.

ويقول البغويّ في شرحه للسنّة: الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدّفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدّموا شيئا أو أخّروا أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذوه من رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يلقّن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا فثبت أن سعي الصحابة كان في موضع واحد لا في ترتيبه فإن القرآن

أو أخّرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال أبو جعفر النّحاس: إن تأليف السور على هذا الترتيب هو من رسول الله ﷺ واستند في ذلك لحديث وائلة المرفوع «أعطيت السبع الطّوال مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضّلت بالمفصّل» وذلك يدل كما قال النّحاس على أن السور مرتّبة من عند النبيّ ﷺ وأيّد ذلك أيضا علماء آخرون منهم ابن الحصار وابن حجر إذْ ذهبا الى أن السور في ترتيبها لم تكن عن طريق الاجتهاد بل التوقيف.

وجاء في البرهان عن الكرماني قوله: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفّي فيها مرّتين.

وفي قول للطيبي: أنزل الله القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا ثم نزل مفرّقا على حسب المصالح ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ.

القول الثالث: وهو للبيهقي اذ ذهب الى أن القرآن في زمن النبيّ ﷺ كان مرتّبا سوره وآياته فكان على ما هو عليه الآن باستثناء سورتي الأنفال وبراءة اللتين سأل ابن عباس عنهما عثمان كيف قرن بينهما ولم يكتب بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم» فأجابه عثمان أن سورة الأنفال كانت من أوائل ما نزل في المدينة، وسورة براءة كانت من آخر ما نزل من القرآن مع أن السورتين كلتيهما متشابهتان في القصة والموضوع. وقد قبض النبيّ ﷺ دون أن يبيّن إن كانت براءة تابعة للأنفال أو غير تابعة، من أجل ذلك قرن عثمان بين السورتين ولم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم. ذلك مجمل ما قاله عثمان في مسألة الأنفال والتوبة. أما السور الأخرى فهي مرتّبة ترتيباً توقيفياً بإخبار من السماء عن طريق الوحي.

القول الرابع: وهو لابن عطية إذ ذهب إلى أن كثيراً من السور كان ترتيبها

معلوما في حياة النبيّ ﷺ وذلك كالسّور السبع الطوال المبدوءة بسورة البقرة، ثم الحواميم والمفصّل. أما ما سوى ذلك من سور فقد خُوّلت الأمة بترتيبه بعد النبيّ.

والقول الراجح في تقديري هو ما ذهب اليه البيهقي وهو أن سور القرآن كلها توقيفية بأمر الرسول ﷺ باستثناء سورتي الأنفال والتوبة لما بيّنا في موضعه عند حديث عثمان لما سأله ابن عباس فأجاب «وقد قبض النبيّ ﷺ دون أن يبيّن ان كانت براءة تابعة للأنفال» وفي ذلك دلالة على أن النبيّ ﷺ كان قد بيّن ترتيب السور الأخرى غير هاتين السورتين.

أما استدلال فريق من العلماء بقراءة النبيّ للسور يلي بعضها بعضاً لا يركن اليه. ذلك أن الموالاة في قراءته عليه السلام للسور لا يعطي دليلاً واضحاً على الترتيب. خصوصاً إذا عرفنا أن موالاته لقراءة السور لم تكن مطّردة.

ومن جهة أخرى فان الذي تطمئن اليه النفس هو الاعتقاد بأن ترتيب السور توقيفي ذلك أن مثل هذه القضية لا ينبغي أن تناط بالصحابة وهم بشر. وترتيب السور لهو من الأمور البالغة في أهميّتها ودقّتها وذلك بالنظر لعلاقة هذه المسألة بمسائل النظم والاعجاز للقرآن.

تنبـــــيه

هناك اصطلاحات وردت خلال هذا الموضوع يجدر بنا أن نوضّحها للقارىء في البيان التالي:

أولا: السبع الطوال، وهي السور الطويلة في القرآن المبدوءة بسورة البقرة وآخرها سورة التوبة. لذلك فان السبع الطوال هي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال.

ثانيا: المئون. سميت بذلك لان كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها، وهي تلي السبع الطوال.

ثالثا: المثاني. سميت بذلك لتثنية الأخبار والقصص فيها وكذلك العبر

والأمثال فإنها كثيراً ما ترد في القرآن مثنّاة. وهي ما يلي المئين وهي ما كانت السورة فيها أقل من مائة.

وقد تسمى سور القرآن كله مثاني لقوله تعالى «كتابا متشابها مثاني» وذلك لان ما فيه من أخبار وقصص ومواقف كثيراً ما تثنّى.

وتطلق المثاني على الفاتحة لقوله تعالى «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» والسبع المثاني هي سورة الحمد وفيها سبع آيات.

رابعا: المفصّل. وهو قصار السور، وقد سمّي بذلك لكثرة الفصول بين السور أو لكثرة ما يفصل بين كل سورة والتي يليها من البسملة وهي بسم الله الرحمن الرحيم.

وقيل سمّيت بذلك لقلة ما فيها من منسوخ الآيات حتى إن هذا المفصل يسمّى بالمحكم فإن آياته محكمة لا يقع عليها نسخ.

على أن آخر سور المفصل هي سورة «الناس». أما أوله فهو موضع خلاف وقد ورد فيه اثنا عشر قولاً منها أنها: الحجرات، ق، الصّافات، الصف، القتال، تبارك، الرحمن، وغير ذلك من سور أخرى.

والذي نرجّحه أن المفصّل مبدوء بسورة «ق» وذلك لحديث حذيفة عن جدّه أنه وفد على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف فسمع من أصحاب النبيّ ﷺ أنه كان يحزّب القرآن. قال وحزب المفصّل من «ق».

إعجـــاز القـــرآن

الإعجاز من المعجزة. وهي الخروج عن المألوف في سنن الحياة والكون مع الاقتران بالتحدي للبشر وعدم المعارضة من أحد.

ونفرغ الآن لبيان هذا التعريف لنقول إن المعجزة تأتي خارقة للعادة مما هو مألوف في نظام الحياة والكون وما بينهما وما فيهما من خلائق وأشياء وحوادث. ومن المعلوم أن كلاً من الحياة والكون إنما يسير وفق نظام متّسق وموزون. وهو نظام دقيق ومحكم يجري كل شيء فيه على غاية من الترتيب والاطراد من غير خلل أو نشاز أو تخلّف. وتلك هي السنة المقدورة المركوزة التي ذرأها الله فيما خلق من كائنات وأشياء. إنها السنّة الماضية السائرة منذ فجر الخليقة والوجود إلا أن تتوقف حركة الحياة أو تتبدد. وأي خروج على هذه السنّة السائرة هو ضرب من ضروب المعجزة التي قد تقع على جزء من أجزاء هذا الوجود الواسع المتحرك المنظم.

وتتحقق المعجزة فوق خروجها عن المألوف بأن تأتي مقترنة بالتحدي للآخرين لكي يستبين عجزهم عن المحاكاة. وذلك من باب التأكيد على صدق المعجزة وحقيقة شأنها اذ يتحدى صاحبها من حوله من الجنّة أو الناس ليعلنوا أنهم ليسوا قادرين على المجاراة لما هو قائم يتحدى. وكذلك فإن عدم المعارضة من أحد تحقيق مؤكد وحاسم لصدق المعجزة كي تستيقن النفوس وتعي الأذهان. وقد تتكرر محاولات من نفر من الناس غروراً ليجهدوا أنفسهم في المجاراة فيظلّون يصطنعون الأقوال أو الأفعال فيما يحسبونه تحدياً لكنه في ميزان الحقيقة والواقع ضرب من أضرُب التوهيم الفاسد الذي تفرزه حناجر الكذّابين المفترين في كل زمان ومكان.

والمعجزة ضربان. حسّية وعقلية.

أما الحسّية فهي ما كان خرق العادة فيها مما يدرك بالحسّ والعيان. كأن

يكون ذلك من طريق السمع أو البصر ونحوهما.

وأما العقلية فهي ما كانت بمثابة خطاب لعقل الانسان وذلك يعني أن هذا النوع من المعجزة انما يدرك عن طريق العقل وهو يتلقى أخبارا في الإعجاز حول قضية من القضايا التي لا تذهب بذهاب الزمان.

ومما يلاحظ أن معجزات النبيين الذين سبقوا خاتمهم محمدا ﷺ كان جلّها حسّيا. فهي معجزات كتبها الله لأنبيائه تبعا لطبيعة الأوضاع النفسية والذهنية والعرفية التي تكون عليها الأمم والشعوب في مراحلها الطويلة. ونخص بالذات بني اسرائيل فقد كان غالب معجزاتهم فيما نعلم تقع في دائرة الحس الذي يتحقق بالمشاهدة والمعاينة من غير تعويل على الذهن الذي يدرك ويتحقق ثم يعي ويستيقن. ومن أمثلة ذلك: انفلاق البحر بعد أن يضرب بالعصا، والقاء العصا أرضاً لتصبح حية كبيرة مخوفة تسعى، وانشقاق البحر لتكون في وسطه اثنتا عشرة طريقا يمر منها قوم موسى هربا من فرعون، وانبجاس الماء كعيون دافقة ثجّاجة من الحجر الأصمّ بعد أن يضربه موسى عليه السلام بالعصا، ثم إنزال المائدة من السماء على بني اسرائيل استجابة لدعاء عيسى المسيح عليه السلام لكي يأكل منها القوم عسى أن يتثبتوا وتطمئن قلوبهم بالايمان، ثم ابراء الأبرص والأعمى فيرتدّان شافيين مما بهما من سوء، ثم إحياء الموتى والنفخ في الطين على هيئة الطير فتكون طيرا ساعيا متحرّكا يجوب الآفاق والسماء. وغير ذلك من أنواع المعجزات الحسّية الكثيرة مما كتبه الله لأنبيائه لكي يؤمن الناس ويعلموا أن ما جاءهم به النّبيّون حق وهي معجزات غير محتاجة لكبير مجهود من الذهن أو اعمال العقل. وفي ذلك إيماءة واضحة على انحطاط في مستوى العقل والتفكير لدى هاتيك الأمم التي لا تصيخ إلا لخطاب الحسّ والمشاهدة، أو التي قليلاً ما تعبأ بخطاب العقل من الإعجاز الرفيع الراقي.

وذلك الذي يذكّرنا بمعجزة الرسول محمد ﷺ الذي أوتي القرآن خير المعجزات وأعظمها جميعا، وهو كذلك أبقاها وأدومها. إنها المعجزة التي

تظل مستديمة خالدة لا يأتي عليها الزمان والبلى ولا يؤثر فيها اختلاف الأحوال وتبدّل الأجيال مهما امتد الدهر وطال. يقول النبيّ ﷺ في ذلك «ما من الأنبياء الا أُعطيَ ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله اليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا» وذلك يعني أن كلا من الأنبياء السابقين قد أوتي من المعجزات ما يحمل قومه على التصديق والتيقّن، غير أن تلك المعجزات انقرضت بانقراض أصحابها وزمانهم. فهي معجزات حسّية مشهودة عمادها الزمان المتعيّن وأساسها القوم الذي لا يركن إلّا إلى المشاهد المنظور. فاذا ذهب الزمان والقوم ذهبت بذهابهم المعجزات. أما معجزة القرآن وهي التي تدرك طريق البصيرة والفطرة البشرية فإنها باقية ما بقيت الدنيا وما بقي الزمان. وحقيقة ذلك أن القرآن بما يحويه من معاني الخير والفضيلة ومن ضروب الفقه والتشريع ومن حقائق العقيدة والعبادة ومن روعة اللفظ ومتانة الاسلوب ومن روعة التعبير والكلمة ومن عذوبة النظم وتزاحم المعاني ـ ان القرآن بكل ذلك لهو معجزة لا تبرح الأرض ولا تغيب شمسها عن هذه الدنيا. فهي معجزة خالدة تظل مركوزة في ضمير الإنسان وفي ضمير الزمن.

شهـــداء وأدعـــياء

شهدت العرب للقرآن بأنه معجز وأنه ليس من كلام البشر. وهي شهادة تصدُر عن قوم أولي دراية باللغة وعلوم البيان. وقد كان فيهم البلغاء ومصاقع الخطابة الذين كانوا يتفننون في القول من الشعر أو السجع أو الخطابة. ولعل أشد ما يتميز به العرب لدى نزول الكتاب الحكيم هو اشتهارهم بالفصاحة والتفنن في بليغ الكلم. وقد كان من مفاخرهم أن يكثر فيهم الشعراء يقرظون الملاحم ذات الأبيات المتينة الطوال، وأن يكون فيهم الخطباء المصاقع يتكلمون في القوم بما يهتزون له إعجابا وانبهارا.

لقد شهد نفر من بلغاء العرب وجهابذة الفصاحة أن هذا القرآن لذو شأن ليس له نظير وانه من عند غير أحد من الناس. فقد ذكر عن الكندي وهو

من أئمة البيان في العرب وقد ادّعى النبوة وقول الحكمة ـ أنه قال له أصحابه ومريدوه: أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن. فقال: نعم أعمل مثل بعضه. فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد. اني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يُتلى عليكم غيرَ مُحلّي الصيد وأنتم حُرُم إن الله يَحكم ما يريد» فنظرت فاذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلّل تحليلا عامّا ثم استثنى بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا. ذلك ما أقرّ به الكندي معترفا في وضوح بأن القرآن لا يقوى على المجيء بمثله أحد.

وهذا الوليد بن المغيرة وهو في طليعة الفصحاء من العرب وأحد الذين كان لهم السبق في الوقوف على أطراف البيان، وأحد المشاهير القلّة الذين يمسكون بزمام الحجّة واللسان سواء في ذلك الشعر أو النثر أو السجع أو غير ذلك من أصناف الكلم.

الوليد بن المغيرة قد جاء الى النبيّ ﷺ فقرأ النبيّ عليه القرآن فكأنّه رقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتي محمدا لتعرض لما قاله. قال (الوليد): قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له. قال (الوليد): وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا. ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وانه ليعلو ولا يعلى عليه وانه لَيحْطِمُ ما تحته. ثم قال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكّر. فلما فكّر قال (الوليد) هذا سحر يؤثر يأثره عن غير.

وفي رواية أخرى أن قريشا لما قالت له إنه شعر قال: قد عرفنا الشعر كل هزجه ورجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر. فقالت

قريش: فساحر؟ قال: وما هو بساحر. قد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده والله ان لقوله لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وانه يعلو ولا يعلى سمعت قولا يأخذ القلوب. قالوا مجنون. قال لا والله ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا بوسوسته ولا رعشته. قالوا كاهن. قال قد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم.

ذلك حوار مع اثنين من المشركين كانا من بلغاء العرب ونخص منهما الوليد اذ أقرّ بغير تردد أن هذا القرآن معجز لولا أن الخصيم اللدود أبا جهل قد عثّر طريقه الى الايمان والتصديق تعثيرا والذي حرّضه على التكذيب وأن يقول في القرآن ما يشاء على سبيل الشك والرفض ففعل.

وهذا عتبة بن ربيعة وهو بليغ من بلغاء العرب ومشهور من مشاهيرهم في قرظ الشعر بكل ألوانه وصوره وبحوره وفي التفنن في ضروب النثر من الخطابة والقول المسجوع. ذكر أنه كان جالسا في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده. فقال عتبة: يا معشر قريش ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم اليه فكلّمه، فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي انك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم فاسمع منّي أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وان كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وان كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطبّاء وبذلنا

فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال «فاستمع منّي» قال: أفعل. فقرأ النبيّ من سورة فصّلت «بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصّلت آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين» الى قوله «وان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» وكان عتبة يستمع بإنصات وهو يلقي يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع من النبيّ ﷺ وهو يقرأ حتى اذا انتهى من القراءة قال «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» فقام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس اليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط! والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلّوا بين الرجل وما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

وثمّة شهداء آخرون من جهابذة البيان الذين عرفتهم العربية ممن شهد بصدق الكتاب الحكيم وأنه معجزة غير قابلة للمحاكاة.

ونعرض من الناحية الأخرى لأولئك الذين ركبوا متن الحماقة والغرور وهم يلوكون من سفاسف القول والعبارة ما يهبط بهم الى أسفل سافلين، فقد ادعى هؤلاء النبوّة وأنه قد أوحي اليهم فراحوا يصوغون الكلمات المصطنعة يوهمون بها الناس أنها من عند الله.

انهم يصوغون عبارات الزيف والتخريف يضاهئون بها كلام الله! وليت شعري، هل أفلح مثل أولئك الدجاجلة الخرّاصين في محاكاة القرآن ولو مثقال ذرّة! ان مثل هذه المحاولات لم تكن هذرا من الهذر فحسب ولكنها كشفت عن مدى الحماقة والسّفه اللذين بلغهما أولئك الدجاجلة الخراصون. ومن ناحية أخرى فان مثل هذه المحاولات التعيسة الفاشلة انما تكشف عن كوامن الروعة في القرآن بما يؤكد حقيقة الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم.

نضرب مثلا بالكذّاب العنسي مسيلمة الذي انتفخت أوداجه غرورا واستكبارا وراح يخادع الناس من حوله وهو يلفق لهم بعض كلمات مصفوفة اصطفافا من غير جمال ولا توافق. كلمات تتتابع خلف بعضها بعضا لا تتسم بغير الاكتظاظ النابي والحشو الزائف المنبوذ. يأتي ذلك كله من خلال عبارات مضطربة لا تحمل من المضمون الا التفاهة والهوان.

من جملة ذلك ما يقوله مسيلمة وهو يحاكي الكوثر من القرآن في هذه العبارات: انا أعطيناك الجواهر. فصلّ لربك وهاجر. ان شانئك هو الكافر.

وفي قول له آخر: انا أعطيناك الجماهر. فصلّ لربك وجاهر.

وفي قول له ثالث: والطاحنات طحنا. والعاجنات عجنا. والخابزات خبزا. واللاقمات لقما.

وفي قول له رابع: يا ضفدع نقّي ما تنقّين. فلا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين.

وفي قول له خامس: الفيل. ما الفيل. وما أدراك ما الفيل. له جسم كبير. وخرطوم طويل.

وفي قول له سادس وهو يحاور عمرو بن العاص بعد أن قرأ عليه الأخير بعض آيات من سورة النجم «والنجم اذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو الا وحي يوحى. علّمه شديد القوى. ذو مِرّة فاستوى. وهو بالأفق الاعلى» أطرق مسيلمة قليلا ثم أفرز كلمات من عنده يخادع بها عمرو فقال: الحبلى. ما الحبلى. أنعم الله على الحبلى. أخرج منها

نسمة تسعى. بين صفاق وحشا. فما كان من عمرو وهو العربيّ الذكيّ الأصيل الا أن صدّه قائلا: والله انك تعلم أنني أعلم أنك لكذاب.

ومما يذكر أن ابن المقفّع حاول أن يركب مثل هذا المركب من التعاسة والغرور والشقوة. وكذلك المعرّي والمتنبي، فانه يروى عن هؤلاء أن قد حاولوا مثل هذا العبث اليائس لكنهم ما لبثوا بعد ذلك أن كسروا أقلامهم ومزقوا صحفهم لما عرفوا وعورة الطريق وأنهم ماضون في غياهب من تيه الهذر والضلال والتخبّط[1].

وجـــوه الاعجـــاز في القـــرآن

نعرض الآن لمجموعة من الحقائق الموضوعية التي تكشف عن طبيعة الاعجاز في هذا الكتاب الحكيم. وهي حقائق متعددة ومختلفة تجمع فيما بين المسائل البيانية والغيبية والعلمية والتربوية وغير ذلك من المسائل التي تزجي بخالص البرهان لحقيقة ما نحن بصدده. وهذه هي الحقائق.

الحقيقة الأولى: وهي أن أجناس الكلام مختلفة وأن مراتبه من حيث البيان متفاوتة. بمعنى أن من درجات الكلام ما هو بليغ ورصين وجزل ومنها ما هو فصيح وواضح وسهل ومنها ما يتّسم بالاطلاق والارسال. وغير ذلك من أوجه البلاغة في اطارها الشامل.

وشأن القرآن في هذه البلاغات أنه يجمع بين ضروبها وأقسامها جمعا بحيث يؤلف أوجها شتى من البلاغة والجزالة ثم الفصاحة المستبينة التي يتجلى فيها اليسر والوضوح ثم الإطلاق المسترسل الذي يجاوز التقييد ثم الايجاز المتين الذي يضم فيوضاً زاخرة من المعاني عبر كلمات رصينة يشد بعضها بعضا. هذه الأوجه كلها قد اجتمعت في القرآن مع أن قائلها المخاطِب واحد. وهي حقيقة لا تتيسر لأحد البلغاء والفصحاء مهما اجتهد وأضنى فكره أو قلمه أو قريحته.

---

(١) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٣٠، ٢٣١.

ان اجتماع مثل هذه الأوجه جميعا لا تتيسر لكلام - أي كلام - ولا يتيسر اجتماعها في أي بيان مهما كان هذا البيان. لكن القرآن وحده قد اجتمعت له ومن خلال آياته وكلماته مثل هذه الأجناس للكلام جميعا.

ولدى استعراض أيٍ من الكلام سوى القرآن سوف نجده آخذا بوجهة من أوجه البيان في مراتبه ودرجاته فهو إما أن يكون جزلا واما أن يكون سهلا وإما أن يكون فيه من رصانة البلاغة وتوعر الاسلوب ما يشق، وإما أن يكون فيه من لين الكلام وسلاسة التعبير ما يكسوه سهولة وإعذابا. أما أن تجتمع هاتيك الأوجه البيانية كلها في كلام واحد فان ذلك ما يعز على الكاتب أو الخطيب كائناً من كان.

وقد قيل: إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة وهي: لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم. وهذه الأمور الثلاثة نجدها في القرآن على غاية من الشرف والكمال. سواء في ذلك اللفظ من حيث بلاغته وروعته وما يجلّيه من عذوبة تكسبه الإشراق والحلاوة وتشدّه نحو القارىء أو السامع المتذوق شدا.

ثم المعنى. وهو في القرآن كمال من الكمال. أو هو كمال يتجسد في جزء من كمال الله الأعظم. ويظهر ذلك لأي استعراض لآيات القرآن وكلماته وهي تتناول كل أقسام المعاني سواء في ذلك العقيدة بما فيها من أركان وجزئيات وفروع، ثم العبادة بما تحويه من شعائر كبيرة ويسيرة ثم الأخلاق بما ينطوي عليه ذلك من ضروب شتى في الممارسات والسلوك، ثم المسائل الشخصية وما يتفرع عنها من أحكام تتعلق بالفرد والأسرة وبالنكاح وانحلاله وبالحقوق والواجبات، ثم المسائل الجنائية وما تشتمل عليه من قصاص أو حدود أو تعزير وغير ذلك من قَصَصٍ غاية في الكمال والجمال من خلال أسلوب يبهر الألباب بهراً ويأخذ القلوب أخذا.

ثم الرباط الذي يؤلف بين اللفظ والمعنى في اتساق كامل وفي انتظام دقيق وثيق.

ان هذا التوافق المترابط بين كل من اللفظ والمعنى والنظم بينهما لا يتحقق بمثل هذا الكمال التام أو هذه الصورة الوافية المثلى الا في القرآن.

الحقيقة الثانية: خروج القرآن عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والشعر والخطابة والرسالة والسجع مع أن حروفه (القرآن) في كلام العرب ومعانيه في خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم. ومعلوم أن هذه الوجوه الستة هي جماع الكلِم كله وهي الإطار الذي يحيط بأطراف البيان في كل جانب أو هي أقسام الكلام التي يعبّر بها الناس عن معنى من المعاني أو قصد من القصود. فليس من كلام الا وهو على نحو من هذه الأنحاء الستة: النظم والنثر والشعر والخطابة والرسالة والسجع. وقد اتفقت كلمة العالِمين من أهل البيان أن القرآن ليس على أحد من هذه الأنحاء. فلا هو بالشعر ولا بالنثر ولا بالنظم ولا بالخطابة ولا بالرسالة ولا هو بالكلمات المسجوعة ذات السجع. وكل الذي يمكن الركون اليه هو أن «القرآن» وذلك اسم فذّ متميز يجمع كل خصائص هذه الانحاء. فليس هو بالنثر لما فيه من إطلاق مرسل، ولا هو بالشعر لأنه موزون ومقفّى، ولا هو بالخطابة لما يتجلى في هذه من طابع العاطفة الغلّابة الحرّى، ولا هو بالرسالة ذات الديباجة المعينة التي يعول فيها كثيراً على الصورة والشكل، ولا هو بالسجع الذي يعتمد التجانس في الحروف الأواخر من العبارات والذي ينصب فيه الاهتمام على الشكل والمظهر دون الحقيقة والمضمون ولا هو بالنظم البارد المصفوف من غير فعالية وحرارة. ولكنه «القرآن» الكلام المتميز المعجز الفذ.

الحقيقة الثالثة: الإيجاز الذي يرد في غاية الرصانة والبلاغة والجمال. وهو ايجاز عظيم وبالغ لكنه كريم وعذب ومرغوب. وهو يحوي من أمهات القضايا والمسائل ويتضمن من كبريات الحقائق ما يغطّي الحياة البشرية برمتها وما يلفت النظر نحو الكون والكائنات جميعا.

ولا جرم أن يغمرنا العجب العجاب ونحن نتذكر بساطة الحجم الذي تقع فيه كلمات القرآن. وهو حجم لا جرم قصير اذا علمنا أن القرآن من حيث

العبارات والنظم أو من حيث الحروف والكلمات لا يجاوز كتابا وسطاً من الكتب. ولكنه ليس كأي كتاب، بل ان الكتب على تعددها وتناثرها وتكاثرها وانتشارها ليست غير شطر من الأحجام التي يمكن لها أن تستوعب حقائق ومعلومات وأخبارا ومعاني قد تضمنها القرآن.

ومن الحق أن نقول إن القرآن ـ بالقياس الى ما يحتويه من هائل المعلومات والدراسات ومن هائل الحقائق والأخبار ومن هائل الأحكام في كل القضايا ـ لهو في غاية الايجاز. وهو مع ايجازه العجيب هذا والذي ينطوي على جِماع المسائل والقضايا ـ فإنه في القمة السامقة من الاعجاز.

نضرب لذلك بعض الأمثلة. أولها سورة الإخلاص وهي من أجلّ وأعظم سور القرآن وقيل بل هي أعظم ما فيه من سور. وهي سورة تتدفق بالمعاني التي تستقر في ضمير الإنسان. وتؤلف بالتالي ملامح أساسية وركينة لعقيدة الإسلام مبدوءة بأن الله جلت قدرته هو الأحد. وذلك كله في آيات أربع يجللها تناسق متماسك وطيد وتظللها أساسيات أولية يقوم عليها نظام الاسلام من أول لحظة « قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد ».

وفي يوم القيامة تتزلزل الأرض وتضطرب اضطرابا مريعا تهتز له الفرائص وترتجف من أجله القلوب. حينئذ تندك الارض دكاً فتتحرك وتميد لتخرج مَن فيها من أناسيّ كثير يوقَفون على ربهم كي يلاقوا الحساب. كل ذلك في كلمات موحية مؤثّرة تلج الى الصميم من فطرة الإنسان فتهزّها هزّا « إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها. وقال الإنسان مالها. يومئذ تُحدّث أخبارها. بأن ربك أوحىٰ لها. يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ».

وفي التشريع تأتي آيات القرآن لتتحدث عن قضية من قضايا التعدّي والقتل على سبيل المثال، وذلك في كلمات قصيرة وجيزة حافلة بالعطاء الوافي الذي يحيط بالقضية من جوانبها على شاكلةٍ من الشمول والتعميم. يقول

سبحانه في القتل العمد: « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القِصاص في القتلى الحُرُّ بالحُرِ والعبدُ بالعبدِ والأُنثى بالأنثى فمن عُفيَ له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه باحسان ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ».

وكذلك في الصلاة تتحدث العبارة القرآنية القصيرة الوجيزة لتطوي حجم الصلاة كلها بدءا من صلاة الفجر وانتهاء بصلاة العشاء الأخيرة: « وأقم الصلاة طَرَفَيْ النهارِ وزُلَفاً من الليل إن الحسناتِ يُذهِبن السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين ».

وفي السلوك الذي ينتهجه المسلم أو يتجافى عنه تتحدث الآية القرآنية بما يرسم صورة مستبينة الملامح في الأخلاق وذلك في كلمات وجيزة قليلة: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القُربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يعظُكُم لعلكم تذكّرون ».

في مثل هذا الايجاز البالغ يخاطب القرآن مَن في الأرض وهو يحمل إليهم جماع الحق والخير وجماع الرشد والتبصرة. وهو ايجاز عجيب حقا ما كان لأحد من البشر أن يقتدر على نَظْمِ مثله أو أن يكون نَظْمُه في غاية من الاضطراب والخلل والحشر المنبوذ.

الحقيقة الرابعة: أن القرآن لا يمل منه قارىء ولا سامع. وكل كلام غيره يُعاف مع الترديد ويُمج مع كثرة التكرار. فلا ترى منظومة من شعر ولا فصلا من نثر إلاّ اذا ترددا مراراً عافتهما النفس وسئم منهما الطبع. لكن القرآن وحده لا يزداد مع التكرار في القراءة الا عذوبة فوق عذوبة ولا يزيده الترديد على الدوام الا الطلاوة والاشراق. وها هو القرآن ترددده الحناجر والألسن والصدور في كل آن وفي كل مناسبة حتى لا يمر جزء من زمن إلا ويستمع المرء لبعض من الآيات تتلى سواء كان ذلك ليلاً أو نهاراً صُبحاً أو مساءً صيفاً أو شتاء، في البيت أو في موطن الدرس، في البستان أو الشارع، وفي كل جَنَبةٍ من جنبات الأرض. وهو مع ترديده المتكرر المتواصل في

مختلف الظروف والمجالات والأحوال على مر الزمن فانه تجليه الحلاوة والروعة ويغمره فيض من الجمال ينتزع في نفس القارىء أو السامع مزيدا من الرغبة في الترديد المكرور. وأصدق ما يرد في ذلك هو قول النبي ﷺ في هذا الصدد من وصف القرآن بأنه « لا يَخْلَقُ على كثرةِ الرَّد ». والفعل يَخْلَق بفتح اللام من الخلوق وهو البلى والاهتراء. فان القرآن لا تبدو على كثرة تكراره المستمر بادية من خُلُوق فهو لا يملّه من يستمع اليه بشيء من التدبّر والاستبصار. وهو مايزال على الدوام غضاً طريا عذبا لدى السامعين والقارئين فكأنما أنزل الساعة. وتلك مزية لا تتحقق لأي كلام مهما علت مرتبته أو استطارت مكانته. وأي كلام سوى القرآن يغطّيه مرور الزمن وتعاقب الأيام بعلائم مستبينة من مظاهر الخُلُوق والبِلى حتى إذا تكرر بعد ذلك لاكته الألسن باجترار ممجوج.

الحقيقة الخامسة: وهي روعة القرآن التي تلحق قلوب السامعين فتشدها شدا وتغمرها بالبهر والاعجاب. كالذي وقع للوليد بن المغيرة إذ روي أنه سمع من النبي ﷺ « يا أيها المدّثر. قم فأنذر. وربك فكبّر. وثيابك فطهّر. والرُّجْزَ فاهجُر. ولا تمنُن تستكثِر. ولربك فاصبر » حتى بادر بالقول ليؤكد أن هذا الكلام ما كان صنع بشر.

ثم جبير بن مطعم الذي بهره القرآن لدى سماعه أول مرة. فقد ورد أنه سمع النبيّ يقرأ في صلاة المغرب « والطور. وكتاب مسطور. في رق منشور. والبيتِ المعمور. والسقفِ المرفوع. والبحر المسجور » الى قوله تعالى « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » فقال (جبير) كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي.

وكذلك عمر بن الخطّاب الذي قدم على أخته فائراً مستشاطاً لإسلامها فانهال عليها بالضرب المبرّح، فلما أن أمسك بصحيفة من القرآن جعل يقرأ بعض آيات فهدأت سورته وانخمد لهيبه المستعر بعد أن أخذت خيوط الايمان تتسرب إلى قلبه ومشاعره حتى انقلب بالتالي رأسا على عقب.

أما الآيات البواهر العذاب التي قرأها عمر لأول مرة وآمن عليها هي «طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الارض والسموات العُلى. الرحمنُ على العرش استوى».

وتَحكي بعضُ الأخبار أن جماعةً من العرب السابقين قد ماتوا لدى سماعهم آيات من القرآن.

الحقيقة السادسة: الإنباء عن الماضي من أخبار القرون السالفة. وذلك كحديث القرآن عن طوفان نوح وهي قصة مكررة ومثيرة. ثم حديث القرآن عن حوار ابراهيم مع الحاكم الطاغية المتجبّر وهو النمروذ. ثم القاء ابراهيم من قِبل قومه المشركين الفسقة في النار ونجاته منها. ثم قصة يوسف عليه السلام مع اخوته الذين كادوا له كيداً وألقوه في الجُب وما تبع ذلك من أخبار عجيبة مثيرة حول رحلته إلى مصر وقد سيق إليها غلاماً مملوكاً. وأخيرا تسنّم مقاليد الأمر في البلاد. ثم قصة موسى مع قومه بني اسرائيل. وهي قصة طويلة وعسيرة ومريرة مرورا بالهرب من مصر الى مدين،ثم حواره مع فرعون ثم انفجار الماء من جوف الصخر بعد ضربه بالعصا،ثم الامتنان على القوم بالمن والسلوى،ثم انفلاق البحر بعد أن ضربه موسى،ثم نجاتهم جميعا من طغيان فرعون الذي مات في البحر غرقا،ثم ضياع القوم هائمين على وجوههم في التيه.

وكذلك قصص القرآن في أهل الكهف. هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى. ولا جرم فقصتهم بالغة الإثارة والعجب.

وغير ذلك من الأخبار عن الأمم السالفة التي أنبأنا الله في القرآن عن أحوالهم في قَصَصٍ تاريخي رائع على نحو من الموضوعية التامة التي تتوافق مع معطيات التاريخ والكتب السماوية.

فلا ريب أن يكون هذا الكتاب معجزا خصوصا إذا علمنا أن النبيّ محمداً كان أمّيا لا يعرف شيئا من القراءة ولا الكتابة. وذلك آكد على كون القرآن

من كلام الله، اذ لا يعقل البتة أن يقوى رجل أمّي في أمة أمّية أن يقص مثل هذه الأخبار الوافية الدقيقة الصحيحة. لا يعقل ذلك ولا يمكن التصديق به.

الحقيقة السابعة: الإنباء عن المستقبل. وذلك بأسلوب قرآني قاطع لا يعرف الشك أو التردد. فقد أنبأ القرآن عن بعض الأخبار المستقبلية حول أحداث ووقائع شتى وأنها واقعة في حينها لا محالة وذلك في حزم حاسم يزجي بالدلالة المطلقة الوثقى على أن صاحب هذه الأخبار ليس من البشر ولكنه الرب خالق البشر الذي يحيط علمه بما هو كائن وما سوف يكون.

وليس من المعقول أن يغامر النبيّ ﷺ ليَروي من عنده عن أخبار المستقبل على هذا النحو من التأكيد المتيقن الموثوق.

ليس من المعقول أن يجازف النبيّ الكريم في مغامرة غير معلومة العواقب ليراهن على حساب دعوته كلها وهو يكشف للناس عن أمور وأحداث سوف تقع في المستقبل. وهي اذا لم تقع فلسوف تكون دعوته في موضع الريبة والتأرجح ولسوف يكون صاحب الدعوة نفسه موضع إتهام وتكذيب.

ومما قصه القرآن عن أخبار المستقبل على سبيل المثال:

إنباؤه المسبق عن هزيمة المشركين قبيل معركة بدر فقال سبحانه: « أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولّون الدبر ».

وإنباؤه عن المخلفين من الأعراب وهو أنهم سوف يُدعَون لقتال الروم ثم يتقاعسون عن قتالهم. وفي ذلك يقول سبحانه: « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يُسْلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولّوا كما توليتم من قبل يعذّبكم عذابا أليما ».

وإنباؤه عن نصر المؤمنين فيما بعد. فقد وعد الله عباده الصالحين العاملين بالنصر وانه سوف يمكّن لهم في الأرض بعد ضعف وذلّة فقال سبحانه في ذلك: « وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض

كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهّم من بعد خوفهم أمناً».

وإنباؤه عن ضربةٍ بالسيف تقع على أنف الوليد بن المغيرة لتشدخه شدخاً فتذره دائما موسوماً من أثر الضربة فقال سبحانه:« أنْ كان ذا مـال وبنين. إذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطير الأوّلين. سنسمه على الخرطوم»...

وأخيرا إنباء القرآن عن كُفْرانِ أبي لهب وأنه سيموت على الشرك ليكون مآله الى النار وبئس القرار. وذلك تقرير قاطع مسبق بأن أبا لهب في النار وأنه لن يهتدي الى الحق. ولنفرض على سبيل الجدل أن القرآن من صنع محمد ﷺ فهل من المعقول أن يجازف محمد عليه الصلاة والسلام ليراهن على مصير دعوته وهو يعطي الحكم سلفا بأن أبا لهب في النار؟ وما الذي يحدث بعد ذلك لدعوة الإسلام لو لم يتحقق إخباره عليه السلام عن أبي لهب؟! أو أن أبا لهب آمن! لكن صياغة الآيات الواردة في هذه السورة لهي مصوغة في كمال من التقرير المسبق الحاسم الذي لا يخالطه شيء من ريبة أو تأرجح. وفي ذلك دلالة على أن القرآن من عند الله أو أنه معجز.

الحقيقة الثامنة: التوافق وعدم الاختلاف. بمعنى أن القرآن يوافق بعضه بعضا وهو فيما بين آياته وسوره ومعانيه وحقائقه المحتواة قد جاء يؤيد بعضه بعضا أو يؤيد كل ما في الأرض والكون والحياة من حقائق. وكذلك فان القرآن في آياته وعباراته وكلماته وسوره قد جاء على وتيرة ثابتة من وحدة المستوى فهو على تعدد مسائله وتنوع معانيه وما يقتضيه ذلك من تنويع الأسلوب فيما بين الهبوط والارتفاع، فقد جاء على شاكلةٍ واحدة ثابتة من وحدة الأسلوب المحكم المترابط. ومثل هذه المعاني يتجلى بوضوح في قوله سبحانه:« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» أي أنه لو كان القرآن من صنع مخلوق لوقع فيه اختلاف كثير. والاختلاف لفظة تتسم بالمرونة والشمول بحيث تتضمن جملة تفسيرات ومعان منها: التعارض والتفاوت والتناقض والتباين والضعف.

فلو كان القرآن من عند غير الله لاستبان ذلك مع مرور الزمن وتعاقب الأحوال والظروف ثم تصاعد القدرات العلمية وما رافق ذلك من تحصيل هائل في مختلف مناحي العلم.

إن القرآن من عند الله حقا وصدقا. ودليل ذلك أنه كتاب حافل بالمعاني والأحكام والحقائق والتقريرات. وهي كلها قد جاءت مسوقة سوقاً عجيباً رائعاً لا ينطوي على ذرة من اختلاف فيما بينها. بل انها جميعا متوافقة منسجمة وهي كذلك متسقة ملتئمة.

ولنا أن نتصور أن ثمة كتابا يحتوي على شتات من العلوم والأخبار والقضايا في الحياة والانسان والكون بما في ذلك قضايا التشريح أو قضايا الإنسان في شخصه وفي مسالكه النفسية، أو قضايا الطبيعة والكائنات وما في ذلك من لفتات علمية. لنا أن نتصور كتابا يشتمل على مثل هذه الأمور والقضايا، فلا جرم أن يحيق به الاختلاف بمفهومه الواسع الشامل أو أن يقع فيه من التضارب والتناقض وأوجه العيوب ما يكذبه تكذيبا أو أن يعلو مرة ويهبط أخرى. فتارة يسمو فيه الأسلوب ليكون عاليا بليغا وتارة ينحدر انحدارا يهبط الى الدركات من الضعف أو الركاكة أو الاسفاف سواء في العبارة أو المعنى. لكن القرآن ليس فيه اختلاف فلا يضرب بعضه بعضا ولا يقع فيه شيء من تفاوت الأسلوب ليكون قويا في جانب ثم ضعيفا ركيكاً في الجانب الآخر. وانما جميعه متّسق تمام الاتساق ومتلائم تمام التلاؤم.

الحقيقة التاسعة: هذه النماذج البشرية العظيمة التي تولدت عقيب نزول القرآن. وهي نماذج من البشر الفذ. البشر المهذب تمام التهذيب والذي ينطوي على شخصيات غاية في روعة الخلق وفي تمام العطاء في كل مناحي الحياة. أولئك رجال عظماء ونساء عظيمات قد برزوا بروزاً يسمو بهم الى عليين حيث الأطهار والأبرار من خلائق الله.

ونحن اذ نقرأ عن عظماء المسلمين رجالا ونساء ممن ربوا على تعاليم القرآن في مختلف العصور، لكأنما نقرأ عن أسطورة من الأساطير أو كأنما نتخيل أن

ثمة شخصيات موهومة لم يكن لها وجود على وجه الأرض وذلك لفرط روعتها وما يتجلى فيها من عظيم الخلق واكتمال الشخصية الصالحة السوية التي تفضي بالتالي إلى العطاء والبر والإيجابية. وما كان مثل هؤلاء العظماء ليكونوا لولا القرآن الذي يصنع أمثال هذه النماذج الفذة. النماذج التي حيّرت العقول وخلبت الألباب من مثل: الصدّيق أبي بكر، والفاروق عمر ثم عثمان وعليّ وسعد وأبي عبيدة وأبي ذر وعبدالله بن مسعود ومصعب بن عمير وحمزة بن عبدالمطلب وخديجة وفاطمة وعائشة ونسيبة المازنية وغيرهم كثيرون.

إن الذي جاء بأمثال هؤلاء الأبطال الأبرار لهو القرآن. وما يكون له أن يكون كذلك لولا أنه من عند الله وأنه بمثابة روح تسري في الإنسان لتؤتي منه خير انسان.

الحقيقة العاشرة: هذه اللفتات العلمية التي ذكرها القرآن تزجي بخالص الدلالة على أنه من صنع الله. وهي لفتات متفرقة مبسوطة في كثير من سور القرآن، وتحمل من المضامين الواضحة المستبينة ما يوافق كثيرا من الحقائق العلمية القطعية، وذلك في مختلف جوانب الكائنات والطبيعة. سواء في ذلك الأحياء والاجرام السماوية ومسائل الفلك بما ينبثق عن ذلك من حقائق ونظريات. فقد تضمن القرآن في بعض آياته ما يلفت النظر والانتباه حول مسائل علمية ما كان للنبي محمد وهو العربي الأمي الذي ما عرف الكتابة ولا القراءة أن يقوى على ادراك مثل هذه المسائل والحقائق. ولا جرم أن تكون أمّيّةُ النبي خير دليل على أنه صادق فيما يقول وفيما ينقله للناس عن ربه. « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذنْ لارتاب المبطلون ».[1] ولا يتصور انسان أن هذا النبي يستطيع أن يدلي بكلام ينطوي على بعض الحقائق العلمية التي لم تُعرف الا حديثا وفي فترة متأخرة. خصوصا وأن النبي قد بعث في أمّة أمّية لا تتصور شيئا عن أمور الطبيعة والكائنات.

ومما ورد في القرآن من علوم الطبيعة أن الأرض تدور بانتظام منذ أن

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

وجدت وأنها غير ثابتة في مكانها لا تريم. قال سبحانه في ذلك:« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء »[٢] فالجبال تدور وهي جزء من الأرض فلا جرم أن تدور الأرض بدوران الجزء وهي الجبال.

وعن كروية الأرض يقول القرآن:« رب المشارق والمغارب لا إله الا هو فاتخذه وكيلا »[٣] وذلك يعني أن مطالع الشمس ومغاربها بالنسبة للأرض مختلفة وذلك بالنظر لاستدارة الأرض ودورانها حول الشمس وحول نفسها وذلك من شأنه أن يستتبع تعدد المشارق والمغارب كما ورد في الآية.

وفي مسألة الرحم تبين بعد التشريح مؤخرا أن الرحم يتكون من طبقات ثلاث صماءَ يُصان داخلها الجنين فلا يتسرب اليه من الخارج شيء من الضوء أو الماء أو الحرارة فيتأذى فهو بذلك مصون داخل سياج من هذه الأغشية الثلاثة الصمّاء. يقول القرآن حول هذه الحقيقة:« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ».[٤]

وفي خلْق الإنسان من تراب يقول القرآن:« يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »[٥]. ويقول جلت قدرته:« خلق الإنسان من صلصال كالفخار »[٦] فهذه أدلّة تقطع في دلالتها على أن الإنسان مخلوق من تراب. وهي حقيقة يدعمها العلم الحديث بما تمخّض عن أقوال للعلماء في تركيبة الإنسان الجسدية، والتي تذهب الى أن جسد الإنسان يشتمل على عناصر كلها من مركبات الأرض. ذلك أن الإنسان يتكون جسده من الآتية: الكربون، الأكسجين، الهيدروجين، الفوسفور، الكبريت، الكلور، المغنيسيوم، الحديد، المنجنيز، النحاس، اليود، الفلورين، الكوبالت، الزنك، السلكون، الألمنيوم.

(٢) سورة النمل الآية ٨٨
(٣) سورة المزمل الآية ٩.
(٤) سورة الزمر الآية ٦.
(٥) سورة الحج الآية ٥.
(٦) سورة الرحمن الآية ١٤.

وذلك بيان للعلماء عن مقادير بعض العناصر في جسد الانسان:

ماء	٦٨٪
بروتين	١٥٪
رماد	٥٪
مواد نشوية	٠,٥٪
دهـــن	١٣٪

ومن الملح ما يعادل ست ملاعق صغيرة، ومن السكّر ما يعادل ملء كوب متوسط، ومن الحديد ما يكفي لصنع أربع مسامير من وزن الخمسة عشر غراما، ومن الفوسفات ما يكفي لصنع ٨٠٦٤ صندوقا من الثقاب، ومن الهيدروجين ما يكفي لملء بالون يحمل جسدا وزنه ٦٧ كيلو غراما فوق الغيوم.

أما الدهن الموجود في الجسد فانه يكفي لصنع ٧٥ شمعة مع قطعة صابون من الحجم الكبير.

وأما البروتين فانه يعطي من الغذاء ما يعادل مائة دزينة من البيض.

وأما الماء فإنه يعطي ما يعادل ٣٩ لترا.[١]

وثمة نصوص في القرآن أخرى تحمل بعض اللفتات العلمية غير ما أوردنا مما نكتفي للاستشهاد به في هذا المجال بما يشهد لهذا القرآن أنه لم يكن من صنع النبيّ محمد ﷺ وهو عليه السلام لا يقوى على أن يأتي بمثل هذا البيان العجاب. فهو بذلك الكلام الرباني المعجز. أو هو القرآن.

افـــتراءات وردود

ونورد الآن بعض الافتراءات التي أطلقها المرتابون والجهلة ليبثوا الشبهات

---

(١) البرهان من القرآن ص ١١٥ و ١١٦ محمود أحمد مهدي.

والاكاذيب من حول الرسول ﷺ وليصدّوا عنه الناس فينثنوا عن دعوته ويتخذوها وراءهم ظهريا.

وقديما وفي إبان الدعوة الإسلامية لدى بزوغها افترى المشركون على النبيّ افتراء لا يقوله الا كل أفّاك أثيم أو فاجر جهول. فقالوا إن محمدا يتلقى قرآنه هذا من رجل أعجمي. وتلك فرية يتقولها غبيّ مكابر أو من افتقد وعيه وصوابه. فكيف يتعلم النبيّ القرآن وهو الكلام المعجز من رجل أعجمي يلحن وينطق العربية في عِيّ. يقول سبحانه في رد هذا التخريص المفترى «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر لسانُ الذي يُلحِدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين».(٢)

وفي العصر الحديث يفتري الحاقدون والمتعصّبون في تجاهل مطبق وفي تحامل خبيث لئيم. فقال بعضهم إن محمدا قد تلقى القرآن من الراهب بحيرا. وتلك فرية فاسدة مغلّظة ترددها حناجر الحاقدين من مشركين وملحدين وصليبيين. وهي فرية لا تلبث أن تتبدد كما تتبدد الفقاقيع لتطيش هباء منثورا في الفضاء.

أما بحيرا الراهب فكان يعبدالله على المسيحية المبرأة من الشرك وقد تعرّف على النبيّ محمد ﷺ وهو في الثانية عشرة من عمره، وقيل في التاسعة. وكان عليه السلام مُصاحباً لفريق من العرب ذهبوا في تجارة لقريش الى الشام بقيادة أبي طالب. فأنّى للنبيّ عليه السلام في الثانية عشرة أو التاسعة من عمره أن يتلقى القرآن من بحيرا وهو في هذه السن ومن خلال لقاء عابر سريع؟!

وقالوا كذلك إن محمدا قد تلقى القرآن عن ورقة بن نوفل. وذلك افتراء آخر لا يقل عن سابقيه تخريصا وسخفاً. وكل الذي حصل بالنسبة لورقة والنبي عليه السلام أنهما قد التقيا عقيب هبوط الوحي جبريل على الرسول ﷺ ليقرأ عليه القرآن. فقد هال الوحي النبيّ وراعه كثيرا حتى ارتاع النبيّ واضطرب ثم

---

(٢) سورة النحل الآية ١٠٣.

كرّ راجعاً إلى زوجه الكريمة الحانية خديجة رضي الله عنها فشرح لها الذي حدث له. فذهبا كلاهما ـ كما تذكر بعض كتب السيرة ـ الى ورقة ليذكرا له ما حدث. فما أن استمع ورقة لما يقول النبيّ حتى أخذته غمرة من الدَّهش والإعجاب والذهول فتحقق له أن هذا الرجل هو النبيّ الموعود وأنه رسول الله الى الناس. ذلك كل الذي حصل في هذا اللقاء. فكيف تلقى النبي القرآن من ورقة مع أن الأخير كان شيخاً كبيراً لم يلبث بعد فترة وجيزة من النبوة أن قضى نحبه. تلك أكذوبة تُضم إلى طوابير من مقولات الهذيان المحموم والكذب الحاقد الفاضح المكشوف مما يثيره المتعصبون والموتورون حول القرآن ونبيّ الإسلام عليه السلام.

ويقول بعض الجهلة والخرّاصين إن محمداً هو من البراعة والنبوغ بحيث يصطنع كلاما كالقرآن. وتلك أكذوبة أخرى من نوع جديد، وهي تنم على جهل كبير بطبيعة الإنسان وحقيقة تركيبه وذلك من حيث الإمكان وحجم القدرات والمواهب التي يتمتع بها أي انسان.

ومما لا ريب فيه أن كل إنسان في الدنيا لا يملك في كيانه وشخصيته غير أسلوب أساسي واحد. وهو أسلوبه الفطريّ الغلاب غير القابل للتغيير أو التبديل. وعلى هذا الاساس فكل كائن في البشر له أسلوبه المتميز الخاص الذي يفرقه عمن سواه. حتى إن المتدبر الواعي البصير يستطيع بنباهته وتمام ادراكه أن يتعرف على حقيقة الشخص من خلال أسلوبه المكتوب. وهو أسلوب إذا ما دوّن في القراطيس فإنه لا جرم أن يكشف عن صاحبه سواء كان المكتوب شعرا أو نثرا أو غير ذلك من أوجه الكلام.

وبذلك يمكن أن نجزم في يقين محتوم أن النبي عليه السلام ما كان له أسلوبان وما كان يتحدث الا بأسلوبه النبوي المعروف والذي جمعه العلماء ودوّنوه باعتباره سنة كاشفة للقرآن ومفسّرة له. أما أن يقول النبيّ بأسلوبين فذلك أمر مستحيل أو هو خلاف لطبيعة الإنسان في وحدة أسلوبه وفي تميّز حديثه الذي يتحدد على نمط معلوم ومعيّن.

ومن هذا المنطلق فإن أسلوب القرآن مخالف تماما لاسلوب الحديث. فانهما كليهما لا يستويان من حيث المستوى والأسلوب ومن حيث الروعة والجلال ومن حيث المذاق والطابع ومن حيث الرصانة والإشراقة. وفي ذلك كله فان القرآن له طابعه المتميز الذي لا يساويه فيه أي كلام. وهو طابع تتقاطر منه أنداء الإعجاز وتفوح منه ريح شذيّة عبقة تأخذ القلب والوجدان وتشْده الحس والذهن شدهاً.

أما الحديث فهو بَشريّ الأسلوب ويفترق عن أسلوب القرآن افتراقا لا يحده حد. وهو أسلوب تتسرب منه سمات الطابع البشري المحدود بما يقطع في يقين غليظ أن القرآن والحديث مفترقان من حيث الأسلوب وأنهما ليسا على نمط موحد من المرتبة والمستوى أو الكيفية والنوع.

ويضاف إلى ذلك كله ما ورد في القرآن من آيات تحمل ألوانا من العتاب الشديد القارع أو اللوم المؤثّر الحاني، أو التهديد والوعيد في صورة تزلزل الكيان وترعب الحس والجنان كقوله تعالى: « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين ». وقوله تعالى: « ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا. إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ». فإنه بمثل هذا الأسلوب المريع وهذه الكلمات المخوفة ما يحمل على القطع الكامل بأن القرآن من عند الله وأنه ليس من صنع محمد ﷺ.

القــرآن قائــم يتحــدّى

منذ أن نزل القرآن وهو يتحدى الناس ـ والعرب خاصة ـ أن يأتوا بمثله أو شيء منه. وقد جاء التحدي على ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: تحداهم أن يأتوا بمثله كله مجتمعا. يقول سبحانه في ذلك: « أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ».[1]

(١) سورة الطور الآية ٣٤.

ويقول أيضا: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا».[1]

المرحلة الثانية: تحدّاهم القرآن أن يأتوا بعشر سور من مثل سوره فقال سبحانه: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشرِ سورٍ مثِله مفتريات وادْعُوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون».[2]

المرحلة الثالثة: تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سور القرآن أيا كانت هذه السورة، قصيرة أو طويلة. مكية كانت أو مدنية. فقال سبحانه «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين».[3]

ويقول أيضاً: «أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.[4]

هكذا تحدى الله عباده بالقرآن أن يأتوا بمثله أو بشطر منه أو سورة وذلك عبر مراحل ثلاث من التحدي المتكرر بدءاً بمثله كله وانتهاء بسورة واحدةٍ أيا كانت هذه السورة حتى سورة الكوثر وهي أقصر سورة في القرآن الكريم. ومازال التحدي قائما منذ نزول القرآن حتى أيامنا هذه ثم يمتد التحدي مستمراً أبد الدهر ولا يستطيع أحد من البشر أن يصطنع من مثل القرآن شيئا.

ولئن كان العرب الأوائل وهم الفصحاء والبلغاء وفيهم جهابذة البيان ومصاقع الخطابة قد نكصوا على أعقابهم لما سمعوا القرآن يتحداهم فإن

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨٨.
(٢) سورة هود الآية ١٣، ١٤.
(٣) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤.
(٤) سورة يونس الآية ٣٨.

الخَلَف ممن جاءوا من بعدهم لأشد عجزاً ونكوصاً عن الاقتدار على المعارضة أو مواجهة التحدي.

وجدير بالبيان أن نتذكر حاجة العرب المشركين اللحّاحة لمعارضة القرآن وايقاف تحديه حفاظاً على مكانتهم بين الناس وتخصّ بالذات قريشا لما فيها من صناديد الفخر والوجاهة ولما فيهم من مشاهير البيان واللسان. فكانوا لدى تحدي القرآن لهم في أمس الحاجة لمعارضة القرآن واسكات تحديه المستطير. وقد ألقوا بكل ما في المستطاع من مجهود فبذلوا المحاولات في المجاراة والمحاكاة حتى أيقنوا أنهم فاشلون خاسرون. وأصدق دليل على ذلك ما قاله أحد عباقرة البيان في زمن الفصاحة والخطابة وهو الوليد ابن المغيرة «والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وانه ليعلو ولا يعلى سمعت قولا يأخذ القلوب».

وبعد هذا الإفلاس المطبق من العرب لدى مواجهتهم للتحدي لم يجدوا بُداً من امتشاق السلاح والنزول في معركة تُهراق فيها الدماء.

يقول الجاحظ في هذا الصدد: بعث الله محمدا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحا ومساء الى أن يعارضوه بسورة واحدة أو بآيات يسيرة. فكلما ازدادوا تحدّياً بها وتقريعاً لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستورا وظهر منه ما كان خفيا.

التفسير

نتناول في هذا الموضوع بالبحث والاستقصاء كلا من التفسير من حيث معناه في اللغة ومعناه في الإصطلاح. ثم الفرق بينه وبين التأويل ثم مصادر التفسير وهي الأمهات التي يتلقى عنها طالب التفسير مراده. ثم أقسام التفسير كما بينها ابن عباس. ثم أنواع التفسير فيما يتراوح بين المشروع والمردود. ثم طبقات المفسّرين في مختلف العصور.

التفسير

معناه في اللغة التبيين والإظهار والكشف. فهو كشف المغلق المراد باللفظ.

يقال: فسّرت الشيء تفسيرا أو فسرا أي كشفت عن المراد به. وقيل: التفسير مقلوب من سفر. بفتح السين والفاء بمعنى الكشف. ومنه سفرت المرأة عن وجهها إذا ألقت عنه الخمار. ونقول أسفر الصبح أي انكشف وأضاء. وفي قوله تعالى: «والصبح اذا أسفر» أي اتّضح وأشرق واستبان.

أما معناه في الاصطلاح فهو: العلم المتعلق بالقرآن من حيث الكشف عن أسباب نزول آياته وعن محكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وخاصه وعامه ومطلقه ومقيده ومجمله ومفسره، وعن حلاله وحرامه وقَصَصِهِ وأخباره وروائعه وأمثاله.

التأويل

أصله في اللغة من الأوْل. بسكون الواو وهو من الفعل آل يؤول أي رجع يرجع والمآل والإيال وكلاهما اسمان بمعنى المرجع أو العاقبة أو المصير، وكذلك الموئل وهو المرجع وقوله تعالى: «يوم يأتي تأويله» أي عاقبته. وقوله: «ذلك تأويل ما لم تسْطع عليه صبرا».

والتأويل في الاصطلاح هو حرف الآية الى ما تحتمله من المعاني[1] ويمكن

(١) البرهان جـ١ ص١٤٨ وقاموس المصباح المنير.

توضيح ذلك لدى التفريق بين التفسير والتأويل في الفقرة التالية.

الفرق بين التفسير والتأويل

نستطيع أن نجمل الفرق بين كل من التفسير والتأويل على نحو ما ذكره العلماء في هذا المجال وذلك في البيان الآتي:

أولا: ثمة قول بأن التأويل أكثر ما يكون استعماله في المعاني كتأويل الرؤيا وكذلك في الجمل لا المفردات. وموطن استعمال التأويل غالبا ما يكون في المسائل الالهية التي يكثر فيها الإبهام بما يضطر العالم لبذل الجهد في الكشف عن المعنى المراد.

أما التفسير فيراد به كشف المقصود من اللفظ. فهو بذلك أعم من التأويل وأكثر شمولا. فالتفسير أكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وهو غير قاصر على المسائل الإلهية من حيث الاستعمال كالتأويل، ولكن يستعمل في غيرها أيضا.

وبتعبير آخر فان المقصود بالتفسير الكشف عن معاني القرآن وبيان مراده وذلك في كل الأحوال. وذلك أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل كما قال الأصبهاني في تفسيره.

ثانيا: وقيل إن التفسير متعلق ببيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً. أما التأويل فهو متعلق باختيار معنى واحد من معان مختلفة يحتملها اللفظ وذلك بالنظر لما يظهر من الأدلّة التي تعزز مثل هذا الاختيار.

ثالثا: وهو للماتريدي اذ قال: التفسير معناه القطع على أن المراد من اللفظ كذا وأن يشهد المفسّر على الله أن مراده (الله) باللفظ كذا. ويقول الماتريدي بعد ذلك لئن قام دليل قطعي على ما يقوله المفسر بأن تفسيره صحيح، فذاك من قبيل التفسير بالمأثور. واذا لم يكن ثمة دليل قطعي على ذلك، فذاك هو التفسير بالرأي وهو منهيّ عنه. أما التأويل فهو ترجيح أحد المحتملات من غير قطع أو شهادة على الله.

رابعا: وهو لأبي طالب الثعلبي إذ قال: التفسير هو بيان وضع اللفظ إما على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز. وذلك كالذي يفسر الصراط بالطريق، والصيّب بالمطر.

أما التأويل فهو تفسير باطن اللفظ بما يعني الرجوع لعاقبة الأمر، فهو إخبار عن حقيقة المراد خلافا للتفسير الذي هو اخبار عن دليل المراد. ودليل المراد هو اللفظ الكاشف عن نفس المراد. ومثال ذلك قوله تعالى: «ان ربك لبالمرصاد» وتفسيره أنه من الرصد وهو المراقبة. أما تأويله فهو التحذير من التهاون بأمر الله والإعراض عن شركه.

خامسا: قيل إن التفسير يتعلق بالرواية،أما التأويل فإنه يتعلق بالدراية. بمعنى أن التفسير قاصر على الإتّباع والسماع. لكن التأويل منوط بالاستنباط والاجتهاد. حتى قال بعضهم إن ما وقع واضحاً في كتاب الله ومعيناً في السنة الصحيحة فهو تفسير وذلك بالنظر لظهور معناه ووضوحه. وما كان كذلك فلا يجوز التعرض له باجتهاد بل ينبغي حمله على المعنى الوارد من غير تجاوز. أما التأويل فإنه ما استنبطه العلماء من معاني الخطاب بعد الاجتهاد وإعمال النظر.

سادسا: وهو قول أبي القاسم النيسابوري وآخرين إذ ذهبوا الى أن التأويل هو صرف الآية الى معنى موافق لما قبلها وما بعدها بحيث تحتمله الآية على ألا يكون ذلك مخالفا للكتاب والسنّة وضربوا لذلك مثلا من قوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» فقالوا إن ذلك فيمن يحمل في الحرب على خلْقٍ من الاعداء كثيرين، أو الذي يقنط من رحمة الله، أو الذي يبخل عن النفقة وهو قادر عليها، أو الذي يتصدق بجميع ماله ثم يبيت بغير مال فيتكفف الناس. فإن كلاً من هذه الحالات تعتبر بمفردها إلقاءً للنفس الى التهلكة، حتى يمكن القول بامكان احتمال الآية لهذه المعاني. وكذلك قوله تعالى في الدعوة

الى الغزو ومحاربة المعتدين عند قيام النفير العام: « انفروا خفافا وثقالا » فقد قيل: ذلك يعني أغنياء وفقراء، وفي قول ثان عِزاباً ومتزوجين، وفي ثالث مرضىً وأصحّاء، وفي رابع رجالاً ونساء، وفي خامس شباناً وشيبا. فكل هذه المعاني تحتمله الآية بما تتضمنه من دعوة للنفير العام « خفافاً وثقالاً ».

وكذلك قوله تعالى: « ويمنعون الماعون » فان ذلك يحتمل منع كل من الماء أو الدلو أو الكلأ أو النار أو المغرفة أو الكوب أو الدابة عن الذي يطلب شيئا من ذلك محتاجا إليه.

قال بعضهم إن في القرآن ثلاث آيات، في كل آية منها مائة قول. وهي قوله تعالى: « فاذكروني أذكركم » وقوله: « وان عدتم عدنا » وقوله: « هل جزاء الاحسان الا الاحسان ». هذه الآيات وأمثالها موطن تأويل حيث يمكن صرف الآية الى معنى مناسب يوافق ما قبلها وما بعدها من غير مخالفة لنصٍ في الكتاب أو السنّة.

أما التأويل الفاسد فهو ما كان مخالفاً لشرع الله. كالذي ذهب إليه الروافض وهم فرقة من الجهلة المضلّلين. فقد قالوا في قوله تعالى: « مرج البحرين يلتقيان » إن المقصود بالبحرين في الآية هما عليّ وفاطمة.

وقالوا في قوله تعالى: « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » إن المقصود هما الحسن والحسين.

وقالوا كذلك في قوله تعالى: « وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » هو معاوية بن أبي سفيان. ومثل هذا التفسير فاسد لاستناده إلى الهوى.

مصـــادر التفســـير

نعرض الآن لجملة مصادر يعوَّل عليها من أجل فهم القرآن وتفسيره وهذه المصادر التي نبتغي التحدث عنها هي:

المصدر الأول: القرآن نفسه، فهو خير طريق لتبيين نفسه بنفسه. وقد قيل أحسن طريق للتفسير أن يفسّر القرآن بالقرآن. فما أُجْمِلَ في مكان فُصِّل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في مكان آخر[1]. وهكذا فإن القرآن كثيرا ما يفسّر بعضه بعضاً ليكون بذلك أصدق وأجلى مصدر يستفيد منه العلماء ما يراد من كثير من الآيات، يستوي في ذلك أن يكون التفسير واردا على سبيل التخصيص للعام أو التقييد للمطلق أو لتبيين المجمل وغير ذلك من وجوه التفسير. ولنضع لذلك بعض الأمثلة.

المثال الأول: قوله تعالى «والذين يُتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا»[2] ذلك نص عام في الزوجات الحوامل والحوائل فإن عليهن بموجب هذا العموم أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا حال وفاة أزواجهن. لكن هذا العموم مخصص بقوله تعالى: «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن»[3] فقد خرج من عموم النص الأول الزوجات الحوامل اذا وضعن، فإنهن بالوضع تنتهي عدّتهن. فأيّما زوجة حامل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فإن موعد انتهاء العدّة بالنسبة لها هو الوضع. فاذا وضعت انتهت عدّتها.

المثال الثاني: «والمطلّقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»[4] ذلك عامّ في النساء اللواتي يقع عليهن الطلاق فإن عليهن الاعتداد. لكن هذا العموم قد خصّص بقوله تعالى: «إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهن من قبل أن تمسّوهن فما لكم عليهن من عدّة تعتدّونها»[5] فالنساء المطلّقات من قبل المسيس ليس عليهن عدّة.

المثال الثالث: وهو في حمل المطلق على المقيّد. فالمطلق هو ما دلّ على فرد

---

(١) البرهان جـ٢ ص ١٧٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤.
(٣) سورة الطلاق الآية ٤.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٨.
(٥) سورة الأحزاب الآية ٤٩.

أو أفراد شائعة بدون قيد مستقل لفظا[1] . أما المقيّد فهو ما دلّ على فرد أو أفراد شائعة بقيد مستقل لفظا . ومثال النص القرآنيّ المطلق قوله تعالى:« قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّما على طاعمٍ يَطعَمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس »[2] وهو نص يفيد الإطلاق بما يدلّ على اباحة ما سوى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير . لكن ذلك قد قيّد بقوله تعالى:« حرّمت عليكم الميتةُ والدّمُ ولحمُ الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقةُ والموقوذةُ والمتردّيةُ والنطيحةُ وما أكل السبعُ الا ما ذكّيتم وما ذُبح على النّصُب »[3] وبذلك قد خرجت من إطلاق الإباحة جملة محرّمات بينتها الآية الثانية .

المثال الرابع: وهو مما ورد في القرآن مجملا ثم تبيّن واتّضح من خلال نص أو نصوص أخرى . وذلك كالذي جاء في الحج على صورة إجمال غير مبين وهو قوله سبحانه: « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا »[4] فإنه لا يفهم هنا غير فرضية الحج على من يستطيع الى ذلك سبيلا . لكن هذا النص المجمل قد فسّر واتضح عن طريق آيات أخريات نزلن في أمر الحج . قال سبحانه: « وأذّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيّامٍ معلومات على ما زرقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق »[5] . وقوله: « وأتمّوا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهديُ محِلّه فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففديةٌ من صيام أو صدقةٍ أو نُسُك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجّ وسبعةٍ اذا رجعتم تلك عَشَرةٌ كاملة

(١) أصول الفقه ص ١٩١ للشيخ محمد الخضري .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٥ .
(٣) سورة المائدة الآية ٣ .
(٤) سورة آل عمران آية ٩٧ .
(٥) سورة الحج الآية ٢٧ .

ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتّقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب »[1]. وكذلك الآيات التي بعدها والتي تبيّن ما أجمله النص السابق الأول في الحج.

المثال الخامس: قوله تعالى: « هل أتاك حديث الغاشية » فإن الغاشية يفسّرها ما بعدها من كلام وذلك في قوله تعالى: « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة. تَصلى ناراً حامية. تُسقى من عين آنية ». ومثل هذه الأحداث تقع يوم القيامة إذْ تغشى الناسَ غاشيةٌ من الأهوال والشدائد. وبذلك فإن الأحداث والوقائع المذكورة بعد الغاشية لهي المفسرة لهذه الغاشية.

المثال السادس: قوله تعالى: « ويل للمطفّفين. الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون. واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[2] فما جاء بعد المطفّفين يعتبر تفسيرا لهذا الاصطلاح « المطفّفين » فهم الذين يأخذون حقهم وافياً عند الاكتيال ، لكنهم اذا كالوا غيرهم أو وزنوهم وزناً فانهم يبخسونهم بعض حقهم بخسا وإنقاصاً.

المثال السابع: « القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش ». فهذه الآيات مبدوءة باصطلاح عظيم يتضمّن معنى عظيما. وهو اصطلاح لا جرم أن يلفت النظر ويثير الدهش والتساؤل ويبعث على العجب والحيرة. حتى إن السامع اذ تصخّه مطرقة هذا الاصطلاح المؤثر الضخم فانه يبادر السؤال من غير وناء عن حقيقة هذا الاصطلاح « القارعة » وما بعده من كلام لهو تفسير له وموضّح وهو تبيين لحقيقة المقصود وهي القيامة التي تجتمع فيها الخلائق الكثيرة المنتشرة كالفراش. وكذلك فإن الجبال تسير سيراً كالغمام كأنما هي الصوف المنفوش.

المثال الثامن: قوله تعالى: « إن الانسان خُلِقَ هلوعاً . اذا مسه الشر جزوعا.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٦.

(٢) سورة المطففين الآيات ١ ـ ٣

واذا مسّه الخير منوعاً»[1]. فان المراد بالهلوع يفسره ما بعده وهو الذي يجزع لدى اصابته بالشر، ثم يمسك عن الخير شحّاً اذا أصابه طيف من النعمة والخير.

المثال التاسع: قوله تعالى: «الله لا اله الا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم»[2]. فقد قال البيهقي: ان قوله: «لا تأخذه سنة ولا نوم» تفسير للقيّوم.

المثال العاشر: قوله تعالى: «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب»[3] قيل ان قوله: «خلقه من تراب» تفسير للمثل المسند الى عيسى.

المصدر الثاني: السنّة. وذلك أعظم المصادر التي يحتاج اليها طالب التفسير ليتمكن من الوقوف على معاني الآيات والسور وما تحمله من مقاصد وأحكام في جميع جوانب الاسلام. سواء في ذلك العقيدة من حيث أركانها وأجزاؤها وتفصيلاتها، أو التشريع بكل أفرعه وما ينطوي عليه من مناحي ومسائل وقضايا. وتلك أمور لا جرم أن تكون عظيمة وكبيرة وأن تكون واسعة شاملة، لكنها وردت في القرآن على نحو من العموم والشمول أو الايجاز والإجمال الا في بعض المواقف.

وبناء على ذلك فان حاجة القرآن للسنّة أمر لا مفر منه وحقيقة لا تقبل النكران أو الجدال. والنبيّ ﷺ في هذه القضية أصلا مخوّل من ربه تخويلا أن يكشف للأمة عن مقاصد القرآن وعما يحتويه من معانٍ في مختلف الجوانب والقضايا. فهو عليه الصلاة والسلام قد نيط به أن يوضح القرآن فيكشف عن معناه ويفسر محتواه ويبين ما ورد فيه من إجمال وذلك من خلال أحاديثه الكثيرة المبسوطة التي تنتشر لتتناول كل القضايا التي تناولها القرآن بإيجاز أو إجمال. وفي هذه المهمة العظيمة الجليلة للنبيّ عليه السلام يقول الله سبحانه: «وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل اليهم»[4]. ويقول جلّت قدرته:

(١) سورة المعارج الآيات ٢٠ - ٢٣.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٣) سورة آل عمران الآية ٥٩.
(٤) سورة النحل الآية ٤٤.

«فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»[1] والضمير في «أمره» يعود على الرسول عليه السلام.

يقول تباركت أسماؤه «وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم».[2]

ويقول عزّ من قائل: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»[3] وفي صدد هذه الآية ذكر ابن عبدالبر عن عبدالرحمن بن يزيد أنه رأى مُحرِماً عليه ثيابه فنهى المحرم عن ذلك. فقال المحرم: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي. فقرأ عليه عبدالرحمن: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا». وذكر عن طاووس أنه كان يصلّي ركعتين بعد العصر فقال له ابن عبّاس: اتركهما. فقال طاووس: انما نهي عنهما أن تُتّخذا سنّة. فقال ابن عبّاس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاة بعد العصر فلا أدري أتعذّب عليهما أم تؤجر لان الله تعالى قال: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيرَةُ من أمرهم»[4].

وروى أبو داود في سننه أن النبيّ ﷺ قال: «ألا واني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يُقْروه فان لم يُقْروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه».

والمقصود بقوله: «ومثله معه» السنّة، فقد أوتيها النبيّ ﷺ وحياً، بمعنى أن ما اشتملت عليه السنّة من المعاني قد وردت عن طريق الوحي. وعلى هذا فان القرآن والسنّة كليهما وحي لكن القرآن كلام الله المعجز، أما السنّة فهي مجموع ما ورد عن النبيّ من أقوال وغيرها. وهي أقوال لا تتّسم باعجاز كما

(١) سورة النور الآية ٦٣.
(٢) سورة الشورى الآية ٥٢.
(٣) سورة الحشر الآية ٧.
(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٦.

بيّنا لأنها يتجلى فيها الطابع البشري.

فالحقيقة التي ينبغي ألاّ تبرح الذهن أو البال أن السنّة النبوية موضحة لكتاب الله ومفسرة لما جاء فيه من إجمال. ويتجلى ذلك في قوله سبحانه: «وأقيموا الصلاة» فإن هذا مجمل لا يفهم منه الا مجرد فرضية الصلاة من غير وقوف على مقتضيات الصلاة من شرائط وأركان وذلك كالطهارة والقراءة والقيام والركوع والسجود والتسليم وغير ذلك من متطلبات. وهي مسائل لم يتعرّض لها النص أدنى تعرّض ولكنها يمكن ادراكها عن طريق السنّة. وفي ذلك يقول النبيّ ﷺ: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» مثلما يبيّن الرسول الكريم كل ما يتعلق بفريضة الزكاة كأمور النّصاب والذين يلتزمون بأداء الزكاة من المالكين وكذلك مقادير الزكاة المفروضة في مختلف الأحوال.

وهكذا بقية الأمور والقضايا التي أوردها القرآن في إجمال ثم تولت السنّة توضيح هذا الإجمال. فإنه لولا السنّة لظل القرآن في كثير من آياته غير مبين بحيث يعز على العقول أن تعي حقيقة المراد بالنصوص القرآنية المجملة. فقد ورد في هذا الصدد عن الصحابي عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسّرا؟! ان كتاب الله تعالى أبهم هذا وان السنّة تفسّر هذا.

وعن حاجة القرآن لتبيين السنة قال مكحول: القرآن أحوج الى السنّة من السنّة الى القرآن.

ونود أن نضيف الى ما ذكرناه أن السنّة لا تقتصر على مهمة التبيين للقرآن، بل انها تحمل أحكاما زائدة على القرآن وذلك مثل تحريم نكاح المرأة على عمّتها أو بنت أخيها، أو المرأة على خالتها أو بنت أختها. ثم تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السّباع، وكذلك القضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك من أحكام.

المصدر الثالث: أقوال الصحابة. فقد ذهب بعض أهل العلم الى أن قول

الصحابي في التفسير يعتبر في منزلة المرفوع الى النبيّ ﷺ . وذلك الذي نقله الحاكم في المستدرك مع أن آخرين قد خالفوه في ذلك قائلين بخصوص الرفع فيما فيه سبب النزول. وما سوى ذلك فهو من باب الرأي لا الرواية أو الرفع للنبيّ ﷺ . ونستطيع في ذلك أن نرجح القول الاول وهو أن تفسير الصحابي يعتبر رواية لا رأيا. ذلك أن طبقة الصحابي أعظم دراية وأصدق نظرا في مسائل الدين والقرآن من غيرهم. فهم الذين عاينوا هبوط الوحي ونهلوا من معين الرسول الصافي وعاشوا أصدق فترات الزمان وهي فترة النبوة الميمونة، فضلا عن تزكية النبيّ ﷺ لهم.

وفي مقالة عن عبدالله بن مسعود ما يدل على مبلغ الثقة العظيمة بالنفس واليقين الجازم بصدق العزيمة والقصد وغزارة العلم والمعرفة خصوصا بكتاب الله سبحانه. فهو رضي الله عنه يقول: « والذي لا اله الا هو ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته ».

على أن أعظم المفسرين من الصحابة: عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم عبدالله بن عباس وهو ترجمان القرآن. ومع أن ابن عباس قد أخذ العلم عن عليّ الا أن ما حفظ عنه من علوم القرآن كان أكثر مما حفظ عن عليّ. ويتلو هذين الامامين العظيمين في التفسير عبدالله بن عمرو بن العاص ثم آخرون غيرهم وجميعهم أبرار أجلّاء عُنوا بالغ العناية بالحفاظ على كتاب الله ووعيه ونشر ما فيه من معان وعلوم.

ثم جاء التابعون من بعدهم فأخذوا عنهم التفسير ليعلموه الناس ولينشروا دعوة الله في الارض. ومن بين التابعين المشهورين الذين برزوا في التفسير أخذاً عن الصحابة الاخيار كل من: الضحّاك، سعيد بن جبير، مجاهد، قتادة، الحسن البصري، عطاء الخراساني، محمد بن كعب القرظي، اسماعيل السُّدي، عكرمة مولى ابن عباس، عطية الصوفي، عطاء بن أبي رباح وآخرون غيرهم. لكن أبرزهم جميعا هم: الحسن البصري، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحّاك.

المصدر الرابع: الأخذ بمطلق اللغة. فان القرآن نزل بلسان العرب. قال سبحانه: «نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين»[1]. وبذلك فإن الاحاطة بلغة العرب في أضرُبها وفنونها وتفصيلاتها لهي ضرورة من ضرورات الاقتدار على تفسير القرآن. وقد روى البيهقي في سننه عن مالك بن أنس أنه قال في هذا الصدد: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله الا جعلته نكالا».

على أنه ينبغي الاخذ ببعض التحفظ من اطلاق الاخذ باللغة. لان مثل هذا الاطلاق كثيرا ما يقود الى شطط في الفهم والمآل. وذلك اذا كان الاخذ باطلاق اللغة يصرف الآية عن ظاهرها الى معان خارجة محتملة لا يدل عليها الا القليل من كلام العرب مما لا يوجد في الغالب الا في الشعر.

المصدر الخامس: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع[2] أي أن يستند المفسر في تفسيره للقرآن الى ما يقتضيه معنى الكلام مما هو مبنيّ على قوّة الشرع. والاقتضاب معناه الاقتطاع. والمراد بالتعبير عن هذا المصدر هو أن يستند المفسر الى ما يؤتاه من فهم ذاتي في القرآن على سبيل القدرة الحسّية الموهوبة بتوفيق الله سبحانه. وذلك ما دعا به النبيّ ﷺ لابن عباس بقوله: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل» وقد كان الدعاء مستجابا بما امتنّ الله به على ابن عباس من قدرة على التفهم والاستنباط، ومن ملكة نفّاذة عجيبة في كشف المقاصد واستخراج المعاني التي تحتملها كلمات القرآن وآياته.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن المراد هو التفسير بالرأي على اطلاقه. فان التفسير بمجرد الرأي لا يجوز الا أن يكون ذلك مستندا الى أصل من الاصول المعتمدة لدى القيام بالتفسير. يقول الله في ذلك: «ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم». وقال عز وجل على سبيل النهي والتحذير: «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون». ويقول سبحانه: «لتُبَيِّنَ لناس ما نُزِّلَ إليهم» أضاف البيان الى

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ - ١٩٥.

(٢) البرهان جـ١ ص ١٦١.

النبيّ فهو عليه الصلاة والسلام قد نيطت به قضية تبيين القرآن وتفسيره للناس. ومن جيد الكلام ما قيل: «للقرآن نزول وتنزّل، فالنزول قد مضى والتنزّل باق الى قيام الساعة»[1].

أقسام التفسير

ذكر عن ابن عباس أن التفسير أربعة أقسام نبيّنها في شيء من التفصيل.

القسم الأول: ما تعرفه العرب من كلامها. وهو الذي يكون الرجوع فيه الى لسان العرب. وعلى ذلك فما كان من التفسير راجعا الى هذا القسم فليس على المفسر حينئذ الا أن يعوّل في تفسيره على ما جاء في كلام العرب على أن يكون المفسر ضليعا في البيان وعالما بحقائق اللغة وتفصيلاتها. ولا يكفي لمن يبتغي التفسير أن يتعلم يسيرا من اللغة وإلا كان عرضة للزلل بما يوقع في الضلال والإثم.

القسم الثاني: ما لا يعذر واحد بجهله وهو ما تتبادر الأفهام الى معرفته بمجرد الاطلاع على النصوص المتضمنة للأحكام والمعاني سواء كان ذلك متعلقا بأمور الشرع أو التوحيد. ومثل هذا القسم لهو من الوضوح وعدم التلبيس بحيث يتسنى لكل مطلع فهمه وادراكه دون عناء أو صعوبة. والمرء اذا سمع قول الله تعالى «فاعلم أنه لا اله الا الله» يدرك على الفور حقيقة التوحيد التي يتضمنها هذا النص وأن الله جلّت قدرته أحدٌ صمد منزه عن الشرك. ولا يشترط لتمام المسؤولية هنا أن يكون القارىء أو السامع لهذا النص عالما بأن «لا» تعرب نافية و «إلّا» تفيد الحصر.

وكذلك فان كل قارىء أو سامع لقوله تعالى: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» يدرك أن هذا النص يفيد الوجوب لكل من الصلاة والزكاة فان مثل هذه المفاهيم التي تتضمنها مثل هذه النصوص الواضحة المستبينة لهي من الامور المعلومة للقارىء أو السامع بالضرورة فليس لمعتذر بجهلها حجة أو برهان.

---

(١) البرهان جـ١ ص ١٦١.

القسم الثالث: ما لا يعلمه الا الله تعالى. وهو ما كان محتسبا في عداد الغيب أو في عداد المشكل الذي لا يقف على حقيقته ومضمونه أحد من الناس. وذلك كالآيات التي تضمنت ذكر كل من الروح أو قيام الساعة أو نزول الغيث أو عِدّة الفتية المؤمنين الذين لجأوا الى الكهف أو تعيين ليلة القدر من شهر رمضان بالتحديد، وكذلك الحروف الهجائية التي تأتي فواتح لبعض السور القرآنية مثل: ألم، ألر، طسم، حم عسق، وغير ذلك من فواتح مما يحتسب في عداد المتشابه الذي لا يدري حقيقة معناه سوى الله. وكل محاولة لتأويل ذلك لا تعدو سبيل الظن الذي لا تركن اليه النفس. فان مثل هذه الآيات لا مساغ لمفسر أن يتكلف الخوض فيها ليقف على المقصود. فانه لا سبيل الى هذا الوقوف الا بنص من كتاب أو سنّة أو أن يرد في ذلك اجماع. وان لم يكن شيء من ذلك فلا مندوحة عن الانصراف عن تفسير هذه الآيات والاعتقاد بأن ذلك مما استأثر الله بعلمه.

القسم الرابع: ما يعلمه العلماء ويرجع الى اجتهادهم. وهو الذي يغلب عليه اطلاق التأويل. أي صرف اللفظ الى ما يؤول اليه، وذلك يعني استنباط الاحكام وبيان المجمل وتخصيص العام وتقييد المطلق وادراك صيغة كل من المحكم والمتشابه والحقيقة والمجاز والصريح والكناية. وكذلك أن يحتمل اللفظ معنيين أو أكثر، فإن ترجيح أحدهما لا يسوغ لغير العالم المجتهد، وهو الذي لا يميل لاعتماد معنى من المعاني المحتملة بدافع من مجرد الرأي الا أن يكون في ذلك مستندا الى دليل.

العلوم التي يحتاج اليها المفسر

يذكر العلماء جملة علوم يحتاج اليها المفسر ليكون مشروعا له الإقدام على هذه المهمة الكبيرة الخطيرة. وهذه هي العلوم.

أولا: اللغة. وهي سبيل أساسية وعظمى لفهم المفردات والالفاظ القرآنية وما تحتمله من مدلولات. ان العلم باليسير من اللغة لا يكفي لتخويل

أحد بالاضطلاع بمهمة التفسير. فإن هذه مهمة لا تتيسر لغير الضالعين في لسان العرب المتبحرين في علوم البيان. قال مجاهد رحمه الله: لا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب. ومجاهد هو أحد أئمة التفسير بالمأثور وهو في ذلك يذكّر بفداحة التجرّؤ على تفسير كلام الله من غير رصيد من مذخور اللغة والبيان.

ثانيا: النحو: وهو يعتمد الإعراب أساسا. ولا قيام لشأن التفسير اذا لم يكن قائله عالما بقواعد النحو وما يستتبعه ذلك من وجوه الاعراب.

ثالثا: الصرف. وهو عن طريقه يعرف كل من البناء والصيغة للكلمة. لان المفردة الغريبة المبهمة اذا صرفت اتضحت وتبين المراد منها.

رابعا: الاشتقاق. وحاجة المفسر لذلك ضرورية ليتمكن من استخراج المشتقات للكلمة سواء كانت اسما أو فعلا. وفي ضوء هذا الاشتقاق يستطيع المفسر أن يميز بين الالفاظ من حيث المعنى خصوصا اذا كانت الكلمة مشتقة من مادتين مختلفتين مثل «القرآن» ففي قراءة هذه الكلمة قولان أحدهما بالهمز من الفعل قرأ. وثانيهما من غير همز من الفعل قرن. فتكون الكلمة بذلك تحتمل القراءتين وهما: القرآن والقران كما بيّنا سابقا.

خامسا: علوم البلاغة. وذلك كالمعاني والبيان والبديع. وهذه أركان أساسية لمبتغي التفسير كيلا يستطيع التجرّؤ أو الإقدام على الخوض في كلام الله الا أن يكون واعيا لهذه العلوم البلاغية. وهي علوم تمكن العالم المفسر من الوقوف على حقائق الاعجاز في القرآن. وذلك اذا تصوّرنا أن القرآن من حيث الروعة في الاسلوب ومن حيث الرصانة في العبارة ومن حيث الجلال الذي يفيض به لهو غاية الاعجاز. ومثل هذه المعاني التي تتدفق من خلال القرآن في سوره وآياته وكلماته ينبغي ألّا تغيب عن ذهن المفسر وألّا تبارح تصوّره والا كان

المفسّر جاهلا لأخص خصائص الاعجاز في الكتاب الحكيم. أو كان كالمتبلّدين الجهلة الذين يرددون العبارة القرآنية دون ما وعي أو بصيرة أو بغير ادراك أو استفادة. وعلى سبيل المثال قوله تعالى «فأمّه هاوية. وما أدراك ما هيه. نار حامية» آيات مؤثّرة ومصوّرة تحمل فيضاً من التأثير والتصوير وهي تبرز ملامح أم والدة حانية تدنو من ولدها في تشوّق بالغ واقبال شديد لتضفي عليه من عطائها وما تملك. وهكذا الهاوية وهي النـــار الحارقة المستعرة تستقبل الواردين اليها في انتظار متربص ورغبة لحوح لتتغشّاهم بما عندها من التحريق والصّلْي. ومثل هذه الصور البلاغية لا ينبغي ان تغيب عن ذهن المفسر ليزداد وقوفاً على حقيقة الاعجاز في القرآن.

سادسا: أصول الفقه. وهو سبيل العالم المفسر من أجل أن يستنبط الأحكام التفصيلية ومن أجل التعرف على أوجه الاستدلال على الأحكام، وما يقتضيه هذا العلم من معرفة القضايا الاصولية الاخرى مثل المجمل والمفسر، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والمطلق والمقيّد، والعام والخاص.

سابعا: معرفة أسباب النزول. وهذا الضرب من العلم عظيم وهو سبب يقف من خلاله المفسر على الوقائع والمناسبات التي نزلت فيها الآيات أو السور. وتلك سبيل أساسية وكبرى تسعف في التعرف على الاحكام الشرعية او استنباطها خصوصا اذا تصوّرنا القاعدة التي تذهب الى أن العبرة في عموم اللفظ لا في خصوص السبب. وذلك الذي عليه جمهور الاصوليين.

ثامنا: علم القراءات. وذلك من باب الاحاطة لما يترجح من بعض أوجه القراءات على بعض بما قد يؤول الى اختلاف في المعنى أو الحكم.

أنـــواع التفســـير

التفسير نوعان. أحدهما: التفسير بالمأثور.
وثانيهما: التفسير بالرأي.

التفســير بالمأثــور

هو التفسير الذي يعتمد على كل من القرآن نفسه ثم السنّة النبوية وما روي عن الصحابة. وأضيف الى ذلك ما روي عن التابعين وذلك لأخذهم عن الصحابة في غالب ما يقولون.

أما التفسير عن طريق القرآن فمثاله قوله سبحانه: « والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب » فالنجم الثاقب هو تبيين للمقصود من الطارق. ويقول سبحانه في وصف الوحي العظيم جبريل عليه السلام بعد أن ذكر أنه رسول كريم: « إنه لقول رسول كريم. ذي قوّة عند ذي العرش مَكين. مُطاع ثَمَّ أمين »[1] فهو عليه السلام ذو قوّة وتمكين. وهو كذلك تطيعه الملائكة الأطهار لأنه وحي الله المؤتمن.

وأما التفسير عن طريق السنّة النبوية فمثاله: أن النبيّ ﷺ قد فسّر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم »[2] وهو عليه السلام يستند في تفسيره هذا الى قوله تعالى: « إن الشرك لظلم عظيم »[3]. وكذلك قد فسّر النبيّ ﷺ الحساب اليسير بالعرض. بسكون الراء وذلك في قوله « من نوقش الحساب عذّب » حتى سألته عائشة: أوليس قد قال الله تعالى: « فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا »[4] فقال النبيّ ﷺ

---

(١) سورة التكوير الآيات ١٩ - ٢١.
(٢) سورة الأنعام الآية ٨٢.
(٣) سورة لقمان الآية ١٣.
(٤) سورة الانشقاق الآية ٨.

« ذلك العرض » وذلك بيان للمقصود بالحساب اليسير. وقد بيّنا في حينه أن النبيّ ﷺ مخوّل بتبيين القرآن وتوضيحه للناس. وفي هذا يقول سبحانه: « وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزل إليهم ».

وأمّا دَور الصحابة في تفسير القرآن فهو معروف. ذلك أن الصحابة الكرام قد تلقّوا علوم القرآن سواء في ذلك التفسير أم غيره عن الرسول ﷺ. وفي ذلك يقول الحاكم في المستدرك: إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع. وهذه المقولة من الحاكم مطلقة. لكن بعض العلماء قد قيّدوا إطلاقها بما كان متعلّقا ببيان أسباب النزول مما لا قيمة للاجتهاد فيه.

قال ابن تيمية شيخ الاسلام: يجب أن يُعْلَم أن النبيّ ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه.

ونقل ابن تيمية عن أبي عبدالرحمن السلمي قوله: حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفّان وعبدالله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا اذا تعلموا من النبيّ ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

أما التابعون. فان ما نقل عنهم لهو موضع خلاف العلماء. فقد ذهب بعضهم إلى أن قولهم في التفسير يعتبر من المأثور نظراً لأخذهم ذلك عن الصحابة. وذهب آخرون الى أنه من التفسير بالرأي.

ومما يجدر ذكره هنا أن بعض التابعين أخذوا تفسيرهم كله عن الصحابة. فقد ذكر عن مجاهد قوله: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته الى خاتمته أستوقفه عند كل آية وأسأله عنها.

التفسير بالرأي

وهو ضربان:

الضرب الأول: ما كان قائما على الدليل أو مستندا الى برهان. كأن يرجع

المفسر الى أهل اللغة في توضيح الالفاظ القرآنية، أو أن يرجع الى اخبار الصحابة فيما يتعلق بناسخ القرآن ومنسوخه وسبب نزوله. فان الاصل في بيان القرآن راجع الى المشرّع نفسه حتى اذا لم يكن في تبيين المشرّع كفاية فلا بد حينئذ من الرجوع الى أهل العلم من أجل أن يستدلّوا بما ورد بيانه على ما لم يرد بيانه شريطة أن يكون أهل العلم أكفاء في المعرفة بلسان العرب من حيث اعرابه واشتقاقه وصرفه وما فيه من علوم البلاغة. وأن يكون على دراية وافية بأخبار الصحابة في هذا الشأن.

أدلّة هذا الضرب: يمكن الاستدلال على جواز هذا الضرب من التفسير بالرأي بالأدلّة التالية:

قوله تعالى: «أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها» وذلك تحضيض مؤثّر على تدبّر القرآن والاستفادة من معانيه وأحكامه. وهو خطاب للناس في كل زمان أن يتفكّروا في كلمات الله فيستنبطوا منها العلوم على اختلافها وتعدّدها. واذا لم يكن الا الاعتماد على المنقول من الرواية دون غيره فثمة مندوحة عن التدبر وإعمال التفكير.

وقوله: «ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكِر»[1] الادّكار هو الذكرى والاتّعاظ. فهو سبحانه وتعالى يأمر بالاتّعاظ بالقرآن والاستفادة منه بعد أن جعله للناس واضحاً ميسوراً يسهل على ذوي الألباب والعارفين باللسان أن يقفوا على أخباره وحقائقه.

وقوله: «ولو ردّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم»[2]. وأهل الاستنباط من القرآن هم العلماء الذين ناطهم الله بمهمة الاجتهاد واستخراج الاحكام والمعاني والعبر. وليس الاستنباط هنا وقفاً على أمّة من المسلمين في زمان معيّن ولكنه يفيد العموم ليشمل العلماء في كل زمان استناداً إلى أن العبرة في اللفظ بعموم المعنى.

---

(١) سورة القمر الآية ١٧.

(٢) سورة النساء الآية ٨٣.

وقوله: « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »[1]. فقد أنزل الله الكتاب الحكيم ليتفكر فيه أهل العلم وذوو البصائر والنُّهى. والمراد من ذلك هو التفسير بالرأي الذي يضطلع به المختصون من أولي العلم والألباب كما هو مبيّن في الآية.

ومن الأدلّة كذلك دعاء النبيّ ﷺ لابن عبّاس بقوله: « اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل » والتّفقّه من الفقه وهو العلم بالأحكام الشرعية التفصيلية من أدلّتها. أما التأويل فهو متعلق بالقرآن من حيث التعرّف على مقاصده ومدلولاته. وذلك فهم يؤتاه الراسخون في العلم والمجدّون في طلب المعاني التي تنطوي عليها ألفاظ القرآن. وهو فهم يتحصل للعالم عن طريق الجد في مواصلة الدرس والاطّلاع يضاف الى ذلك ما يمنّ الله به على العبد المؤمن العازم من توفيق وهداية وترشيد وحكمة.

الضرب الثاني: وهو ما كان مستندا الى هوى من الأهواء، كأن تكون سياسية أو مذهبية أو شخصية وهو تفسير لا ينهض على دليل معتبر أو برهان مشروع. وهذا الضرب من التفسير قد نهى عنه الشارع وحذّر من التورط فيه لما يؤول اليه من سوء المصير.

قال الله سبحانه ناهياً عن التفسير بالرأي القائم على الهوى: « وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »[2].

وقال سبحانه: « ولا تقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »[3].

وفي الحديث الشريف فيما أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي يقول الرسول ﷺ: « من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ». وعنه ﷺ فيما أخرجه أبو داود في سننه: « من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار ».

---

(١) سورة ص الآية ٢٩.
(٢) سورة البقرة الآية ١٦٩.
(٣) سورة الإسراء الآية ٣٦.

وتأويل هذه الأدلّة أن التجرّؤ على تفسير القرآن بغير استناد الى حجة أو برهان أو بغير رجوع الى أهل اللغة وما تحتاج اليه هذه المسألة من أخبار الصحابة الذين شاهدوا التنزيل لهو مرفوض. حتى إن هذا الضرب من التفسير القائم على الهوى اذا جاء مرافقا للصواب فهو مرفوض من الوجهة الشرعية أيضا. وذلك لانه تفسير يقوم على مجرد الرأي غير المستند الى شاهد من شواهد التأييد المأثورة. أو أنه تفسير ينم على جهل كبير بأصول الدين واللغة، أو ينم على مقاصد خاطئة يبتغي المفسر المغرض أن يكشف عنها لما تصادفه من هوى في نفسه.

وقد ذُكر أن جملة ما تحصّل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال:

القول الأول: التفسير من غير تحصيل للعلوم التي تخول المفسر أن يضطلع بمهمة التفسير. وهي علوم ذكرناها سابقا فيما يحتاج اليه المفسّر، وذلك كعلوم اللغة والاصول والقراءات وأسباب التنزيل.

القول الثاني: تفسير المتشابه من القرآن. وهو ضرب من التفسير محظور لتأديته في الغالب الى زلل المعرفة وخطل المآل. وفي ذلك يقول سبحانه: « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله »[1] وتلك إشارة الى أنه لا يجرؤ على تفسير المتشابه من القرآن الا من كان في قلبه زيغ وهو لا يبتغي من ذلك الا الفتنة والتضليل.

القول الثالث: التفسير الذي يأتي تدعيماً لأحد المذاهب الفاسدة وطريقة ذلك أن يجعل المفسر مذهبه هو الاصل المتبوع والتفسير هو التابع. فالمفسر بذلك يصطنع أية أدلّة ولو كانت ضعيفة أو موضوعة من أجل أن يعزز مذهبه الذي يتعصب له.

القول الرابع: أن يذهب المفسر الى أن مراد الله من الكلمة أو السورة هو كذا وكذا على القطع الذي لا يعرف التحفظ وذلك دون استناد الى دليل أو

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧.

احتجاج ببرهان. وذلك من باب التحكم الذي لا يرتضي به شرع. وهذا التفسير مرفوض حتى وإن كان للمفسر في ذلك غرض صحيح يبتغي منه أن يعظ الناس ويخوفهم كمن يدعو الى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله تعالى: «إذهبْ الى فرعونَ إنه طغى» وهو يشير بذلك الى قلبه زاعما أن المراد بفرعون هو القلب القاسي.

القول الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى. ذلك ما نقله السيوطي في الاتقان. وربما كان قصده بالاستحسان هو أن يستحسن وجها من الأوجه المحتملة دون غيره من غير دليل معتبر. أما فيما يتعلق بالاستحسان الاصولي فهو موضع خلاف الاصوليين من علماء الشريعة وأئمة المذاهب. وهو معتمد في المذهبين الحنفي والمالكي. وأنكره آخرون منهم الامام الشافعي الذي قال «من استحسن فقد شرع» ومع ذلك فاننا لسنا مع الذين ينكرون الاستحسان ولا يعتبرونه مصدرا من مصادر الشريعة. ولنا من القناعة والاطمئنان بأن الاخذ بالاستحسان مشروع وذلك لانه «الاستحسان» قد يأتي علاجا لإشكال متولد من القياس. وذلك في حالين. إحداهما: أن يقع تعارض بين القياس ونص من نصوص الشرع سواء كان النص من الكتاب أو السنّة أو الاجماع. وثانيتهما: أن يكون في الاخذ بالقياس ما يؤدي الى ضيق أو حرج. وفي كلتا الحالين لا مناص من الاستناد الى مصدر آخر من الشريعة، وهو مصدر مجانب للتعارض مع النص، ومجانب للضيق والإحراج بسبب الاعتماد على القياس فكان ذلك هو الاستحسان.

على أن هذا الضرب من ضربي التفسير والذي يقوم على الهوى يشمل جملة أنواع من التفاسير القائمة على مجرد الرأي من غير استناد الى دليل. ونضرب لهذه الأنواع من التفاسير عدة أمثلة مع شيء من التبيين الوجيز.

مثال أول: تفسير المعتزلة. وهم فرقة من المسلمين الذين قالوا في تفسير القرآن شططاً. وذلك للتوفيق بين بعض الألفاظ والآيات القرآنية ومذهبهم المغالي. وهو مذهب أفرط في ترجيح ما يتراءى للذهن على ما يتضمنه النص

القرآني من مقصود. ففي قوله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة. الى ربها ناظرة»[1] ما يشهد لاهل السنّة في قولهم إن المؤمنين ينظرون الى ربهم يوم القيامة في الجنة. وذلك هو المدلول الواضح الحقيقي الذي يُفهم من قوله «ناظرة». لكن المعتزلة وهم يؤولون القرآن على هواهم - يقولون: ليس المقصود بالنظر رؤية العين. بل المقصود هو أحد الاحتمالات التالية: الانتظار، العطف والرحمة، التفكر والتأمل، التوقع والرجاء. وغير ذلك من احتمالات. حتى قال بعضهم إن «إلى» ليست حرفا بل هي اسم بمعنى النعمة من النعم. فيكون المعنى بذلك: ناظرة نعمة ربها.

ولا جرم فان مثل هذا التأويل لهو غاية التحريف الفاسد الذي ترفضه أساليب البيان وقواعد اللغة. فذلك هو التفسير المردود الذي يقوم على مجرد الرأي من غير دليل أو حجة أو برهان.

وفي قوله تعالى: «وكلم الله موسى تكليما»[2]. فالمعتزلة يذهبون الى نفي صفة الكلام عن الله، ومن أجل التوفيق بين مذهبهم وهذه الآية المتضمنة لتكليم الله موسى فقد راحوا يختلقون المعنى الزائف المصطنع ليجعلوه المقصود من التكليم. فذهب بعضهم مثلا الى أن موسى هو الذي كلم الله. فموسى بذلك فاعل. وأما لفظ الجلالة فهو مفعول به وهو بذلك منصوب.

وذهب آخرون منهم في التحريف الى أسوأ من ذلك اذ قالوا: التكليم من الكَلْم، بفتح الكاف وتسكين اللام، وهو يعني الجرح. فالآية معناها أن الله جرّح موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن[3].

مثال ثان: تفسير الشيعة. وهم فرقة مغالية في نظرتها لعلي بن أبي طالب وزوجه وابنيه الحسن والحسين. وكثيرا ما كانت تنزع بهم هذه المغالاة الى الاشتطاط في التفسير بما يلائم تصوّرهم المتطرف عن عليّ وآله رضي الله عنهم.

---

(١) سورة القيامة الآية ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة النساء الآية ١٦٤.
(٣) الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم ص ٥٢ - ٥٤ للدكتور محمد حسين الذهبي.

ففي قوله تعالى: « إنكم لفي قول مختلف. يؤفَكُ عنه من أُفِك »[1] قال بعض علماء الشيعة في تفسير الآية الاولى: من استقام على ولاية عليّ دخل الجنة ومن خالف ولاية عليّ دخل النار، وبذلك فالناس مختلفون من حيث موالاتُهم لعليّ وآله. وأما الآية الثانية: « يؤفك عنه من أفك » قالوا الضمير في قوله « عنه » يراد به عليّ. فمن يؤفك عن ولاية عليّ فقد أُفك عن الجنة. ويُؤفك معناه يُصرف.

وفي قوله: « عمّ يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون »[2] قال بعض علمائهم في تفسير هذه الآية: كان علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لاصحابه: أنا والله النبأ العظيم الذي اختلفت فيه جميع الأمم بألسنتها. والله ما لله نبأ أعظم مني، ولا والله آية أعظم مني.

وفي فاتحة سورة مريم: « كهيعص » قالوا: إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطْلَع الله عليها عبده زكريا ثم فصلها على محمد ﷺ وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه أسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه اياها فكان زكريا اذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن سُرّي عنه همُّه وانجلى كربه واذا ذكر الحسين خنقته العَبْرة ووقعت عليه البهرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي اذا ذكرت أربعا منهم تسليت بأسمائهم عن همومي؟ واذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تعالى عن قصته فقال « كهيعص » الكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد صبره. فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها الناس من الدخول عليه[3]. ولا نتصور مثل هذا التفسير الا ضربا من الشطط الذي يحرّف الكلم عن مواضعه ويحمّل الآية من المراد غير ما تحتمل.

---

(١) سورة الذاريات الآيتان ٨، ٩.

(٢) سورة النبأ الآيات ١ ـ ٣.

(٣) الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم ص ٦٠ ـ ٦٥ للدكتور محمد حسين الذهبي.

مثال ثالث: تفسير الخوارج. وهؤلاء فرقة شديدة التعصّب في غير ما تفكير متّزن أو روية متثبتة الا الحماسة الطائشة الحانقة المندفعة. وقد دفعهم التعصب والحماسة المشبوبة من غير تثبت أن يطّلعوا على الناس ببعض الاقوال المغالية الضالة بعد أن يصطنعوا لها من الأفهام والتخريجات ما هو بعيد عن الصواب ومقصود الكتاب الحكيم.

فقد ذهب الخوارج مثلا الى أن مرتكب الكبيرة كافر. واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى:« ولله على الناس حجُّ البيتِ من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنيّ عن العالمين». وقد استدلّوا من قوله « ومن كفر..» على أن تارك فريضة الحج كافر.

وقوله تعالى:« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» قالوا ان كل مرتكب لمعصية مهما كانت ـ إشراكاً أو غير إشراك ـ فهو كافر. وذلك لأن الذي يرتكب الذنب يكون قد حكم بغير ما أنزل الله.

وقوله تعالى:« هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» فقد استدلّوا من ظاهر هذه الآية على أنه لا وجود للفاسق. والمرء بين أمرين وهما الايمان والكفر. فلا يكون أحد الناس الا مؤمنا أو كافرا.

كذلك يستدل الخوارج على آرائهم وما يذهبون اليه من مذهب. وهو استدلال لا يسعفه أدنى قدر من الموضوعية أو الفهم السليم المخلص لما تنطوي عليه آيات القرآن وألفاظه من معانٍ صحيحة يستيقنها العقل السليم وتعيها بصائر الجمهرة من العالمين وأولي الالباب.

مثال رابع: تفسير الصوفية. وفكرة التصوّف كانت أصلا تقوم على الزهد والانقطاع لعبادة الله. لكن هذه الفكرة قد تحولت بفعل أسباب شتى من الجهل والتعصب وجنوح التفكير الى تصوّرات أخرى تتسم بالغرابة والشذوذ وتحمل من الاقاويل والشطحات الذهنية ما يخرج بصاحبها عن صراط الاسلام. وقد ظهر من بين أئمة التصوف أفراد شاطحون غلاة قد ذهبوا في

تفسير بعض المفردات من القرآن بما يوافق هواهم المسرف الجانح. ومذهبهم في مثل هذا التفسير لا يقوم الا على الهوى والضلال أو الرأي الفاسد المردود. ومن بين هؤلاء الأئمة المتصوفين كل من ابن عربي والحلّاج وأبو عبدالرحمن السلمي وغيرهم.

أما ابن عربي فقد فسّر قوله تعالى: « واذكر اسم ربك وتبتّل اليه تبتيلا »[٢] بقوله: اعرف نفسك. واذكرها ولا تنسها فينسك الله. وهو في ذلك ينطلق من تصوّره عن وحدة الوجود. بمعنى أن الله هو الموجود وأن كل ما في الوجود مظاهر له. فالوجود كله بمثابة وحدة واحدة أساسها الله وكل ما حوله من كائنات وأشياء يشكل ظاهرة من ظواهره. وهو بذلك يقصد أن يقول إن كل ما في الوجود لهو جزء من أجزاء الاله الموجود الذي حل فيما حوله من أجزاء وأشياء. ومن أجل ذلك كان الحلّاج يقول: أنا الله. حتى إن ابن عربي كان يدافع عن عبادة بني اسرائيل للعجل وهو في ذلك يقول: إن عجل بني اسرائيل هو أحد المظاهر التي اتخذها الله وحل فيها.

وفي قوله تعالى: « مرجَ البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان »[١] يقول ابن عربي في تفسير هذه الآية، إن المقصود بالبحر الأول هو الهيولى أي الجسم المادي. أما البحر الثاني فهو الروح. والبرزخ الذي بينهما هو النفس الحيوانية التي تقف وسطا بين الروح والمادة. فهي التي تحجب كلا من الهيولى والروح أن يلتقي بنديده الآخر. وفي مقابل هذا التفسير الشاطح الخاطيء يقول المفسّرون المعتَمَدون إن المراد بالبحرين هما ماء البحر الملح الاجاج، وماء النهر العذب الفرات. وقد جعل الله بينهما برزخا أي حاجزا من اليابسة والتفاوت في طبقات سطح الارض مما يحول دون تلاقي البحرين معاً.

وثمة ضرب من التفسير ابتدعه المتصوّفون وهو المسمى بالتفسير الإشاري وهو تفسير يقوم على الشطح في الذهن والجنوح في التفكير. وهو تفكير واهم تائه لا يشده زمام ضابط ولا ترده ضوابط من العقيدة أو الشرع.

---

(٢) سورة المزمل الآية ٨.

(١) سورة الرحمن الآيتان ١٩، ٢٠.

ويذهب أهل التصوف الى أن التفسير وجهان. وجه يدركه علماء الرسوم. أي العلماء الذين يُعوِّلون على المأثور ويستندون في أقوالهم الى المكتوب من القول من غير اجهاد للبصيرة وهي تنفذ الى عميق القرآن لتخرج ما فيه من مكنون المعاني مما لا يدركه غير المتصوفين، وذلك هو الوجه الآخر للتفسير.

فقالوا في تفسير «ألم» الألف هي ألف الوحدانية. واللام لام اللطف. والميم ميم الملك. ومعنى ذلك أن من وجدني على الحقيقة باسقاط العلائق والاغراض تلطفت له، فأخرجته من رق العبودية الى الملأ الاعلى.

وفي قوله تعالى «من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه»[٢] قالوا كلاما غريبا عجيبا عن تفسير هذه الآية وهو على النحو التالي: «من ذلّ» من الذلّ. وذل فعل ماض يفيد الشرط. «ذي» اشارة الى النفس واسم الاشارة في محل نصب مفعول به. «يشف» فعل مضارع واقع في جواب الشرط من الشفاء «ع» وهو فعل أمر من الوعي.

وفي قوله تعالى «وإن اللهَ لَمَع المحسنين» قالوا «لَمَع» فعل ماضٍ بمعنى أضاء ومضارعه يلمع. «المحسنين» مفعول به منصوب بالياء. أي أن الله أضاء المحسنين. وذلك تفسير غاية في الخطأ والضلال الذي يصم قائله ومعتقده بالفسق عن أمر الله والتقوّل على كتاب الله بالحماقة والسفه والباطل.

طبقـــات المفسّـــرين

أشهر المفسرين بعد رسول الله ﷺ أصحابه الكرام ثم التابعون من بعدهم. على أن الصحابة ـ وهم أعلم الناس بمواطن التنزيل وأسبابه بفضل الصحبة الكريمة ـ ليسوا على درجة واحدة من حيث الإكثار من التفسير أو الجرأة عليه. فهم في هذا المجال متفاوتون بين مُكْثِر ومُقِلّ، وبين متجرّىء وهيّاب.

وقد كان أبرز المفسرين من الصحابة عشرة: أبو بكر، عمر، عثمان،

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

علي، وعبدالله بن عباس، عبدالله بن مسعود، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، أبو موسى الاشعري، عبدالله بن الزبير.

أما الخلفاء الراشدون الأربعة فأكثر من اشتهر منهم في التفسير عليّ بن أبي طالب. أما الثلاثة الآخرون فما رُوي عنهم من التفسير إلا قليل. ولعل السبب في ذلك هو تقدم وفاتهم ذلك أنهم قد ماتوا في باكورة مطلع الاسلام ولم يكن الصحابة إذ ذاك بحاجة لمن يكشف لهم عن معاني القرآن. وذلك لوقوفهم على هذه المعاني بأنفسهم ولقربهم من فترة النبوة الكريمة بما يوقفهم تماما على المعاني وأسباب التنزيل.

يضاف الى ذلك عامل التورع الذي كان يثنيهم عن الإقدام على التفسير خصوصا أبو بكر رضي الله عنه فقد كان أقل الصحابة تفسيرا للقرآن حتى قيل إنه لم يُحفظ عن أبي بكر في التفسير الا اثارٌ قليلةٌ جداً لا تجاوز العشرة. ولما سئل رضي الله عنه عن تفسير حرف من القرآن قال: أيّ سماء تُظِلّني، وأيّ أرض تقِلّني، وأين أذهب وكيف أصنع اذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى!

أما عليّ بن أبي طالب فهو صدر المفسرين من الصحابة وأكثر من روي عنه في الخلفاء الأربعة. وقد ذكر أبو الطفيل أنه شهد عليّا يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء الا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل.

وذكر عنه أنه قال: والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيم أنزلت ان ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا.

وأما عبد الله بن مسعود فهو علم من أعلام المسلمين في التفسير، ومشهور من مشاهيرهم، وقد روي عنه أكثر مما روي عن علي وذلك لتفرغه للعلم وانقطاعه للتعرف على كتاب الله من غير أن تشغله عن ذلك قضايا الخلافة وقيادة المسلمين. وقد ذكر عنه ابن جرير الطبري أنه قال: والذي لا اله غيره

ما نزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. وقد سئل عليّ عن ابن مسعود فقال: علم القرآن والسنّة.

ذلك الفريق من الناس هم خير الناس بعد النبيين والمرسلين وهم أعلم البرية بدين الاسلام وأعرفهم بتأويل القرآن لعظيم قربهم من النبيّ ﷺ. وهو المنهل الذي ينهمر منه الخير والعلم وكذلك بما أوتوه من حظ عظيم في قوة العقل والذكاء والفطنة وقوة العقيدة والورع، وشدة الاقبال على الله دون تردد أو تحفظ. وعن نفر من ذلك الرعيل الفذ يقول النبيّ ﷺ فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري «أرحم أمتي بها أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم عليّ وأفرضهم زيد وأقرأهم لكتاب الله عز وجل أبيّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وأبو هريرة وعاء من العلم وسلمان بحر من علم لا يدرك وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

«عبد الله بن عبّاس»

هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ. ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وقيل خمس والأول أثبت. وعند ولادته كان المسلمون في شعب أبي طالب قد قاطعهم المشركون وفرضوا عليهم الحرمان.

وقد أحبه النبيّ وأوصى به خيرا لما توسم فيه العلم والتقوى. وقد كان رضي الله عنه على غاية من النباهة والفطانة والذكاء حتى عز أن يكون في مجال الحفظ والرواية والاستنباط له نظير. وقد دعا له النبيّ ﷺ بعد أن ضمه اليه وقال «اللهم علمه الحكمة».

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سكب للنبيّ ﷺ وضوءا عند خالته ميمونة فلما فرغ قال «من وضع هذا» فقالت ابن عباس فقال «اللهم

فقّهه في الدين وعلّمه التأويل».

وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ دعا لابن عباس فقال «اللهم بارك فيه وانشر منه»[1]

وذكر عن عبد الله بن عباس نفسه أنه قال: انتهيت الى النبي ﷺ وعنده جبريل فقال له جبريل «انه كائن حَبْرَ هذه الامة فاستوص به خيراً»

وذكر عن مجاهد قال: قال ابن عباس قال لي رسول الله ﷺ «نعم ترجمان القرآن أنت».

وأخرج البيهقي عن عبدالله بن مسعود قال: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس.

وذكر عن مجاهد أيضاً أنه قال: كان ابن عباس يسمّى البحر لكثرة علمه[2].

وكان عمر يدعوه ليشهد المجالس وفيها العلماء والكهول حتى قال له المهاجرون مرة: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس فقال عمر: ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول.

وقد مات رضي الله عنه بالطائف سنة ثمان وستين للهجرة عن احدى وسبعين سنة على الراجح[3].

ذلك هو عبدالله بن عباس ترجمان القرآن وحبر هذه الأمة وأعظم العظماء فيها علما وأكثرهم تفسيراً وأصدقهم تأويلا. رضي الله عنه رضوانا كبيراً يرفعه في عليين.

طبقة التابعين

المفسرون للقرآن من التابعين كثيرون. لكن أعلمهم أهل مكة وذلك لانهم

(١) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني جـ ٢ ص ٣٣١-٣٣٤

(٢) الاتقان جـ ١ ص ١٨٧

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٣٣٤

أخذوا العلم عن ترجمان القرآن ابن عباس. وأشهر هؤلاء المفسرين كما قال ابن تيمية فيما نقله عنه صاحب الاتقان هم:

مجاهد: وهو من أكثرهم علماً وأبرزهم في هذا الشأن. وقد قال عن نفسه: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. وفي رواية أخرى عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيما نزلت وكيف كانت.

أما الروايتان عن ابن عباس فلا يلزم من ظاهر تعارضهما أن يكون بينهما تناقض. فقد يبغي أنه عرضه عليه ثلاث مرات في فترة معينة من الفترات سواء كان ذلك من خلال الثلاثين مرة أو دونها.

وقال النووي: اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. ولذلك كان يعتمد على تفسيره كثير من أهل العلم مثل البخاري والشافعي.

وسعيد بن جبير: فقد قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك. وقال قتادة: كان سعيد بن جبير أعلم التابعين بالتفسير.

وعطاء بن أبي رباح: قال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك.

وعكرمة مولى ابن عباس: فقد تعلم التفسير والسنة من ابن عباس. وهو أعلم التابعين بالسير كما يقول قتادة. وقال عنه الشعبي ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. وقال سماك بن حرب: سمعت عكرمة يقول: لقد فسّرت ما بين اللوحين. يعني بذلك القرآن كله.

وطاووس بن كيسان اليماني: أدرك من أصحاب النبيّ ﷺ خمسين صحابيا. وقد ذكر أنه حج البيت أربعين مرة وكان مستجاب الدعوة [1].

---

(١) منهل العرفان جـ ١ ص ٤٨٨ للشيخ الزرقاني

وثمة مفسرون من أهل المدينة برزوا. منهم زيد بن أسلم الذي أخذ عنه التفسير ابنه عبد الرحمن ومالك بن أنس.

ومنهم كذلك محمد بن كعب القرظي.

وهناك مفسرون آخرون قد برزوا في العراق. منهم الحسن البصري وقتادة بن دعامة وعطاء بن أبي سلمة الخراساني ومسروق بن الاجدع.

وثمة تابعون مفسرون آخرون مشاهير مثل: الضحاك بن مزاحم والربيع بن أنس ومقاتل بن سليمان ومُرة الهمداني واسماعيل بن عبد الرحمن السُّدّي وعطية العوفي[1].

أشهر كتب التفسير

بيّنا سابقا أن التفسير نوعان. تفسير بالمأثور، وتفسير بالرأي. وبيّنا كذلك أن التفسير بالرأي ضربان. أحدهما ما كان مستندا الى دليل أو برهان من اللغة وغيرها. وثانيهما ما كان مستنداً لمجرد الرأي من غير استناد الى دليل أو برهان. وهو غالباً ما يقوم على الهوى والتحكم في إعطاء المعنى بغير حجة.

كتب التفسير بالمأثور

أما التفسير بالمأثور فقد ظهرت فيه كتب عظيمة في قدرها وفائدتها وفيما تنطوي عليه من علوم تتعلق بكتاب الله الحكيم.

وأشهر هذه التفاسير:

جامع البيان في تفسير القرآن للطبري. والطبري هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري. وكنيته أبو جرير. أصله من آمل وهي مدينة بطبرستان، ولد ببغداد سنة ٢٢٤ هـ وتوفي فيها سنة ٣١٠ هـ. كان رحمه الله مؤرخا مفسّرا محدّثا. تنقل بين ايران والعراق وسوريا ومصر وذلك من أجل العلم

(١) البرهان جـ ٢ ص ١٥٨

واستقر به المقام أخيرا في بغداد حيث مات. وكان أولَ أمرِه متمذهبا بالمذهب الشافعي ثم اختار لنفسه مذهبا مستقلاً.

وأعظم ما تفتقت عنه مواهبه العظيمة هذا التفسير العظيم الذي سمّاه «جامع البيان في تفسير القرآن». وهو بحق يعتبر مرجعاً كبيرا وأساسياً لطالب التفسير. ويقع في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير. لم يترك فيه رحمه الله شاردة ولا واردة تتعلق بتفسير الكتاب الحكيم الا بيّنها وذلك بأسلوب سهل وميسور. وكان من شأنه اسناد معنى الآيات الى ما ذكر عن الصحابة والتابعين وذلك من باب الرواية بالمأثور الذي اعتمده في تفسيره. ومع ذلك فقد كان له قوله من حيث التوجيه والاستنباط والترجيح بين الاقوال الواردة في معنى الآية. الى جانب اهتمامه في كثير من الاحيان بمسائل الإعراب.

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

هو عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن الخطيب أبو حفص عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي. ولد سنة ٧٠٥هـ وتوفي سنة ٧٧٤هـ. كان رحمه الله مؤرخا وفقيها ومحدثاً ومفسراً. فهو بذلك علم من أعلام الاسلام في الرواية بالمأثور. وأعظم آثاره العلمية كتابه في التفسير الذي سماه «تفسير القرآن العظيم» وهو من أعظم ما كتب في مجال التفسير حتى قيل إنه يحتل المرتبة الثانية بعد التفسير الاعظم «تفسير الطبري» وهو يعتمد الاسلوب السهل، مبتغيا منه إيصال المقصود وتوضيح الكلمات القرآنية في غير ما تكلف. وهو رحمه الله يعرض في تفسيره للآيات لما يورده من أقوال الصحابة والتابعين في هذا الشأن ثم يرجّح بعد ذلك ما يراه صحيحا أو أقرب للصواب معزّزاً ذلك بما يورده من آية أو آيات تعين على التوضيح وذلك من باب تفسير القرآن بالقرآن.

وابن كثير يعتبر من أئمة الحديث. فهو بذلك يستعين بخبرته في هذا الشأن على تذليل مهمته في تفسير القرآن. ومعلوم أن الاحاطة بالحديث وعلومه تعين

على فهم القرآن وتوضيح آياته ومفرداته وتجلية مقاصده ومضامينه.

وتفسير ابن كثير يقع في أربعة مجلدات من الحجم الكبير. وقد طبعته مطبعة المنار بمصر في تسعة مجلدات ومعه تفسير البغوي.

الجامع لأحكام القرآن

وهو للعالم الفقيه المفسر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الانصاري الاندلسي. وهو عالم من علماء المذهب المالكي. كان بارعا في علوم اللغة والفقه عالما بأقوال الفقهاء والمفسرين. وقد صنف كتابه في تفسير القرآن الذي سماه «الجامع لأحكام القرآن» وهو يقع في عشرة مجلدات. ومع أن هذا الاسم يوحي باقتصاره على القضايا الفقهية، إلا أنه جاء حاويا لمختلف مناحي العلوم التي يتطلبها تفسير القرآن. فكان تفسير القرطبي بذلك يتناول الحديث عن الآية أو الكلمة من جميع الجوانب سواء في ذلك الاعراب أو أصل الكلمة من حيث اشتقاقها ومبناها ومعناها وهو يعول عند استنباط المعنى للكلمة على ارجاعها الى الأصل اللغوي الذي انبثقت عنه.

والقرطبي في تفسيره يركز تركيزاً مستفيضاً على المسائل الفقهية التي يكتب فيها تفصيلا ثم يعرض فيها لأقوال الفقهاء والاصوليين من خلال أسلوب يتسم بالموضوعية التي لا تعرف التعصب لمذهب من المذاهب.

ويعتبر تفسير القرطبي مرجعا من المراجع الاساسية الكبرى في التفسير والفقه التي لا يجد الباحث أو العالم مناصا من الرجوع إليها من أجل الوقوف على حقيقة المعنى الذي يحويه النص القرآني أو السبب في نزول الآيات أو استقصاء قضية من قضايا الشريعة.

هذه نماذج ثلاثة من كتب التفسير بالمأثور نكتفي بذكرها هنا على سبيل التمثيل. مع أن ثمة تفاسير أخرى كثيرة غير ما ذكرنا مثل تفسير ابن عباس المسمى «تنوير المقياس من تفسير ابن عباس» ثم تفسير ابن عطية المسمى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» ثم تفسير الشوكاني المسمى «فتح

القدير» ثم تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ثم تفسير جلال الدين السيوطي المسمى «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

كتب التفسير بالرأي

بينّا سابقاً أن التفسير بالرأي ضربان. ضرب يقوم التفسير فيه على قواعد من علوم اللغة والدين. وضرب لا يقوم على شيء من ذلك الا مجرد الرأي من غير دليل.

ومن أمثلة الضرب الأول من التفسير ما كتبه الاستاذ العلامة سيد قطب والذي سماه «في ظلال القرآن» وهو يقع في ثمانية مجلدات. وهو كتاب عظيم الشأن بالغ الفائدة من حيث العلوم التي احتواها في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والتربوية والعلمية والاقتصادية ومن حيث تأثيره في الانسان العربي. فهو لا يقرأه قارىء ذو قلب وعقل الا وتأخذه غمرة من إعجاب أو استجابة أو تأثر.

وفي تقديرنا القاطع أن الكتاب تفسير بالرأي على الضرب الاول. فهو يستند في طرحه للقضايا والمسائل على الادلة من الكتاب والسنّة. وهو كذلك يعتمد كثيراً على أقوال السابقين من الصحابة والتابعين في تعزيز ما يذهب اليه. فالكتاب بذلك يعززه الاعتماد على أصول التفسير الاساسية، يضاف إلى ذلك براعة المؤلف رحمه الله في استنباط الفكرة من صميم النص في غاية من العمق والدراية والذكاء.

على أن الكتاب يعرض لجملة قضايا يمكن أن نسجل أبرزها وأهمها في الحقائق الاتية:

الحقيقة الاولى: يركز الكتاب تركيزا أساسيا على قضية العقيدة في النفس المسلمة باعتبار أن هذه العقيدة هي الاصل الذي يقوم عليه بنيان الاسلام كله وأنها هي التي يُعَولُ عليها في تحريك الفرد والجماعة نحو البذل والعطاء والخير في حماسة وايجابية. وهو رحمه الله يعيد التذكير في كتابه دائما بخطورة العقيدة

وأهميتها في انتفاضة المسلمين وتحررهم من كل صور الظلم والفساد والتخلف.

الحقيقة الثانية: يركز الكتاب على ضرورة الانتماء الكلي للاسلام في تصوره وعقيدته وشرعه. وذلك كي يكون تصور المسلم نقيا من كل أدران الجاهلية وتلويث الشرك. وليكون مبرأ من غبش الانتماء لغير الاسلام. وهو في ذلك يحذر أبلغ تحذير من خطورة التشريك في التصور أو الانتماء. فليس للمسلم أن يكون ذا انتماءين أحدهما للاسلام وثانيهما لجهة من الجهات أو منحى من المناحي سواء كان ذلك صنما أو مالا أو عشيرة أو قوماً أو وطناً أو حاكماً أو غير ذلك مما يستعبد المرء ويستذله استذلالا.

الحقيقة الثالثة: يحرِّض الكتاب على رفض الجاهلية رفضاً تاماً ثم الانسلاخ منها انسلاخاً كليا ليتسنّى له بعد ذلك أن يلج في الاسلام تمام الولوج ليكون بعد ذلك تصوره اسلامياً وافياً لا يقبل الخلط أو اللّبس. فهو بذلك يركز على قضية التحرر الوجداني الكامل من ربقة الجاهلية بكل ما فيها من تصورّات واعتبارات وأوضاع وأعراف وموازين.

الحقيقة الرابعة: يذكر الكتاب بأهمية الفطرة البشرية باعتبارها الاساس الركين في الكينونة للانسان. فهي ذات مطالب نفسية وروحية غلابة لا تقوى قوى الارض مهما عتت أن تصدّها أو تكبتها. وهو يذكر بأن هذه الفطرة الغلابة في البشر لا يناسبها سوى الاسلام. وأنها (الفطرة) ترفض كل ملة أو عقيدة أو مبدأ غير الاسلام. هذا الدين الذي يتسم بكل خصائص العلاج واليسر والمرونة بما يناسب الفطرة البشرية خير تناسب ويلائم طبيعة الانسان أوفى تلاؤم.

الحقيقة الخامسة: يحذر الكتاب من دعاة السوء والفساد والتخريب من شياطين البشر الذين مردوا على الافساد والتآمر على البشرية في قيمها وأخلاقها وأديانها. ودعاة السوء كثيرون منتشرون في كل بقاع الارض سواء في ذلك أتباع القوى الاستعمارية البغيضة أو الصهيونية التي تتحرك في الظلام لتسوق المسلمين الى مواطن الهلاك والتدمير في غاية من التلصص والتدسس. ثم

الصليبية الحمقاء التي تتحرك بوحي من التعصب الحقود الاعمى. وأخيرا الشيوعية الملحدة وهي من إفراز اليهود بدءا بماركس الماسوني الحاقد وانتهاء بباعث الثورة في روسيا عام ١٩١٧ وهو الماسوني الصهيوني لينين.

الحقيقة السادسة: يناشد الكتاب المسلمين أن يعملوا في صف واحد منظم وفي أسلوب من الحركية الواعية التي تقود المسلمين الى نهاية الشوط حيث السلطان المسلم الذي يطبق شرع الله في الارض ويحمل لواء الجهاد في شجاعة وإقدام.

كل هذه الحقائق أو غيرها يعرض لها الكتاب في أسلوب جديد مؤثر تعلوه اشراقة موحية مؤثرة. وهو أسلوب يقوم على الجزالة في اللفظ والبراعة في التعبير مع ما يرافق ذلك من موضوعية في التفكير من غير تعصب أو تجاوز أو تهويش. فلا جرم أن يكون لهذا الكتاب أعظم الوقع في أذهان القارئين وقلوبهم ليكون الكتاب على مر الايام مبعث تثقيف وتحريك للمسلمين يدفعهم نحو الانعتاق من ربقة الجاهلية والجاهليين. وقد توفي سيد قطب اعداما بقرار من الطواغيت الذين ينفذون في حماقة وغباء مؤامرات الشياطين الاسياد. فراح سيد ضحية التآمر على الاسلام ورجالاته الداعين اليه على بصيرة.

أما الضرب الثاني من التفسير بالرأي والذي لا يعتمد شيئا من أركان التفسير المعتبرة الا الهوى والتحكم، فإننا نضرب له مثالا بتفسير «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل» وصاحبه أبو القاسم محمود بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري. ولد سنة ٤٦٧ هـ بزمخشر احدى قرى خوارزم. وقد رحل في طلب العلم الى بخارى ثم مكة حيث أقام فيها مدة طويلة فسمّي «جار الله». وقد توفي سنة ٥٣٨ بخوارزم بعد رجوعه من مكة وهو من أئمة اللغة والادب فكان تفسيره (الكشاف) يعول عليه بعض المفسرين لدى الرجوع الى بعض المعاني اللغوية من نحو أو بلاغة أو غيرهما بما يدل على غزارة علمه في هذا الشأن.

والزمخشري وان كان ذا باع طويل في علوم اللغة وآدابها وفنونها إلا انه قد التزم جانب الاعتزال في تفسيره. فكان تفسيره بذلك ظلا يتفيؤه أصحاب المذهب الاعتزالي. ولا جرم أن يكون الالتزام بهذا المذهب مؤديا الى كثير من الشطط والزلل ومجانبة الصواب الذي عليه أهل السنة. والمعتزلي ـ حتى وهو يفسر كلمات الله ـ كثيرا ما يركن الى تصورات مسبقة مركوزة في ذهنه يريد أن يسير بالتفسير ليكون موافقاً لهذه التصورات والمقولات التي يفرزها المذهب في جنوح عن المأثور ومجاوزة للمبادىء والاصول الاساسية التي اتفقت عليها كلمة المسلمين في السابق واللاحق.

وهناك تفاسير أخرى تقوم على الرأي لا مجال للحديث عنها هنا. ومن جملة ذلك على سبيل المثال: تفسير النيسابوري، تفسير الالوسي، تفسير التستري، تفسير الخازن، تفسير ابن العربي.

المُحْكَم والمتشابِه

المحكم في اللغة من الفعل أحكم بمعنى أتقن. والإحكام مصدر معناه الاتقان. أحكمت الشيء فاستحكم، أي أتقنته فصار متقنا.

والمتشابه من الفعل اشتبه أو تشابه. أي التبس فلم يتميز ولم يظهر. نقول: اشتبهت القبلة اي التبست على المصلّي ولم تبد واضحة ولا مستبينة. والاشتباه معناه الالتباس[1].

أما المحكم والمتشابه من حيث الاصطلاح فيمكن تحقيق ذلك من خلال الاستعراض التفصيلي لاقوال العلماء في تعيين كل من هذين الاصطلاحين على أن الاصل في طروء هذين الاصطلاحين الآية الكريمة «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنَا وما يذَّكَّرُ إلا أولو الالباب».

مُحْكَم القرآنِ ومتشابهه

هل القرآن محكم كله أم أنه جميعا متشابه أم أنه يحتوي على الإحكام والتشابه معا؟

ذكر بعض العلماء أن في هذه المسألة أقوالاً ثلاثة.

القول الاول: هو أن القرآن كله محكم وذلك بدليل قوله تعالى «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير».

القول الثاني: هو أن القرآن كله متشابه بدليل قوله تعالى «الله نزَّل أحسنَ الحديثَ كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشوْن ربهم»

(١) المصباح المنير.

القول الثالث: وهو أن القرآن يحوي محكماً ومتشابهاً. وذلك للآية السابقة وهي مبعث اختلاف العلماء «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» وهذا التقسيم هو الصحيح وهو المعتمد لدى أكثر العلماء. وأما الآية الاولى فان مدلول الإحكام فيها أن القرآن كله متقن لا يتطرق اليه نقص أو عيب فهو كامل متكامل جاء على غاية من الإتقان والإحكام.

وأما الاية الثانية فان مدلول التشابه فيها أن القرآن كله يشبه بعضه بعضا وذلك من حيث الاعجاز والصدق والمستوى فكل القرآن معجز، كل سورة بمفردها سواء كانت مكية أم مدنية فانها تنطوي على الاعجاز وذلك من حيث جمال الاسلوب وإبهاره أو من حيث روعة المعنى وكماله. والقرآن كله حق وصدق وهو الكلام العدل الفصل ليس بالضعيف ولا بالهزل. وهو كذلك رفيع مستواه كله لا يجتمع فيه العالي والنازل ولا القوي والضعيف. ولكنه عال كله وقوي كله.

وقوله تعالى «منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» يعني أن في القرآن آيات محكمات أي بيّنات واضحات الدلالة بغير التباس أو إبهام. فالمعنى فيهن مكشوف للعقل ومستبين.

وفي القرآن آيات أخريات فيهن لَبْس واشتباه بحيث يعز على العقل أن يدرك المعنى المقصود منهن بسهولة.

ومع ذلك فان الايات المحكمات هن أم الكتاب أي أصله الذي يتضمن وجوه الأحكام والمعاني من الحرام والحلال والواجب والوعد والوعيد والزجر والامر وغير ذلك مما تتضمنه النصوص القرآنية المحكمة بوضوح. أما الآيات المتشابهات فانهن لا يعلمهن أكثر الناس أو كلهم، لما فيهن من لبس ولاحتمال مدلولها مقاصد كثيرة يصعب الركون الى أحدها أو اعتماده.

تعيين المحكم والمتشابه

اختلف العلماء في تعيين كل من المحكم والمتشابه في القرآن على أقوال كثيرة نورد جملة منها على نحو ما هو آت:

القول الاول: المحكم ما أمكن معرفة المراد منه بظهوره واضحاً أو عن طريق التأويل وذلك حال احتمال اللفظ لاكثر من معنى لكن اعتماد معنى من المعاني أمر ميسور وسائغ من الوجهة الدينية أو الشرعية. أما المتشابه فهو ما استأثر الله بعلمه ولم يقف أحدا من العباد عليه لعلة لا يعلمها الا هو. وذلك كقيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل السور وبعض الايات المتعلقة بالصفات. وهو قول أهل السنّة.

القول الثاني: المحكم ما لا يحتمل من التأويل الا وجها واحدا. أما المتشابه فهو ما احتمل أوجها متعددة. وهو منسوب لابن عباس.

القول الثالث: المحكم ما كان معقول المعنى. أي أن العقل يستقل بمعرفته والاطلاع على المراد منه. لكن المتشابه غير معقول المعنى وذلك كأعداد الصلوات. فلا يستطيع العقل أن يدرك العلة في تفاوت الصلوات من حيث عدد الركعات. فهي تتراوح ما بين ركعتين وثلاث وأربع. وكذلك فريضة الصيام فقد كان تقدير الله أن يكون شهر رمضان هو المفروض صيامه لا شعبان ولا رجب ولا المحرم وذلك لعلة لا يعلمها إلا الله جلّت قدرته.

وكذلك الحج في ميقاته المعلوم ومناسكه المعينة وشعائره وكيفيته المحدودة، كل أولئك مقدور من الله بوحي ولا شأن للعقل في تعليله.

القول الرابع: المحكم من القرآن هو الناسخ فيه والحلال والحرام والحدود والفرائض وكل ما يجب الايمان به والعمل به. أما المتشابه منه فهو

ما كان فيه من منسوخ وأمثال وأقسام (مفردة قسم بفتح السين) وكذلك ما يجب الايمان به ولا يجب العمل به لعدم الوقوف على المراد منه. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

القول الخامس: المحكم ما تضمن الحلال والحرام. وما كان غير ذلك فهو متشابه. وهو قول مجاهد.

القول السادس: المحكم من القرآن ما كان غير منسوخ، والمتشابه منه ما نسخ. وهو قول الضحّاك.

وفي تقديرنا أن القول الأول أقرب للصواب ان لم يكن صحيحا بالتمام ذلك أن المحكم أمكن الوقوف على ما تضمنه من الاحكام والمعاني وذلك كالحلال والحرام والامر والنهي والوعد والوعيد وغير ذلك مما اشتملت عليه آيات القرآن في استبانة وظهور يتكشفان للدارس أو العالم. ومن أجل ذلك فقد عبّر القرآن بأن آياته المحكمات «هن أم الكتاب» أي أصله الذي تجتمع فيه كل معاني الحق والخير سواء في ذلك قضايا العقيدة أو الشريعة أو الاخلاق.

لكن المتشابه من القرآن ما كان غير واضح المقصود بحيث يحتمل أوجها شتى من الآراء والتفسيرات فهو مما استأثر الله بعلمه دون أحد من خلقه. وليس في التوغل في مقاصد هذه الآيات المتشابهة وتقصّي المراد منها الا ضرب من الشطط ومجاوزة الحد. ولذلك فقد حذّر الله من مثل هذا التوغل أو التقصّي المرفوض فهو سبحانه يقول: «وأُخَرُ متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله».

هل يمكن العلم بالمتشابه

ثمة رأيان في امكانية العلم بالمتشابه وعدم الامكانية. فرأي يذهب الى ان العلم بحقيقة المتشابه من القرآن ممكن. ورأي آخر مخالف يذهب الى أن ذلك أمر مستحيل.

ومنشأ الخلاف في هذه المسألة هو نوع «الواو» في قوله «وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون» فقد قيل إن الواو هنا تفيد العطف. وعلى هذا الاساس فالراسخون في العلم محتسبون من الذين يعلمون ما تشابه منه. فتقرأ الآية بذلك «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» فالعبارة والمعنى مستتمان بعد الوقوف على العلم. أي أن هذه المتشابهات يعلمهن الله ويعلمهن الراسخون في العلم وذلك لعطف «الراسخون» على لفظ الجلالة.

وقيل من ناحية أخرى ان الواو تفيد الاستئناف فينبغي بذلك الوقوف على لفظ الجلالة لتكون القراءة هكذا «وما يعلم تأويله إلا الله» فتكتمل العبارة ويكتمل معناها تماما. ثم يستأنف الكلام بعد ذلك استئنافا. فتكون «الراسخون» مبتدأ خبره الجملة الفعلية «يقولون» وهذا هو الراجح وهو الذي عليه جمهور الصحابة والتابعين وأتباعهم من بعدهم. وأما الاول فهو مرجوح وقد اعتمدته قلة من أهل العلم منهم مجاهد والضحاك. وقال النووي في تأييده: يبعد أن يخاطب الله عباده بما لاسبيل لأحد من الخلق الى معرفته.

وخلاصة هذه المسألة أن هناك رأيين متعارضين. أحدهما أن «الراسخون في العلم» يعلمون تأويل ما تشابه من القرآن. ومنطلقهم في ذلك أن الواو عاطفة وأن ما بعدها معطوف على لفظ الجلالة ليكون الراسخون في العلم يعلمون تأويل ما تشابه من القرآن.

وثانيهما أنه لا أحد سوى الله يعلم تأويل ما تشابه من القرآن حتى ولا الراسخون في العلم. والمنطلق في ذلك أن الواو استئنافية. وذلك الذي ذهب اليه عامة أهل العلم من سلف ومن خلف وهو الراجح عندنا.

أدلّة الرأي الثاني

أول الأدلة وأهمها على صدق هذا الرأي الآية الكريمة التي تذم من يتبعون ما تشابه من القرآن معتبرة إياهم ذوي زيغ وأنهم مبتغون الفتنة: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات

فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» وكذلك فان الآية قد أثنت على المؤمنين الذين فوّضوا العلم بحقيقة الآيات المتشابهات الى الله وحده فهو الكاشف لاسرارها العالم بالمراد منها «والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر الا أولو الالباب». فقد تركوا الخوض في مثل هذه الآيات المتشابهة واكتفوا بمجرد التصديق والايمان بأنها من كلام الله وأن الله جل وعلا عليم بالمقصود منها.

وأخرج الشيخان عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» الى قوله «أولو الالباب» قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم».

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي مالك الاشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا أخاف على أمتي الا ثلاث خلال «وذكر منهن» أنه يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وما يعلم تأويله الا الله».

ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به».

وروي عن ابن عباس مرفوعا قوله «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه الا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب».

وذكر عن ابن عباس قال: نؤمن بالمحكم وندين به ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به وهو من عند الله كله.

وذكر عن عائشة أنها قالت: كان رسوخهم في العلم أنهم آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه.

وأخرج الدارميّ في سننه عن عمر بن الخطاب قال: إنه سيأتيكم ناس يجادلونكم بمشتبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

كل هذه الاخبار والآثار تدل على صدق القول باستحالة الاطلاع على المراد بالآيات المتشابهة. وخير للمؤمن الصادق المخلص أن يفوض ربه في حقيقة المقصود من هذه الآيات وهو يكتفي من ذلك كله بمجرد التصديق والتيقن بأن الله أعلم بالمراد.

المتشابه من آيات الصفات

هذه نماذج من الآيات المتشابهة في القرآن نسجلها هنا ثم نعقبها بتعليقات من بعض أهل العلم حول ضرورة تفويض العلم بحقيقة هذه الآيات الى الله وحده:

« الرحمن على العرش استوى »

« كل شيء هالك إلا وجهَه »

« ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام »

« واصنع الفلك بأعيُننا »

« تجري بأعيُننا »

« والأرضُ جميعا قبضتُه يومَ القيامة والسموات مطوياتٌ بيمينه »

« تعلمُ ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك »

« وجاء ربك والملك صفّا صفّاً »

« فأتى الله بنيانَهم من القواعد »

« ويحذّرُكم اللهُ نفسه »

« سنفرُغ لكم أيها الثقلان »

« يد الله فوق أيديهم »

وغير هذه الآيات كثير مما هو متشابه لا يعلم تأويله الا الله. والذي يقول في حقيقته الراسخون في العلم «آمنّا به كل من عند ربّنا» وقد ذهب جمهور أهل السنّة الى ضرورة الايمان بمثل هذه الآيات ثم تفويض ما أريد منها الى الله سبحانه من غير ان نقحم أنفسنا في الخوض فيها أو تأويلها.

وروي عن أم سلمة رضي الله عنها في قوله تعالى: «الرحمنُ على العرشِ استوى» قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به من الايمان والجحود به كفر.

وسئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله «الرحمن على العرش استوى» فقال: الايمان غير مجهول والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ المبين وعلينا التصديق.

وسئل الامام مالك عن هذه الآية فقال: «الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة».

وما قيل في الآيات المتشابهة من عدم الخوض والتأويل يقال أيضاً في الحديث، كالذي يتعلق برؤية الله سبحانه، فقد ذهب كثير من أهل العلم مثل سفيان الثوري ومالك وابن عيينة وغيرهم الى أنهم يروون هذه الاحاديث كما جاءت ويؤمنون بها من غير أن يقال كيف.

وذهب آخرون من أهل السنة الى جواز تأويل حديث الرؤية على ما يليق بجلال الله عز وجل.

وقد خالف في ذلك إمام الحرمين اذ قال: الذي نرتضيه ديناً وندين الله به عقداً اتباع السلف فانهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها[1].

تنبيه

نود أن نستخلص الحكمة من اختصاص الله بعلم ما تشابه من القرآن وأنه لا حيلة لأولي العلم والألباب أن يقفوا على المراد من هذا المتشابه. ولعل مما

(١) الاتقان: جـ ٢ ص ٦

هو جدير بالاعتبار ما لاحظه بعض المتبصرين من الحكمة وراء ذلك وهو أن الله سبحانه يبتلي عقل الانسان مثلما يبتلي جسده. ومن جملة ما ابتلى الله به جسد الانسان تكليفه بكثير من الأوامر على سبيل التعبّد. وذلك كالطواف والسعي في البيت العتيق ثم الوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار في منى. وكذلك اشتراط الطهارة للصلاة من غير أن تكون النظافة هي المقصود. ومثل هذه التكليفات لا جرم أن تكون باعث مشقّة ونَصَب يقع على البدن وذلك ابتلاء من الله يتعبَّدُ به الناسَ ليمضوا خاضعين طائعين.

وكذلك العقل فإنه مبتلى بوجوب الاقتناع والتصديق بأن المتشابه من القرآن حق لا ريب فيه، وأنه لا طاقة للانسان على إدراك ما ينطوي عليه المتشابه من مقصود، وأن مرد ذلك الى الله وحده، وأن ذلك مما استأثر الله بعلمه. وذلك ليعلم الانسان أنه أمام الحضرة الربانية لهو كائن بالغ البساطة والهوان وأنه ما أوتي من العلم الا قليلا، وليعلم كذلك أنه محتاج دائما الى ربه فيظل يغمره الاحساس الكبير بتمام العبودية لله علام الغيوب والمطلع على الاسرار والخفايا والكاشف للمقاصد والخبايا سواء كان ذلك مخبوءا في أطواء النفوس أو في ما تحتويه الكلمات من مضامين.

الناسخ والمنسوخ

والأصل في هذا الموضوع النسخ. وهو في اللغة على عدة معان هي: الإزالة والإبطال، ثم التبديل وهو إقامة الشيء مكان غيره، ثم النقل من موضع إلى آخر. نقول نسخ الكتاب أو انتسخه واستنسخه أي كتبه وأفرغه في مكان آخر بعد كتابته. ومنه قوله سبحانه: «إنا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون».

ومنه التناسخ والمناسخة في الميراث وهو موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم. وذلك معناه التحويل.

وتناسخ الازمنة يعني تداولها أو انقراض قرن بعد قرن آخر[1].

النسخ في الاصطلاح الشرعي

ثمة تقارب واضح بين مفهوم النسخ في اللغة وما أريد به في الشرع اصطلاحا وهو: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر[2]. فهذا المفهوم الاصطلاحي شديد التلاقي والقرب من معناه في اللغة كالإزالة أو الإبطال او التبديل أو النقل. فهي معان متقاربة شديدة التقارب بما أورده الاصوليون من تعريف للنسخ.

ضروب النسخ

وقع النسخ في القرآن على ثلاثة ضروب نبينها في التفصيل الآتي:

الضرب الأول

وهو ما كان منسوخ التلاوة والحكم معاً. فلا تجوز قراءته ولا العمل به. وذلك كالذي رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان مما أُنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمسٍ معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهي مما يقرأ من القرآن.

وقد كان قول عائشة: «وهي مما يقرأ من القرآن» موضع نظر وخلاف لكن الاجابة الأظهر أن التلاوة قد نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس الا بعد أن توفي رسول الله ﷺ فقد توفي عليه السلام وبعض الناس يقرأها.

وقد حكي عن قوم آخرين أنهم أنكروا هذا الضرب من النسخ لروايته عن طريق الأخبار الآحاد. ومعلوم أن الأخبار الآحاد لا تصلح للقطع على إنزال قرآن أو نسخه، فمثل هذا الشأن العظيم الخطير لا يثبت على القطع الا من طريق التواتر.

---

(١) القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٨٠

(٢) الموافقات للشاطبي جـ ٣ ص ١٠٧

الضرب الثاني

ما كان منسوخ الحكم دون التلاوة. وذلك هو موضع الكتابة والتفصيل، وهو الذي تتفاوت فيه أقوال العلماء من مفسرين وأصوليين وغيرهم ما بين مُكْثِر ومُقِلّ. ومثل هذه الامور سوف نعرض لها تفصيلا حين الكلام على التمييز بين ما هو منسوخ وما هو مقيّد بعد إطلاق، أو مخصَّص بعد عموم.

وقد ذكر صاحب البرهان أن ما نسخ حكمه دون تلاوته واقع في ثلاث وستين سورة.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: « والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول غير إخراج فان خرجن فلا جُناحَ عليكم في مافعلن في أنفسِهنَّ من معروف والله عزيز حكيم[1] ». فكانت المرأة اذا توفي عنها زوجها تتربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا على أن تكون نفقتها في مال زوجها من غير أن يكون لها ميراث في تركته. لكن هذه قد نسخت بقوله تعالى: « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا »[2] وبذلك فأيّما امرأة قد توفي عنها زوجها فان عليها أن تتربص معتدّة أربعة أشهر وعشرة أيام. وذلك ناسخ للحكم السابق المنسوخ.

وثمة نص آخر ناسخ سبق في نزوله للمنسوخ. وهو قوله تعالى: « يا أيها النبيّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبناتِ عمّك وبناتِ عماتِك وبناتِ خالِك وبنات خالاتِك اللاتي هاجرن معك وامرأةً مؤمنة ان وهبت نفسها للنبيّ »[3] هذا النص ناسخ لقوله تعالى: « لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدّلَ بهن من أزواج ولو أعجبك حسنُهن الا ما ملكت يمينك وكان اللهُ على كل شيء رقيبا »[4] ومع أن هذا النص منسوخ لكنه سابق في النزول كما ذكر.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٤٠
(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٤
(٣) سورة الاحزاب آية ٥٠
(٤) سورة الاحزاب آية ٥٢

ولعل التعليل المقبول لاسبقية الناسخ على المنسوخ نزولا هو اعتقاد حكم النص المنسوخ قبل العلم بنسخه[١] .

ثم قوله تعالى: « ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين »[٢] فان ذلك منسوخ بقوله تعالى: « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »[٣] .

وكذلك قوله تعالى: « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »[٤] هذا النص يوجب على المؤمنين الصبر في قتالهم المشركين حتى لو كان المشركون يفوقونهم في العدد عشر مرات. لكن هذا الحكم قد نسخ بقوله تعالى: « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين »[٥] يفيد هذا النص جواز الفرار اذا كان العدو يفوق المسلمين في العدد أكثر من ضعفين.

حكمة هذا الضرب من النسخ

يمكن ملاحظة الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة في الحقيقتين التاليتين:

الحقيقة الاولى: ان القرآن يتلى للثواب فضلا عن الفائدة التي يحققها الحكم. فاذا ذهب الحكم لمصلحة تقتضي ذلك بقيت التلاوة يرددها المؤمن على الدوام مبتغيا بذلك وجه الله أو الاجر والمثوبة. وقد نوهنا في تعريف القرآن سابقا أنه كلام الله المتعبَّد بتلاوته، فهو يقرأه العباد تعبّداً لانه كلام الله.

الحقيقة الثانية: في إبقاء التلاوة دون الحكم ما يذكر المؤمن بنعمة الله الذي امتن على العباد بالتخفيف في الأحكام ورفع ما يشق عليهم.

(١) البرهان جـ ٢ ص ٣٧، ٣٨
(٢) سورة البقرة آية ١٩٠
(٣) البقرة آية ١٩٤
(٤) سورة الأنعام آية ٦٥
(٥) سورة الانفال آية ٦٦

الضرب الثالث

ما كان منسوخ التلاوة دون الحكم. ونضرب لذلك عدة أمثلة منها ما روى عن أبي بن كعب أنه ذكر آية الرجم فقال: « إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم ».

وعن أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم « الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة بما قضيا من اللذّة ».

وروي عن عمر أنه خطب الناس فقال: لا تشكّوا في الرجم فانه حق ولقد هممت أن أكتبه في الصحف فسألت أبيّ بن كعب فقال: أليس أتيتني وأنا استقرئها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري وقلت تستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر[1].

وروي أن في مصحف عائشة رضي الله عنها: « إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون الصفوف الأُوَلْ » وذلك قبل أن يغير عثمان المصاحف.

وأخرج الحاكم في المستدرك عن أبيّ بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: « ان الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن » فقرأ « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » ومن بقيتها « لو أن ابن آدم سأل واديا من مال فأُعطِيَه سأل ثانيا وإن سأل ثانيا فأُعطيَه سأل ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وان ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل خيراً فلن يُكْفَره ».

وعن أبي موسى الاشعري قال: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: « إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب »

(١) يتسافدون من السفاد بكسر السين وهو أن ينزو الذكر على الأنثى.

وعن أبي موسى الاشعري كذلك قال: كنا نقرأ سورة نشبهها باحدى المسبّحات فأنسيناها غير أني حفظت منها: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة».

وروي عن عمر قوله: كنا نقرأ: «لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم».

وذكر عن عمر أنه قال لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل علينا أن «جاهدوا كما جاهدتم أول مرة» فإنا لا نجدها. قال: أسقطت فيما أسقط من القرآن.

وأخبر ابن مسلمة عن آيتين لم تكتبا في المصحف وهما «ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذي آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون».

وأخرج الصحيحان عن أنس قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا غدراً فقنت النبيّ ﷺ يدعو على من قتلهم من المشركين الغادرين. قال أنس: «نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن «بلّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا».

وقد أنكر قوم هذا الضرب من النسخ لكونه غير متواتر من حيث النقل والرواية. فالاخبار الواردة في نقله أخبار آحاد وهي لا تفيد القطع في الثبوت. وقضايا القرآن من حيث الإنزال والنسخ تقتضي تواتراً في الخبر ليمكن التصديق في قطع وتعيين.

وقد أجمع المحققون على أن خبر الواحد لا ينسخ القرآن ولا الخبر المتواتر لانه رفع للمقطوع به بالمظنون.

غالب النسخ في الجزئيات المدنية

يتبين بعد الاستقراء والملاحظة أن أكثر وقوع النسخ في الآيات التي تتعلق

بالمسائل الجزئية لا الكلية من القرآن المدني. أما القرآن المكي فان وقوع النسخ فيه نادر وسبب ذلك أن الآيات النازلة في الطور المكي كانت تتناول كبريات القضايا من قواعد وكليات تتعلق بأمهات الامور. وذلك كالعقيدة في أركانها وأصولها ومسائلها ثم الاخلاق والقيم وما تستند اليه من مقومات وأسس وما يتمخض عن ذلك كله من تصورات تغمر ذهن الانسان ولبّه وجنانه ومثل هذه القواعد والكليات قد تناولتها آيات القرآن في مكة حيث الترسيخ المتوطد المركوز لاصول هذا الدين الحنيف. وما أن بارح المسلمون والنبيّ ﷺ مكة مهاجرين الى المدينة حتى كانت قواعد الاسلام الكلية وأصوله في العقيدة والاخلاق والقيم قد تنزلت لترسم الخطوط الاساسية الركينة لبنيان الاسلام.

وعلى ذلك فان مثل هذه القضايا التي عالجها القرآن في تلك المرحلة لا تحتمل النسخ الا قليلاً مما له علاقة بمسائل فقهية فرعية.

ولما هاجر المسلمون الى المدينة واستقر بهم المقام فيها بدأت آيات القرآن تتنزل على النبيّ وهي تحمل لهم ضروبا من التشريع في مختلف مناحي الحياة فيما يتعلق بالفرد والاسرة والجماعة وعلاقة المسلمين بغيرهم وفيما يتعلق بقضايا الحكم والامور المالية والاجتماعية والقضائية وما يتصل بمسائل الحرب والقتال وكيفية التعامل مع غير المسلمين من المشركين وأهل الكتاب. كل هذه القضايا والمشكلات قد احتوتها آيات الكتاب الحكيم لدى تنزلها في المدينة. لكن آيات الكتاب في مكة ما كانت لتتعلق بمثل هذه القضايا والمشكلات الا نادرا. وعلى ذلك فان قضية النسخ بما يعنيه من إبطال للحكم السابق كان مجالها الواسع والأكبر في المدينة حيث تتنزل الآيات الكريمة لتتناول الامور الجزئية والفرعية لا القواعد والكليات التي تتسم بالثبات والاستقرار والديمومة ولا تقبل النسخ من قريب أو بعيد، والتي استتمت في مكة باعتبارها الاصول الكلية التي تم نزولها في طور الاسلام الاول. حتى يمكن القول أيضا إن ما تنّزل من آيات الكتاب الحكيم في المدينة كان بمثابة استكمال لما تنّزل في مكة،

وذلك إذا اعتبرنا أن آيات القرآن في مكة كانت تتضمن أصول الاسلام وقواعده الكبرى، وأن آياته في المدينة كانت تتضمن الشطر المتمم للاسلام وهي الفروع والجزئيات.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في كتابه الموافقات:

فالنسخ إنما وقع معظمه بالمدينة لما اقتضته الحكمة الالهية في تمهيد الأحكام. وتأمل كيف تجد معظم النسخ إنما هو لما كان فيه تأنيس أولا للقريب العهد بالاسلام واستئلاف لهم، مثل كون الصلاة كانت صلاتين ثم صارت خمساً، وكون انفاق المال مطلقا بحسب الخيرة في الجملة ثم صار محدوداً مقدّراً، وأن القبلة كانت بالمدينة ببيت المقدس ثم صارت الكعبة، وكحِلِّ نكاح المتعة ثم تحريمه، وأن الطلاق كان الى غير نهاية على قول طائفة ثم صار ثلاثاً، والظهار كان طلاقا ثم صار غير طلاق، الى غير ذلك مما كان أصل الحكم فيه باقيا على حاله قبل الاسلام ثم أزيل، أو كان أصل مشروعيته قريبا خفيفا ثم أحكم.

ويقول الإمام الشاطبي أيضا: لما تقرر أن المنزل بمكة من احكام الشريعة هو ما كان من الاحكام الكلية والقواعد الاصولية في الدين على غالب الامر اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل لا كثير لان النسخ لا يكون في الكليات وقوعا وإن أمكن عقلا[1].

ما يقع فيه النسخ

اتفقت كلمة العلماء والأصوليين على أن النسخ انما يقع على الايات التي تتعلق بالأمر والنهي فقط حتى ولو كان ذلك بلفظ الخبر الذي يرد بمعنى الطلب.

أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يقع عليه نسخ، ويدخل في ذلك الوعد والوعيد وما قصَّهُ القرآن من ذكريات الأمم.

---

(١) الموافقات للشاطبي جـ ٣ ص ١٠٤

ونضرب بعض الأمثلة من آيات الكتاب التي تحمل أخبارا أو وعدا أو وعيداً أو قصة مما لا يقبل النسخ ومما هو باقٍ على حاله من الإحكام « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون »[١] .

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »[٢] .

« الله نور السموات والارض مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ في زجاجة الزجاجةُ كأنها كوكب درّي يوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربية »[٣] .

« وما كان الناس إلا أمةً واحدة فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لقُضَي بينهم فيما فيه يختلفون »[٤] .

« وهو الذي خلق السمواتِ والارض في ستة أيامٍ وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً »[٥]

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه إني لكم نذيرٌ مبين »[٦]

« والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ان أنتم إلا مفترون »[٧]

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه إن ربي قريب مجيب »[٨]

---

(١) سورة المؤمنون الأيتان ١ ، ٢
(٢) سورة المؤمنون الأيات ١٢-١٤
(٣) سورة النور الآية ٣٥
(٤) سورة فصلت آية ٤٥
(٥) سورة هود آية ٧
(٦) سورة هود آية ٥٠
(٨) سورة هود آية ٦١

« اذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين »[١] .

« وما بكم من نعمة فمن الله »[٢]

« والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون »[٣]

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »[٤] .

« ان عذاب ربك لواقع . ما له من دافع . يوم تمورُ السماء موراً . وتسير الجبال سيراً »[٥]

« يوم يقوم الروحُ والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » .

« تبّت يدا أبي لهب وتبّ . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمّالة الحطب . في جيدها حبل من مسد »[٦] .

« ولا تطع كل حلاّف مهين . همّاز مشّاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتلّ بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين . سنسمه على الخرطوم »[٧] .

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنّم ولهم عذابُ الحريق »[٨]

---

(١) سورة يوسف آية ٤
(٢) سورة النحل آية ٥٣
(٣) سورة النحل آية ٦٥
(٤) سورة النور آية ٥٥
(٥) سورة الطور آية ٧ ، ١٠
(٦) سورة المسد
(٧) سورة القمر ، الآيات ١٠-١٦ ،
(٨) سورة البروج آية ١٠

« كلاّ لئن لم ينته لنسْفَعَنْ بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدعُ ناديَهُ. سندعُ الزبانية »[1]

فهذه جملة آيات تتضمن أخبارا وقصصاً أو وعدا ووعيداً. وهي معان وحقائق ثابتة تتميّز بالصدق والقطع والثبات فلا تتفق والنسخ الذي يقوم على الازالة والرفع.

مصدر النسخ

بيّنا سابقا أن النسخ هو إبطال حكم سابق بحكم لاحق، أو هو رفع حكم واثبات حكم قد تقرر في زمن النبوة الكريمة. وعلى هذا الاساس فان النسخ لا يمكن الرجوع فيه الى قول المفسرين أو اجتهاد المجتهدين، لان هذه القضية لا يمكن التحقق منها عن طريق الاجتهاد. وليس للعلماء والمجتهدين في هذا المجال سبيل الا النقل عن الرسول ﷺ أو الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وعاينوا ما تقدم منه وما تأخر. وبذلك فان المعتمد في هذه القضية ـ كما ذكر صاحب الاتقان ـ هو النقل والتاريخ.

فالنقل سبيله الرواية يضطلع بها العلماء وهم يروون أخبار النسخ بإسناد موصول الى منتهاه دون انقطاع.

أما التاريخ فان المقصود به أن يقف العلماء على تاريخ نزول النصوص المتعارضة ليعرفوا بذلك المتقدم منها والمتأخر. وتبعا لذلك يمكن التعرف على كل من الناسخ والمنسوخ. فالمتقدم هو المنسوخ والمتأخر هو الناسخ. وتلك هي السبيل الوحيدة من أجل الخروج من التعارض بين النصّين.

وخلاصة ذلك أنه إنما يُرجع في النسخ الى نقل صريح عن رسول الله

---

(١) سورة العلق الآيات ١٥ـ١٨

ﷺ أو عن صحابي يقول آية كذا نسخت كذا كما يقول ابن البصار[1]. وكذلك فانه لا يعتمد في النسخ قول عامّة المفسرين ولا اجتهاد المجتهدين لان ذلك يقوم على الرأي المستنبط الذي لا يفيد القطع في الدلالة. وشأن المفسر أو المجتهد هنا أن ينقل أخبار النسخ نقلا صحيحا أو أن يحقق في التعارض بين النصوص ليعلم تاريخ نزول كل منها ليقضي بعد ذلك بأن السابق منسوخ وأن اللاحق ناسخ.

النسخ بين القرآن والسنّة

نتناول في هذا الموضوع ثلاث مسائل لنبين ما يقوله علماء التفسير والاصول في كل منها وهي: نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنّة، ونسخ السنّة بالقرآن.

نسخ القرآن بالقرآن

لا يختلف القائلون بالنسخ على أن القرآن ينسخ بالقرآن وأن ذلك قد وقع بالفعل.

والدليل على النسخ من هذا النوع قوله تعالى: « ما ننسخْ من آية أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها »

وقوله: « واذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلمُ بما يُنزّل ».

أما وقوع هذا الضرب من النسخ في القرآن فنعرض له في النماذج التالية:

أولا : قوله تعالى: « كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتّقين » هذه الآية تفيد وجوب الوصية على من تحضرهم الوفاة من المسلمين لوالديهم وأقربائهم كيفما كانت درجة قرابتهم. فهم بناء على هذا النص ملتزمون بالوصية لهم من أموالهم، لكن هذه الآية قد نسختها آية

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٢٤

المواريث التي بموجبها يأخذ كل ذي حق من الوالدين والاقارب حقه. وقيل إن الآية منسوخة بحديث الرسول ﷺ: «لا وصيّة لوارث».

ثانيا: قوله تعالى: «والذين يُتوفّون منكم ويـذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف[1]» فقد أفادت هذه الآية أن للمرأة التي يتوفى عنها زوجها حق السكن في بيت الزوجية طيلة حول كامل على أن تكون لها النفقة خلال هذه المدة أيضا الا اذا خرجت بنفسها من البيت. لكن هذه الآية التي تحوي هذا المضمون قد نسخت بقوله تعالى: «والذين يُتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشْراً. فإذا بلغن أجلَهن فلا جُناحَ عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف». وهذه تفيد وجوب انتظار الزوجة في بيت الزوجية مدة أربعة أشهر وعشرة أيام دون خروج وذلك اذا ما توفي عنها زوجها.

ثالثا: قوله تعالى: «وإن تُبدوا ما في أنفُسِكم أو تُخفوه يحاسبْكم به اللهُ»[2] وهذه الآية تفيد أن الله محاسب الناس عما تكنه أنفسهم ولو لم يمارسوه بالفعل، ولا ريب أن مثل هذا التكليف يشق على الناس كثيرا وأنه يفوق طاقة الانسان لصعوبة تحققه فانه ليس من انسان الا ويُخفي في دخيلة نفسه جملة خواطر لا يعلمها الا الله. فاذا كان الانسان مؤاخذاً على مثل هذه الخواطر لمجرد وجودها وانحباسها في النفس فليس لأحد في الناس بعد ذلك الا وهو مؤاخذ محاسب. لكن هذا النص قد نسخ بقوله تعالى: «لا يكلف الله نفسا الا وسْعَها»[3] هذه الآية تفيد أن الانسان غير مؤاخذ على ما يفوق

(١) سورة البقرة آية ٢٤٠
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤
(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦

طاقته ومستطاعه وذلك كالخواطر والخلجات التي تراود تصور الانسان وضميره ما دامت لم تبرح حيّز النفس الخبيئة المستورة. وقيل إن هذه الآية مخصصة للآية الاولى لكننا نرّجح النسخ على التخصيص وذلك بالنظر للرفع البيّن الواقع على الحكم وهو المؤاخذة على ما تخفيه النفس.

رابعا: قوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُقاتِه[1] »، وذلك تكليف من الله للعباد لكي يتّقوه حق التقوى وهو أن يلتزم المرء بعبادة ربه على أكمل وجه دون تقصير أو انتقاص. وفي ذلك من الصعوبة والعسر ما هو معلوم. فأي الناس يستطيع أن يضطلع بعبادة ربه على نحو أوفى من غير أن يتطرق اليه في ذلك ضعف أو تخلف أو تقاعس أو تقصير؟! وبذلك فان هذه الآية قد نسخت بقوله تعالى: « فاتقوا الله ما استطعتم »[2] مع أن بعض العلماء ذهب الى أن الآية الثانية قد وردت مورد التبيين للآية الاولى وليست ناسخة لها. وفي تقديرنا أن قول الجمهور بالنسخ هو الصواب.

خامسا: قوله تعالى: « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفّاهن الموتُ أو يجعل اللهُ لهن سبيلاً. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإنْ تابا وأصلحا فأعرِضوا عنهما إن الله كان توّاباً رحيماً »[3] اللواتي يقترفن جريمة الزنا من النساء بعد أن يشهد عليهن في ذلك أربعة من الشهود وجب حبسهن في البيوت حتى الوفاة أو أن يقضي لهن الله في ذلك أمراً آخر. ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: « الزانية والزاني فاجلِدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله »[4]. ذلك في الزناة ان كانوا أبكارا سواء كانوا من الرجال أو النساء

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢
(٢) سورة التغابن آية ١٦
(٣) سورة النساء الأيتان ١٥، ١٦
(٤) سورة النور آية ٢

فقد وجب جلد كل واحد منهم مائة جلدة. أما ان كانوا محصنين بالزواج ثم قارفوا الزنا فقد وجب إنزال حد الرجم في كل واحد منهم استنادا الى الآية المنسوخة التلاوة «الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة» يعزّز ذلك السنّة العملية في تنفيذ عقوبة الرجم في الزنا بعد إحصان.

سادسا: قوله تعالى: «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون» وهذه الآية تنطوي على الحكم بوجوب ثبات المسلم في الحرب ليواجه عشرة من الكافرين وليس له في ذلك أن يفر ويولّي دبره للعدو حتى ولو كان يفوقه بعشرة أمثال. ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين». وهذه تفيد الحكم بوجوب الثبات أمام اثنين فقط من المشركين الاعداء وليس عشرة كما في الآية الاولى.

وبعبارة أخرى وجيزة فان المسلم في الحرب مكلّف بالثبات في وجه اثنين من المشركين بعد أن كان مكلفاً بالثبات في وجه عشرة منهم وذلك هو النسخ وقيل غير ذلك.

سابعا: قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة»[1] فقد كان على المسلم أن يتصدّق بصدقة كيفما كانت وذلك قبيل حديثه مع النبيّ ﷺ في أي شأن من الشؤون لكن ذلك قد شق على كثير من المسلمين فنزل قوله تعالى: «أأشفقتم أن تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقاتٍ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله»[2] وهو ناسخ للآية الاولى

---

(١) سورة المجالدة آية ١٢

(٢) سورة المجادلة آية ١٣

القاضية بوجوب الصدقة بين يدي النجوى.

ثامنا: قوله تعالى: « يا أيها المزّمّل. قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلا » هذه الآية تفيد الوجوب في حق النبيّ ﷺ والمسلمين بأن يقوموا من الليل نصفه أو ينقصون النصف قليلا أو أن يزيدوا عليه قليلا ليقوموا بذلك الثلثين. فشق ذلك على المسلمين حتى جاء قوله سبحانه ناسخاً: « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثُلُثَي الليل ونصفه وثلُثَه وطائفةٌ من الذين معك واللهُ يُقدِّرُ الليلَ والنهارَ علم أنْ لن تُحصوه فتابَ عليكم فاقرأوا ما تيسَّر من القرآن » حتى قوله: « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »[1] بذلك قد عفا الله عن المسلمين وخفف عنهم في الحكم ليصلّوا الفرائض الخمس، وليقوموا من الليل ما استطاعوا إن شاءوا. وذلك نسخ للحكم السابق الذي يوجب القيام شطراً من الليل إيجاباً.

نسخ القرآن بالسنّة

ذهب كثير من أهل العلم الى جواز نسخ القرآن بالسنّة. وهؤلاء هم الامام مالك وأتباع الامام أبي حنيفة والمتكلمون والمعتزلة. وخالف في ذلك الشافعي وأحمد في احدى روايتين عنه على ما سوف نبيّن قريبا.

وقد ذهب المجيزون الى أن نسخ القرآن بالسنّة أمر مشروع وواقع. وحقيقة ذلك أن السنة النبوية ليست إلا وحياً من الوحي. فان النبيّ ﷺ ما كان يتكلم على هواه أو بما يسوّل له مزاجه وانما هو التلقي المباشر عن طريق جبريل عليه السلام أو عن الطرق الاخرى التي كانت تتمثل فيها كيفيات الوحي. ويكفي أن يقول الله تعالى في هذا الشأن: « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » فما كان النبي الكريم ينطق به فهو ضرب من الوحي الرباني المنزل وهكذا الحديث الشريف فما كان النبي عليه السلام ليدلي به من عنده الا بعد ترْشيد ووحي من الله سبحانه فكان هذا الحديث من عند الله

---

(١) سورة المزمل آية ٢٠.

من حيث المعنى لكنه قد صيغ بلسان الرسول ﷺ وبيانه البشري. فانه مقبول من الوجهة الشرعية أن ينسخ القرآن بالسنّة ما دام الاثنان كلاهما قد ثبتا عن طريق الوحي.

وخالف آخرون في ذلك منهم الامام الشافعي والظاهرية اذ ذهبوا الى عدم نسخ القرآن بالسنّة. وقالوا: كل ما في القرآن مما يُدّعى نسخه بالسنّة ليست له علاقة بالنسخ وانما ذلك سبيل من سبل التبيين للقرآن لا النسخ له. وتلك هي مهمّة الرسول ﷺ. فهو عليه السلام قد نيط به أن يبين للناس القرآن ليفهموه. قال الله سبحانه في ذلك: «وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزل اليهم» هذه هي مهمّة النبيّ. وهي التفسير والتوضيح والتبيين لا الإزالة والرفع للحكم.

وذكر الامام الزركشي في كتابه البرهان أن مراد الشافعي بالتحديد هو أن الكتاب والسنّة لا يوجدان مختلفين الا ومع أحدهما مثله ناسخ له وهذا تعظيم لقدر الوجهين وابانة تعاضدهما وتوافقهما[1].

وبتعبير آخر فان الشافعي يشترط لنسخ القرآن بالسنة أن يكون مع السنّة الناسخة قرآن عاضد ومؤيد لها في النسخ. وكذلك يشترط لنسخ السنة بالقرآن أن يكون مع القرآن الناسخ سنّة عاضدة ومؤيدة له في النسخ، وذلك من أجل أن يتبين توافق القرآن والسنّة[2] أما الزعم بأن القرآن لا ينسخ بالسنّة وأن ذلك يسمى تبيينا لا نسخا فهو زعم مردود. ذلك أن التبيين لا ينافي النسخ وأن وظيفة السنّة غير قاصرة على التبيين وحده. بل ان السنّة كثيرا ما تستقل بالتشريع مما ليس له أصل في الكتاب وذلك تحريمه ﷺ كل ذي مخلب من الطيور وكل ذي ناب من السباع. وأن الانبياء لا يورثون أحدا من بعدهم مالاً بل إن ما يتركونه فهو صدقة فهو عليه الصلاة والسلام يقول: «نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة».

---

(١) البرهان جـ ٢ ص ٣٢

(٢) الاتقان جـ ٢ ص ٢١

وكذلك تحريم الزواج من عمّة الزوجة أو بنت أخيها أو خالتها أو بنت أختها فقد ثبت ذلك في السنّة في قوله عليه السلام: « لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها، ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها » وذلك تدليل على استقلال السنّة بالتشريع مما ليس في الكتاب الحكيم. وأساس ذلك أن النبيّ ﷺ مخول من ربه تخويلا أن يأتي من الأحكام والتشريع ما يعتبر تبيينا للقرآن أو ناسخا له مضافا اليه. يقول الرسول ﷺ في ذلك: « أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته يظن أن الله لم يحرّم شيئا الا ما حرّمه هذا القرآن. ألا اني قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر » ..

ومع ترجيحنا لمذهب القائلين بنسخ القرآن بالسنة فاننا نؤكد ما اشترطه جمهور العلماء من تواتر السنة من أجل أن ترقى الى مرتبة الناسخ للقرآن الكريم. وتواتر السنّة يفيد قطعية ثبوتها. وبغير التواتر تظل السنة مظنونة، وأنّى للمظنون أن يرقى لنسخ المقطوع به؟ وبذلك فان آيات الكتاب الحكيم لا تنسخها أخبار الآحاد لان ثبوتها ظنّي وهو لا ينسخ القطعي.

نموذجان من نسخ القرآن بالسنة

هذان نموذجان في نسخ القرآن بالسنّة على النحو الآتي:

الأول: قوله تعالى: « كُتب عليكم اذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيرا الوصيّة للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتّقين »[1] يفهم من هذا النص جواز الوصيّة للوالدين والاقربين، لكن ذلك منسوخ بقوله ﷺ: « إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصيّة لوارث » وقد اعترض المانعون من نسخ القرآن بالسنّة على هذا الدليل بأنه من أخبار الآحاد فلا يرقى الى نسخ القرآن، فضلا عن أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث.

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٠

ويمكن الرد على ذلك بأن هذا الحديث مستفيض وهو من الشهرة ما يرقى به الى مستوى المتواتر فساغ بذلك أن ينسخ القرآن. أما أن الآية منسوخة بآية المواريث فلا ينفي ذلك صفة النسخ عن الحديث. بمعنى أن الآية والحديث كليهما ناسخان والله أعلم.

الثاني: قوله تعالى: « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »[1]. فإن هذه الآية تقضي بامساك النساء الزواني في البيوت حتى الموت بعد أن يشهد عليهن أربعة من المؤمنين. لكن هذه الآية قد نسخت بقوله ﷺ: « خذوا عنّي خذوا عنّي. قد جعل الله لهن سبيلاً. البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثّيب بالثّيب جلد مائة والرجم »[2].

وقد رد ذلك المانعون وقالوا ان هذه قد نسختها الآية في سورة النور لا الحديث. والرد على ذلك أن النسخ بالحديث غير ممتنع ما دام الحديث قطعيا في ثبوته أو أنه بلغ من الاستفاضة والشهرة ما يجعله في مستوى القطعي. والنسخ بآية سورة النور لا ينفي صفة النسخ عن الحديث.

نسخ السنّة بالقرآن

لئن جاز للسنّة المتواترة أن تنسخ القرآن كالذي عليه جمهور العلماء فان من الأولى أن ينسخ القرآن السنّة. فالقرآن من جهته قطعي الثبوت، والسنّة اما أن تكون قطعية في ثبوتها واما أن تكون ظنّية. وفي كلتا الحالين فليس ثمة ما يمنع من نسخ السنّة بالقرآن. ذلك من جهة، ومن جهة أخرى فان السنّة والقرآن كليهما وحي منزل. فهما من هذا المنطلق متكافئان. فجاز بذلك أن ينسخ أحدهما الآخر.

(١) سورة النساء آية ١٥

(٢) رواه مسلم واصحاب السنن بإسناد عن عبادة بن الصامت

نماذج من نسخ السنّة بالقرآن

نعرض لبعض النماذج من نسخ السنّة بالقرآن في ما هو آت:

النموذج الاول: كان المسلمون في صلاتهم يستقبلون بيت المقدس وقد ظلوا كذلك طيلة مُكْثِهم في مكة وشطراً من المُكْث في المدينة بعد الهجرة. واستقبال المسلمين لبيت المقدس مستند الى سنّة النبي ﷺ وليس الى نص من قرآن. ثم نسخ ذلك بالقرآن في قوله تعالى: «فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره»[1] وذلك تكليف للمسلمين أن ينصرفوا عن قبلتهم الاولى ليتوجهوا بعد ذلك شطر المسجد الحرام.

النموذج الثاني: كان من بنود صلح الحديبية أن من جاء المسلمين من قريش مسلما ردّوه اليهم. فالتزم النبيّ بهذا العهدحتى إنه ردَّ أبا جندل وآخرين من أهل مكة جاءوا الى النبي مسلمين، وذلك وفاء بالعهد الذي ألزم به نفسه. ثم أتته امرأة لتعلن اسلامها أمام الرسول ﷺ وهي هاربة بدينها من الفتنة وطغيان الجاهلية فأراد النبيّ أن يردّها ليوفي بما عاهد المشركين عليه لولا أن نسخ الله بقرآنه هذا الحكم الذي قررته السنّة من قبل فقال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن. فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لاهن حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهنّ».

النموذج الثالث: وهو في صوم عاشوراء فقد كان ذلك ثابتاً عن طريق السنة ثم نسخ بالقرآن اذ أوجب صيام رمضان ليحل في الحكم محل عاشوراء فقال سبحانه «فمن شهد منكم الشهر فليصمه».

الخلط بين النسخ وغيره

ثمة خلط كبير بين حقيقة مفهوم النسخ من جهة وبعض الاصطلاحات

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٤

الاصولية من جهة ثانية. وهذه الاصطلاحات هي: المنْسأ ثم رفع ما كان عليه الامر سابقا، ثم تحريم ما كان مباحا، ثم تخصيص العموم. ثم تقييد المطلق. ثم تبيين المجمل.

المنسأ

معناه في اللغة المؤخر أو المؤجل، اسم مفعول وفعله نسأ أي أخر نقول نسأ الله أجله أي أخّره أو أمدّ في عمره. فأنسأته الدّيْن معناه أجلته الى حين. والإنساء التوقيت أو التأجيل الى أجل ممتد الى حين انتهاء السبب في التأجيل. ومنه النسيء وهو تأخير الشهر الحرام عن وقته لاستباحة القتال فيه يقول الله في ذلك: «انما النسيء زيادة في الكفر» والمنسأ في القرآن، ما تضمن حكماً لسبب مؤقت حتى يؤتى بحكم آخر جديد بعد زوال هذا السبب وذلك كالأمر بالصبر والعفو حين الضعف حتى إذا كانت القوة والمنعة جاء الأمر بالقتال. وعلى هذا فالمسلمون يلتزمون جانب الصبر والتماسك حين الهوان والضعف ثم اذا ظهرت شوكتهم واشتد عزمهم كلفوا بالقتال من غير مندوحة. فلا نقول بعد هذا إن الالتزام بالصبر والصفح منسوخ بالسيف والقتال بل ان ذلك محسوب من باب المنسأ. بمعنى أن كل حكم ورد يجب امتثاله في وقت من الاوقات لعلّة اقتضت ذلك الحكم حتى اذا زالت العلّة تحول الحكم الى غيره. وذلك يختلف عن النسخ الذي يعني ازالة الحكم الاول البتة حتى لا يجوز امتثاله مرة أخرى. أما المُنْسأ فيمكن امتثاله بحسب الحال التي يكون عليها المسلمون. فمثلا جاء في قوله تعالى: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره» قال بعضهم إن ذلك منسوخ بآية السيف. والحقيقة أنه غير منسوخ بل هو منسأ أي مؤجل بأجل تبعاً لتغير العلة التي يدور معها الحكم. وعلى هذا الاساس فان كثيرا مما اعتبره المتقدمون منسوخا لهو في حكم المنسأ.

رفع ما كان عليه الأمر سابقاً

جاء الاسلام بشريعته الوافية المتميزة عن كل شرائع الارض رغم ما يكون من توافق أحيانا بين شريعة الاسلام وغيرها من شرائع. لكن شريعة

الاسلام جاءت مخالفة لكثير من الانظمة والاوضاع التي كانت قائمة يوم مجيء الاسلام أو التي سبقته في المجيء والاسلام يقوم أساسا على تصور متميز مستقل وهو تبعاً لذلك سوف يأتي في الغالب مغايراً ـ سواء في الفروع أو الاصول والقواعد ـ للشرائع والملل الموجودة من قبل.

وعلى هذا الاساس نقول إن الاسلام قد رفع كثيراً مما كان عليه الامر في الجاهلية أو في شرائع من قبلنا. ذلك هو الاصطلاح الذي يناسب الحال وهو أكثر ملاءمة من التعبير بالنسخ. ولو سمي ذلك نسخا لاستتبع ذلك أن يكون القرآن كله أو جلّه ناسخا. لان القرآن جميعه أو معظمه جاء رافعاً لما كان عليه الناس من قبل سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب. ومن أمثلة ذلك:

أولا: ابطال نكاح زوجات الآباء. وذلك لقوله تعالى: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف» فقد كان الزواج من منكوحة الاب مباحا ثم رفع ذلك بالآية السابقة.

ثانيا: مشروعية القصاص والدية بعد أن كان ذلك غير معتبر في الشرائع السابقة[1]. وفي القصاص يقول القرآن: «يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القِصاص في القتلى».

وفي الدية يقول القرآن: «ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدّقوا».

ثالثا: الطلاق الثلاث بمفهومه في شريعة الاسلام من حيث تقسيمه ومراحله وما يتخلل ذلك من عدّة تعتدّها المطلّقة وعلاقة ذلك بالقروء أو غيره فانه ما كان معروفا قبل الاسلام. فما كان من طلاق الا ما ينطوي على تعسف يلحق بالزوجة في غالب الاحيان والظروف. يقول القرآن في مشروعية الطلاق الثلاث: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» وقد سئل النبيّ ﷺ عن الطلقة الثالثة فقال «أو تسريح بإحسان».

(١) بالنسبة للتوراة فقد ذكرت القصاص دون الدية. أما الانجيل فليس فيه ذكر للقصاص أو الدية.

رابعا: الظهار وهو قول الرجل لزوجته مغايظاً لها: «أنت عليّ كظهر أمي» فإن قالها باتت زوجته معلقة فلا هي زوجة، ولا هي مطلّقة. هكذا كانت حال المرأة مع الرجل في الجاهلية. لكن هذا الحكم الجائر قد رفع بشرع الاسلام اذ حرّم على الزوج أصلا أن يتلفظ بهذه العبارة الظالمة المنكودة. ولئن قالها فانه ينبغي أن تحيق به العقوبة وهي الكفّارة بتحرير رقبة، ومروراً بصيام شهرين متتابعين من قبل التّماس، وانتهاء باطعام ستين مسكينا. يقول الله في ذلك: «الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفوّ غفور. والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا».

تحريم ما كان مباحا أصلا

وذلك كالخمر والربا والميتة ولحم الخنزير وغير ذلك مما كان مباحا ثم حرّمه الاسلام. وليس ذلك من باب النسخ بل هو من باب تحريم المباح أصلا، ويشبه ذلك ما كان يصنعه المسلمون في صلاتهم من غير ظن بتحريم. وذلك كتكليم بعضهم بعضا في الصلاة حتى نزل قوله تعالى: «وقوموا لله قانتين» فقاموا قانتين لا يتكلم أحدهم بغير ما تقتضيه الصلاة من كلام. وكذلك كانوا يلتفتون يمنة ويسرة وهم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى: «الذين هم في صلاتهم خاشعون» فاستقاموا خاشعين لا يلتفتون.»

وجملة القول في هذه المسألة أن الناس يمارسون بعض الاعمال بحكم الاصل من الاباحة ثم جاءت الشريعة لتحريم ذلك كله فهو تحريم ما كان مباحا في الاصل وليس نسخاً[1].

---

(١) الموافقات جـ ٣ ص ١٠٦، ١٠٧

تخصيص العام

تضرب لذلك أمثلة من الكتاب منها قوله تعالى: «والشعراء يتّبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات..» هذا النص بعمومه يفيد أن جميع الشعراء زائغون غواة وانهم لا يجيدون غير صناعة الكلام الذي لا يقترن بعمل. لكن هذا النص قد عقبه استثناء يستفاد منه تخصيص فريق من الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فليس ذلك بالنسخ كما ظن بعض المتقدمين وانما هو من قبيل التخصيص للعموم.

وكذلك قوله تعالى: «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» زعم بعضهم أن ذلك منسوخ بقوله تعالى: «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» والصحيح أن ذلك ليس نسخا ولكنه تخصيص لعموم. فالنص الاول يفيد تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه جميعا على سبيل العموم. أما النص الثاني فهو تخصيص لهذا العموم اذ خرج من التحريم طعام الذين أوتوا الكتاب.

وكذلك قوله تعالى: «الاعراب أشد كفرا ونفاقاً» هو يفيد العموم الذي يدل في ظاهره على شدة كفر الاعراب ونفاقهم. لكن هذا العموم قد خصص بقوله تعالى: «ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر» وبذلك فقد خرج من عموم الكفر والنفاق للاعراب فريق مؤمن بالله واليوم الآخر. والمراد هو أن عموم الاعراب قد خصص بمن كفر. فذلك هو تخصيص للعموم وليس نسخاً كما قيل.

على أن العام من حيث تعريفه قال فيه السيوطي انه: لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر.

وصيغ العام التي تدلّ عليه هي:

كل. سواء كانت مبتدأ كقوله تعالى: «كل من عليها فان»

أو كانت تابعة كقوله: « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » والذي والتي وتثنيتهما وجمعهما كقوله تعالى: « والذي قال لوالديه أفٍ لكما » والمقصود من ذلك كل من صدر منه هذا القول.

وقوله: « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما »

وقوله: « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة ».

وقوله: « واللائي يئسن من المحيض »

وقوله: « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم »

وأي. كقوله تعالى: « أيّاً ما تدعوا فله الاسماء الحسنى »

وما. كقوله: « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »

ومن. كقوله: « من يعمل سوءا يجز به »

والمعرّف بأل. كقوله: « قد أفلح المؤمنون » وقوله « وأحل الله البيع »

والنكرة في سياق النفي والنهي. كقوله « وان من شيء الا عندنا خزائنه »

وقوله: « ذلك الكتاب لا ريب فيه »

وقوله: « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج »

والشرط. كقوله تعالى: « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله »

أقسام العام

يمكن تقسيم العام الى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: وهو الباقي على عمومه. كقوله تعالى « والله بكل شيء عليم » وقوله: « ان الله لا يظلم الناس شيئا » وقوله: « ولا يظلم ربك أحد » وقوله « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم.. » فان مثل هذه الآيات باقية على عمومها ولا تقبل التخصيص.

القسم الثاني: العامّ المراد به الخصوص. وذلك كقوله تعالى: « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » مع أن القائل هنا واحد وهو

نعيم بن مسعود وقيل غيره. ومما يدل على ذلك قوله بعدها في الآية: « انما ذلكم الشيطان . . » وقوله: « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » المراد بالناس هو إبراهيم الخليل عليه السلام.

القسم الثالث: المخصوص: وأمثلته كثيرة في القرآن. حتى قيل انه ما من عام الا وقد خصص. على أن المخصص للعام إما أن يكون متصلا أو منفصلا. أما المتصل فهو خمسة أنواع كما وردت في القرآن:

أولها: الاستثناء. نحو قوله تعالى: « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا ». وقوله: « والشعراء يتبعهم الغاوون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ».

ثانيها: الوصف. نحو قوله تعالى: « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ». والوصف المخصص للعموم هو كون الربائب من نساء مدخول بهن فان لم يكن مدخولا بهن فلا تحريم للزواج من الربائب حتى ولو بعد اجراء العقد.

ثالثها: الشرط. نحو قوله تعالى: « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ». فشرط المكاتبة أن يعلم فيهم الخير. وذلك تخصيص لعموم المكاتبة.

رابعها: الغاية. نحو قوله تعالى: « ولا تقربوهن حتى يطهرن » وقوله: « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله » وقوله: « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ».

خامسها: البدل الذي يكون بعضا من كل. نحو قوله تعالى: « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » والبدل « من » يتضمن تخصيصاً لعموم النص الذي يوجب فريضة الحج على كل مسلم.

أما المخصص العام المنفصل فهو أن تكون ثمة آية أخرى في موضع آخر من الكتاب الحكيم تخصص عموما من العمومات الواردة في حكم معين. وذلك نحو قوله تعالى: « والمطلّقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» وقد خصص هذا العموم بقوله في آية أخرى: « اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدّة » ثم بقوله: « وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » وقد بيّنا ذلك في موضعه سابقا عند المقارنة بين النسخ والتخصيص.

وقوله: « حُرّمت عليكم الميتة والدم » وهو مخصص بقوله: « وأحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيّارة ». فخرج من تحريم الميتة السمك لتخصيصه. وكذلك خرج من الدم ما كان غير مسفوح كالكبد والطحال وذلك في قوله تعالى « أو دماً مسفوحاً » مع أن ذلك قد ذكرته السنّة على سبيل التخصيص.

وقوله: « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » وذلك مخصوص بقوله: « فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » وذلك في الاماء اللواتي يقترفن الفاحشة. وقوله « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » فقد خص هذا العموم بقوله تعالى: « حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ».

تقييد المطلق

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها » فان ذلك يدل باطلاقه على أن من يطلب حرث الدنيا يؤته. لكن هذا الاطلاق قد قيّد بقوله تعالى: « ومن كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » فقوله: « لمن نريد » تقييد للايتاء المطلق في قوله « نؤته منها » وقد قيل إن ذلك نسخ. وهو في الحقيقة تقييد للمطلق وليس نسخا. ومثل هذا النص من

الاخبار، ومعلوم أن الاخبار لا تقبل النسخ.

ثم قوله تعالى:« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »هذا النص باطلاقه يفيد أن المطلّقات جميعا يلتزمن بالاعتداد ثلاثة قروء. لكن هذا الاطلاق مقيد بالمطلقات اللواتي لم يدخل بهن واللواتي يئسن من المحيض ثم اللواتي يضعن حملهن، فأولئك جميعا يخرجن من حكم المطلقات في النص الاول المطلق.

أما المطلقات اللائي لم يدخل بهن فيقول فيهن سبحانه:« يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن فما لكم عليهن من عِدّة تعتدّونها ».

وأما المطلّقات اللائي يئسن من المحيض فيقول فيهن:« واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر ».

وأما المطلقات الحوامل فأجلهن لانتهاء العدّة أن يضعن حملهن. يقول الله في ذلك:« وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ». هذه الآيات الثلاث الاخيرة قيل انها ناسخة لعموم الآية الاولى التي توجب التربص مدة ثلاثة قروء. والحقيقة أن ذلك ليس نسخا بل هو تقييد لمطلق. أي أن كل آية من الثلاث المذكورة جاءت مقيدة لمطلق الآية الاولى.

ونود أن نبين في صدد الحديث عن المطلق المقيد، أن المطلق هو ما دلَّ على المقصود بغير قيد. فهو عند تقييده يشبه العام اذا خُصص. وعلى ذلك فان المطلق اذا قيده دليل وجب أن يُصار في الحكم الى الدليل المقيِّد (بكسر الياء). وإذا لم يرد دليل مقيد بقي المطلق على اطلاقه والمقيد على تقييده.

ولعل الضابط في هذه المسألة أن الحكم اذا قُيد بشرط أو صفة مثلا ثم ورد حكم آخر مطلقا لا يفيده شيء وليس له أصل آخر يمكن رده إليه إلا ذلك المقيد فقد وجب تقييده به. أما ان كان له أصل آخر يمكن رده اليه، فلا ينبغي حينئذ رده الى أحدهما (المقيّد والاصل) لان رده الى أحدهما ليس بأولى من رده الى الآخر.[1]

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٣١.

ومن أمثلة التقييد بالشرط: اشتراط العدالة في الشهود على مفارقة الزوجة في طلاق أو فسخ أو نحوهما، وكذلك الشهود على مراجعة الزوجة في الطلاق الرجعي، كما في قوله تعالى: «وأشهدوا ذوي عدل منكم». ثم الشهود على الوصيّة في قوله: «شهادة بينكم اذا حضر أحدَكم الموتُ حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم». «وأشهدوا اذا تبايعتم» وقوله: «فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم». فانه يستفاد من التقييد بالشرط في بعض الاحكام وجوب تقييد الاحكام التي وردت مطلقة من هذا الصنف من الاحكام.

ومن أمثلة التقييد بالوصف ما اشترط في كفارة القتل من كون الرقبة مؤمنة، مع أنه ذكرها مطلقة من هذا القيد في كفارة الظهار واليمين. بذلك وجب أن يحمل المطلق على المقيّد اذ أن المطلق معتبر كالمقيّد في وصف الرقبة بالايمان.

وكذلك قد ذكرت الآية التيمم مطلقا مع أن غسل الايدي في الوضوء ذكر مقيدا ببلوغ المرافق. ويترتب على ذلك تقييد المطلق بالمقيّد المذكور وهو أن يبلغ المسح في اليدين عند التيمم المرافق.

ثم قوله تعالى: «ومن يكفر بالايمان فقد حَبِطَ عملُه» فان ذلك باطلاقه يفيد حبوط عمل المرتد حتى ولو مات بعد أمد من غير اعتبار للتوبة أو ذكر لها. لكن ذلك مقيد بالموت على الكفر بعد الردة دون توبة. وذلك في قوله تعالى: «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة».

ثم قوله تعالى: «قل لا أجد في ما أوحي اليّ محرَّما على طاعم يطعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا..». فقد ذكر تحريم أكل الدم حال كونه مسفوحا. وذلك تقييد. لكنه ذكر الدم في آية أخرى مطلقا من غير تقييد بسفح. من ذلك مثلا: «حُرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» ويترتب عليه أن يحمل المطلق على المقيّد ليكون المراد بالدم المحرّم ما كان مسفوحا. وذلك ما ذهب اليه كثير من الاصوليين منهم الامام الشافعي. وخالف آخرون اذ

ذهبوا الى عدم حمل المطلق فيما سبق من أحكام على المقيّد.

أما المثال على عدم حمل المطلق على المقيّد ولا على أصل آخر يمكن رده اليه، فهو ما ورد من تقييد الصوم بالتتابع في كفّارة القتل والظهار، ثم تقييده بالتفريق في صوم التمتع في الحج، وذلك الى جانب اطلاق كفارة اليمين وقضاء صوم رمضان فإن ذلك يبقى على اطلاقه من جوازه مفرقا ومتتابعا حتى لا يمكن حمله على أحدهما. لان أحدهما ليس بأولى من الآخر لعدم المرّجح[1].

تبيين المبهم

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها » هذا النص لا يخلو من إبهام. وذلك فيما يتعلق بالمراد من البيوت، فهل هي المسكونة أم غير المسكونة؟

ثم جاء النص الاخر ليبين أن المراد البيوت المسكونة وذلك لقوله تعالى « ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة ». فقد أباح في هذا النص دخول البيوت غير المسكونة بغير استئذان، مع أنه نهى في الآية الاولى عن الدخول بغير استئذان. فانه يفهم من ذلك أن البيوت التي ينبغي دخولها بعد الاستئذان في الآية الاولى هي البيوت المسكونة. فاننا نرفض أن يكون ذلك ضربا من النسخ فان ذلك ليس من النسخ في شيء بل انه تبيين لما أبهم.

وكذلك قوله تعالى: « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » ولا يخلو هذا النص من ابهام. فهل احتواء الذهب والفضة وادخارهما حرام حتى وان أديت زكاتهما باعتبار أن ذلك كنز؟ أم أن الكنز هو ما لم تؤد زكاته؟ فقد جاء التبيين لهذا الابهام بقوله تعالى: « خذ من أموالهم صدقة » وذلك تبيين وكشف عن المقصود بالكنز وهو ما لم تؤد زكاته، فأيما مال أديت زكاته فليس بكنز. لان علة التحريم في كنز المال تكمن في عدم أداء الزكاة.

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ٣١

وقوله تعالى: « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . . » الى قوله: « ذلك لمن خشي العنت منكم » ثمة شرطان في هذه الآية لجواز نكاح الاماء المؤمنات وهما: انعدام الطول وهو المال. ثم خشية الوقوع في العنت وهو الزنا وقد قيل ان قوله: « ذلك لمن خشي العنت منكم » ناسخ للشطر الاول من الآية « ومن لم يستطع منكم طولا . . » وهو قول مرفوض فان ذلك ليس نسخا بل هو تبيين لشرط الزواج من الاماء المؤمنات[1].

المجمل وتبيينه

المجمل من الاجمال. وهو الاتئاد والاعتدال وعدم الافراط. نقول أجمل الشيء أي جمعه عن تفرّقه. وأجمل الحساب أي رده الى الجملة.

والمجمل من القرآن ما لم تتضح دلالته ولا يفهم المراد منه على التمام. وهو نوعان. أحدهما: ما لا ينبني عليه تكليف، وذلك لاجماله أو ابهامه أو عدم وضوحه. فان كان كذلك فلا يصح أن يكلف بمقتضاه لان التكليف بذلك معتبر من باب التكليف بالمحال. وذلك كالمتشابه الذي ليس فيه تكليف الا الايمان به على المعنى المراد منه وليس على ما يفهمه منه المكلّف. يقول سبحانه: « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربّنا » وعلى ذلك فمن غير المتصور أن يكون ثمة مجمل لا يمكن الوقوف على مقصوده أو المراد منه ثم يكلف به.

ثانيهما: ما ينبني عليه تكليف. فلا بد من الكشف عن المراد بهذا النوع من المجمل ليتّضح معناه وما يقصد به حتى يتمكن المكلف من العمل به. وتبيين الاجمال يتحقق عن طريق القرآن أو السنّة فقد نيط بالرسول ﷺ أن يبيّن ما جاء في القرآن مبهما أو مجملا وقع به تكليف. يقول سبحانه: « وأنزلنا

---

(١) الموافقات جـ ٣ ص ١٠٣-١١٦

اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» واذا لم يستطع المكلف من معرفة المراد بالنص بات غير مكلف الا بالايمان به. أما التكليف بالعمل به فهو من باب التكليف بالمحال.

أسباب الاجمال

للاجمال أسباب كثيرة نذكر شطراً منها:

الاشتراك: وهو أن يحتمل اللفظ أكثر من معنى، لا دليل لترجيح واحد منها. نحو قوله تعالى:« والليل اذا عسعس» فان قوله عسعس يحتمل معنيين هما: أقبل. وأدبر. ونحو قوله تعالى:« يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» والقرء موضوع لكلا الحيض والطهر، فهو يحتمل المعنيين. وقوله تعالى:« أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» الضمير في «بيده» وهو فاعل يعفو يحتمل اثنين وذلك في العود عليهما وهما الزوج ووليّ الزوجة. فان كل واحد منهما بيده عقدة النكاح.

واحتمال العطف والاستئناف: يتضح ذلك في قوله تعالى عن الآيات المتشابهات:« وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربّنا وما يذّكر إلا أولو الألباب» قالوا في «والراسخون» تحتمل العطف والاستئناف وهما معنيان متغايران يترتب عليهما تغاير في معنى الآية كما بينّا في موضعه من المحكم والمتشابه.

ثم الحذف: وذلك كقوله تعالى:« وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهنّ وترغبون أن تنكحوهن» ثمة حذف يحتمل اثنين وهما: في، وعن. فيكون المعنى بذلك: وترغبون في أن تنكحوهن، ثم: وترغبون عن أن تنكحوهن. وعلى هذا فان المعنى يختلف بسبب الاستعمالين. وغير ذلك في القرآن كثير مما هو مجمل وأمكن تبيينه عن طريق القرآن أو السنّة. أما اجتهاد العلماء فانه يناط به تبيين المراد من النص في الحالات المجملة فقط كالتي بينّاها في الاشتراك أو الحذف أو العطف والاستئناف.

تبيين الإجمال في القرآن

بيّنا سابقا عند الكلام على التفسير أن القرآن يفسّر بعضه بعضا. وتلك حقيقة ندركها ونحن نقف على معاني كثير من الآيات قد بينتها آيات أخرى سواء كانت متصلة بها أو منفصلة عنها.

وبذلك فان تبيين المجمل من القرآن قد يكون متصلا بحيث يتعاقب المجمل ثم المبين الذي يفسّره في نفس الآية. وذلك كقوله تعالى: « وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود » فهذا الجزء من الآية ينطوي على اجمال. اذ لم يبيّن المقصود بالخيط الابيض والخيط الاسود. فهل هو الخيط على حقيقته اللغوية الظاهرة أم أنه ضرب من المجاز يشار من خلاله بالخيط الى شيء آخر؟ لكن هذا الاجمال قد اتضح وزال ابهامه لما قال « من الفجر ».

وقد يكون التبيين منفصلا وهو أن يأتي المبيّن في آية أخرى عقيب المجمل إمّا في السورة نفسها أو في غيرها من السور.

ومثال التبيين المنفصل الذي يكون في السورة نفسها قوله تعالى: « الطلاق مرّتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » هذا النص لم يبيّن مصير الزوجية بعد الطلقتين الاولى والثانية. وكل الذي يفهم من هذه الآية ان الطلاق مرّتان. وهو يقع خلالها رجعيا وما على الزوج بعد ذلك الا أن يراجع زوجته حال العدّة أو يسرّحها تسريحا من غير تبيين لحقيقة هذا التسريح. فهل هو رجعي أم بائن، وهل البينونة هذه صغرى أم كبرى؟ حتى جاء قوله تعالى في نفس السورة عقيب تلك الآية: « فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعدُ حتى تنكحَ زوجاً غيره » فهو مبيّن للنص السابق الذي ينطوي على اجمال. وهو يوضح مصير الزوجية بعد الطلقتين، وهي الطلقة الثالثة التي تبين فيها الزوجة بينونة كبرى بحيث لا يجوز لها ولزوجها المطلق أن يتناكحا مرة أخرى الا بعد نكاحها من زوج آخر. ويؤكد هذا التفسير ما أخرجه أحمد وأبو داود أن رجلا قال: يا

رسول الله أرأيت قول الله «الطلاق مرتان» فأين الثالثة؟ قال: «أو تسريح باحسان».

وقوله: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلّت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غيرَ محلّي الصيد وأنتم حرم» هذا النص مجمل فهو لا يزيد في الابانة والايضاح أكثر من اباحته لبهيمة الانعام وأنه استثنى من الاباحة «الا ما يتلى عليكم» ومثل هذا المفهوم لا يكشف عن أصناف المحرّمات من المطعومات. ثم اتضح هذا الاجمال واستبان بقوله تعالى من نفس السورة «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم ومـــا ذبح على النُّصب».

أما التبيين المنفصل الذي يقع في سورة أخرى فهو كقوله تعالى: «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم» في هذا النص إجمال وهو الابهام في حقيقة الكلمات التي تلقّاها آدم من ربه ليتوب عليه. ثم زال الابهام واتّضح الاجمال لما استبان المقصود بالكلمات وذلك بقوله تعالى: «قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» فهذه هي الكلمات التي قالها آدم وزوجه ليتوب الله عليهما عقيب معصيتهما له.

وقوله تعالى: «مالك يوم الدين» الدين في اللغة الجزاء أو الحساب. ذلك في اللغة. أما حقيقة المقصود بالدين في مفهومه الاصطلاحي الديني فانه يبيّنة قوله تعالى: «وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا. والامر يومئذ لله» ومثل هذه الاحداث العظيمة انما يقع في يوم القيامة وهو يوم الدين حيث الجزاء والحساب.

وقوله: «صراط الذين أنعمت عليهم» فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟ تبيّن ذلك في قوله تعالى: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذريّة آدم».

تبيين الاجمال في السنّة

لا ريب في أن السنّة تحمل القسط الاكبر من وظيفة التفسير للقرآن الكريم فهي المبينة له الكاشفة عن مضمونه وما يحويه من المقاصد والاسرار. ودليل ذلك قوله سبحانه: «وأنزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل اليهم» وتلك حقيقة لا ينكرها الا جاحد مغرض أو مكابر جهول. اذ لا غنى للقرآن عن السنّة لما تنطوي عليه من تفسير له وايضاح ومن إذهاب لما يتخلل بعض آياته من اللبس والابهام، ولولا السنّة الكاشفة المبيّنة المفسرة للكتاب الحكيم لظلت بعض آياته لغزا يستعصي على الحل أو الادراك. ومن جملة ذلك الاركان الاساسية الكبرى التي قد بني عليها الاسلام كله. وأولها وأهمها وأجلّها الصلاة التي لا يسبقها في التفوّق والخطورة الا الشهادتان. حتى ان اقامتها لهي اقامة للدين نفسه وان تركها لهو هدم للدين والعياذ بالله. ومع هذه الاهمية والخطورة والجلال لفريضة الصلاة فانها قد وردت في القرآن على نحو من الاجمال الذي يقتضي تبييناً يفسّر المراد بحقيقة الصلاة. يضاف الى ذلك أنها كثيرا ما ترد مقترنة بالزكاة وهي كذلك فريضة أساسية وكبرى لا يكتمل للمسلم دينه وايمانه الا اذا أدّاها تأدية وافية تامّة ما دام مالكا للنصاب.

قال سبحانه عن هاتين الفريضتين المجملتين:

«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين»

«فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم»

«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون»

«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدّموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير».

هذه الآيات في مثل فريضة الصلاة والزكاة أو احداهما تعتبر مجملة فتقتضي من التبيين ما يفسّرها حتى يتمكن المكلف من القيام بها. فانه لا يعقل أن يكلف أحد الناس بشيء لا يفهم حقيقته. وليس أجدر من الرسول

ﷺ بالقيام بهذه المهمة وهي التبيين الكاشف لمراد النص المتعلق بفريضة الصلاة والزكاة. فالصلاة من حيث أركانها وشرائطها وسننها ومندوباتها، ومن حيث مبطلاتها ومكروهاتها ومن حيث كيفية أدائها، فان ذلك كله قد تولت السنّة مهمة التوضيح والتبيين على نحو قولي وفعلي. فكان عليه الصلاة والسلام يقول وهو يعلّم المسلمين كيفية الصلاة «صلوا كما رأيتموني أصلّي» فكانت صلاته عليه الصلاة والسلام بما فيها من التكبير والقيام والقراءة والركوع والسجود والاطمئنان والقعود والتسليم، تبيينا لحقيقة الصلاة التي وردت في القرآن مجملة.

وثمة مثال آخر حول تعليم النبي المسلمين لامور الصلاة وهو ما روي عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال مخاطبا للمسيء في صلاته وهو خلاد بن رافع «اذا قمت الى الصلاة أسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكّبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها».

على أن شرط الصلاة الطهارة اذ لا تصح صلاة المسلم الا أن يكون طاهرا متوضئا. واذا لم يتيسر الماء لعدمه أو ضرورة الحاجة اليه أو غير ذلك من الاسباب والاعذار فانه يباح حينئذ للمسلم أن يتيمم بالتراب لقوله سبحانه «فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه» هذه الآية مجملة من حيث الكيفية التي يتم عليها التيمم بدل الوضوء، ومن حيث الكيفية التي يتم بها التطهير حال الجنابة. فهذا عمّار بن ياسر الصحابي المشهور يعوزه الادراك الحقيقي لمفهوم التيمم حال الجنابة فهو يقول: «بعثني رسول الله ﷺ في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تتمرَّغ الدابة ثم أتيت النبيّ ﷺ فذكرت له ذلك. فقال «انما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الارض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفّيه ووجهه».

أما في الزكاة فقد تولّت السنّة أيضا تبيين هذه الفريضة العظيمة التي ذكرها القرآن على نحو مجمل. فقال النبيّ ﷺ فيما أخرجه البخاري عن ابن عباس: « إن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم » وذلك من حديث ذكره النبيّ لمعاذ حينما بعثه الى اليمن.

وفي زكاة الانعام السوائم روى أنس أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه كتب له لما وجهه الى البحرين عاملا: « هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله في كل أربع وعشرين من الابل فما دونها، من الغنم، في كل خمس شاة. فاذا بلغت خمسا وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى فان لم تكن فابن لبون ذكر فإذا بلغت ستا وثلاثين الى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى فاذا بلغت ستا وأربعين الى ستين ففيها حقة فاذا بلغت واحدة وستين الى خمس وسبعين ففيها جذعة فاذا بلغت ستا وسبعين الى تسعين ففيها بنتا لبون فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقّتان طروقتا الجمل فاذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة ومن لم يكن معه الا أربع من الابل فليس فيها صدقة الا أن يشاء ربّها وفي صدقة الغنم في سائمتها اذا كانت أربعين الى عشرين ومائة شاة فاذا زادت على عشرين ومائة الى مائتين ففيها شاتان فاذا زادت على مائتين الى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه فاذا زادت على ثلاثمئة ففي كل مئة شاة فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة شاة واحدة فليس فيها صدقة الا أن يشاء ربّها ».

وفي زكاة البقر روى معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ بعثه الى اليمن فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعا أو تبيعة ومن كل أربعين مُسنة.

وفي زكاة النقدين (الفضّة والذهب) يقول الرسول ﷺ فيما رواه عنه عليّ بن أبي طالب: « اذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم وليس عليك شيء حتى يكون لك عشرون دينارا وحال عليها الحول

ففيها نصف دينار فما زاد فبحساب ذلك وليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول».

وكذلك ما تخرجه الارض من خيرات الزروع والثمرات فان فيها الزكاة على ما في ذلك من تفصيل لا مجال لذكره هنا. والمهم أن زكاة الزروع والثمرات قد أوردها القرآن مجملة إجمالا كقوله تعالى: «وآتوا حقه يوم حصاده» فان مثل هذا النص المجمل لا يجلّيه تمام التجلية الا حديث الرسول ﷺ لانه هو المخوّل بالاضطلاع بهذه المهمة الكبيرة القدسية.

ومن جملة ما قاله النبيّ في تبيين زكاة الزروع ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عشريا العشر، وفيما سقي بالنضح نصف العشر». ذلك بعض ما ورد في السنة عند تفصيل الطهارة والصلاة والزكاة وتبيين الاجمال الذي جاء في القرآن بشأن ذلك.

وكذلك الصوم فانه فريضة ركنية وهو من الاساسيات الكبيرة الاولى في الاسلام. وفرضيتها قد ذكرتها آيات الكتاب الحكيم في غير ما تفصيل توضيحي تستبين معه حقيقة الصوم من حيث ماهيته المحدّدة وما يتعلق به من واجبات أو مكروهات أو مبطلات أو ما يتعلق به من مسنونات أو مندوبات أو مباحات. وغير ذلك من أحكام لم تتعرض لها نصوص الكتاب الا اجمالا كقوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه. ومن كان مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون».

وقوله تعالى: «أحلّ لكم ليلةَ الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»

وقوله تعالى: «وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد».

هذه النصوص الكريمة يجللها الاجمال وهي بذلك تقتضي مزيدا من التبيين

تضطلع به السنّة المطهرة لتجليه تماما فتزيل ابهامه وتبيّن مجمله وتكشف مراده على نحو يستطيع المكلف أن يؤدي فريضة الصيام على التمام.

فعلى سبيل المثال تولّت السنة تحديد الشهر الذي يجب أن يصام بدءا بأوله الذي يتعيّن برؤية الهلال وانتهاء بآخره حسبما تكشف عنه الرؤية أيضا. يقول الرسول ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عمر: «اذا رأيتموه فصوموا واذا رأيتموه فأفطروا فان غُمَّ عليكم فاقدروا له».

وعن النية وضرورة تبييتها ليلة الصيام يقول الرسول ﷺ فيما رواه الخمسة عن حفصة أم المؤمنين: «من لم يبيّت الصيام قبل الفجر فلا صيام له».

وعن أهمية السحور في زيادة الاجر والبركة يقول عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الشيخان عن أنس: «تسحّروا فان في السُّحور بركة».

وفي الاكل والشرب نسيانا حال الصيام يقول الرسول ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة: «من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه».

وفي القيء حال الصيام يفرق النبي في الحكم بين الذي يقيء والذي يستقيء فيقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الخمسة عن أبي هريرة: «من ذرعه القيء فلا قضاء عليه ومن استقاء فعليه القضاء».

هذه النصوص قلّ من كُثْر فيما يتعلق بتبيين المجمل من القرآن وهي تدلّ على المرتبة العظيمة للسنّة وأهميتها في تفسير الكتاب الحكيم.

أما فريضة الحج وهو الركن الخامس من أركان الاسلام فقد ذكرها القرآن في بعض آيات منه على نحو يقتضي تبيينا. فقال سبحانه: «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» وآيات أخريات غير هذه في الحج لا تخلو من إجمال. وقد تحدث النبي ﷺ فيما نيط به من توضيح لحقيقة الحج وتبيين لما يلفّه من اجمال: «خذوا عني مناسككم» وكان عليه الصلاة والسلام يقود طوائف الحجيج الى مكة حيث البيت الحرام وما حوله من أماكن الحج الاخرى كعرفات ومنى والمزدلفة فيريهم مناسك الحج وكيفية القيام بهذه الفريضة بصورة عملية منظورة.

ترجمة القرآن

معنى الترجمة:

الترجمة في اللغة تعني التبيين والتوضيح. وعلى هذا الاساس سمّي ابن عبّاس ترجمان القرآن. وذلك لبراعته وقدرته على فهم الكتاب الحكيم وادراك ما فيه من حقائق ومعان وأسرار تمكن من اظهارها وكشفها للناس ليقفوا عليها.

ونقول ترجمان بفتح التاء وضمّها، والأوّل أشهر، وجمعها تراجم مع أن المشهور عرفا أن تراجم تستعمل جمعاً لترجمة، لكن التحقيق أن الصواب هو الاول.

وثمة تعريف آخر للترجمة ينسجم مع المفهوم العرفي لهذا الاصطلاح (الترجمة) وهو أن الترجمة تعني: التعبير عن الكلام بلغة أخرى.

أنواع الترجمة:

ثمة أقوال للباحثين في تصنيف الترجمة من حيث أنواعها أو أقسامها، غير أننا نقتضب من جملة ذلك نوعين للترجمة نحسب أنهما يعطيان صورة وافية متكاملة عن تصنيف الترجمة وعن تعدّد ضروبها. وهذان النوعان هما: الترجمة الحرفية. والترجمة التفسيرية أو المعنوية.

أما الترجمة الحرفية فهي نقل ذات القرآن من حيث الكلمة أو العبارة أو النص الى لغة أخرى غير العربية. وهذا النوع من الترجمة يقوم على النقل الحرفي للتعبير القرآني سواء كان ذلك مؤدياً الى اعطاء المعنى على حقيقته ـ وذلك في بعض الحروف أو الافعال أو الاسماء ـ أو كان هذا الاعطاء جزئيا وهو الغالب. مثلما هو واضح من خلال الترجمات التي يمارسها كثيرون بدافع من أغراض شتى تتفاوت بين القصد في التشويه أو الرغبة في الاطلاع.

والمترجم الذي يعتمد هذا النوع من الترجمة لا يعبأ كثيرا بمقاصد القرآن وأغراضه الانسانية النبيلة ولا يعبأ كذلك بما يتضمنه القرآن من مختلف الحقائق والعلوم كأسباب النزول ووجوه الاعجاز وسموّ المعاني والاهداف وروعة المبنى والاسلوب. كل ذلك مما لا يعبأ به المترجم وهو غير معنيّ باظهاره أو التركيز عليه والاهتمام به، فكل الذي يبغيه محصور في النقل المجرّد للكلمة كيفما كان هذا النقل. وما علم المترجم على هذا النحو انه أساء للقرآن أبلغ اساءة وأنه أذهب عن القرآن اشراقة الاعجاز الذي يتدفق من خلال كلماته وآياته العربية.

الترجمة التفسيرية:

وهي نقل التفسير الراجح للقرآن الى لغة أخرى غير العربية. ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الترجمة: ترجمة تفسير القرآن. أو تفسير القرآن بلغة كذا.. وعلى هذا الاساس فان الترجمة التفسيرية تقوم على نقل التفسير الاجمالي للآية أو العبارة القرآنية وليس على تحويل الكلمة الى ما يقابلها في اللغة الاخرى.

وكيفية ذلك أن يكوّن المترجم في ذهنه وتصوره فكرة اجمالية وافية عن مقصود الآية أو العبارة لينقلها بعد ذلك الى ما يريده من لغة. ولا يشترط في مثل هذا النوع أن نترجم الكلمة نفسها لتستبدل بكلمة أخرى تحتل مكانها بغضّ النظر عما يؤول اليه ذلك من تمسيخ لروائع القرآن وابطال لما يتجلى فيه من إعجاز. فان أقصى ما يبتغيه المترجم ليكون عمله مقبولا ومشروعا هو أن يفسر القرآن بلغة غير عربية، أو أن يحوّل تفسير القرآن الى لغة أخرى غير لغة القرآن.

وبذلك فانه لا جُناح على المترجم الذي يضطلع بترجمة ما ورد من شروح أو تفاسير للقرآن مما أدلى به العلماء والمفسرون. ولا جرم أن يكون ذلك ألصق بالصواب والغاية المشروعة، وهو كذلك أبعد من الزلل ومن السقوط في وهدة المجاوزة والنيل من كتاب الله الحكيم بإبطال إعجازه وتمسيخ معانيه

وتبديد روائعه الباهرة التي تتحدى جهابذة الكلام والمعارف على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه. وأساس التحدي قائم على عربية القرآن. وذلك هو مبعث الاعجاز في الكتاب المنزل. وهو من حيث الاسلوب والنظم وروعة العبارة مبنّي على كونه عربيا، أما اذا تحوّل بفعل البشر الى لغة أخرى فان هذا التحويل المحرّم المقبوح سوف يؤدي الى حقيقتين.

احداهما: أن هذا التحويل لن يكتب له النجاح بل ان مصيره الاخفاق المطبق والعبث المتجنّي الذي يضيع فيه الوقت هدرا. فهو وقت مضيّع ومقتول قد بدّده التطاول العابث والتجاوز المحظور.

ثانيهما: ان محاولات الترجمة على هذا النوع من الحرفية والنصّية لا تؤدي للقرآن من الخدمة ولو مثقال ذرة أو قطمير. لا بل انها تتسبب في افساد المعاني القرآنية وتحطيم هذا الكتاب تحطيما يقضي على ما فيه من أوجه العذوبة والجمال والرصانة.

أهمية تعلم العربية

العربية لغة القرآن فهي سبيل البلوغ الى مقاصده العليا وأسراره المبثوثة عبر آياته ومفرداته وعبر مقاطعه وعباراته الحافلة بفيوض كثيفة شتى من علوم الانسان والطبيعة والسياسة والمجتمع. وغير ذلك من زاخر العلوم التي تحتشد في هذا الكتاب الكريم.

ولقائل أن يقول إن القرآن بكل ما فيه من غايات وعلوم يمكن إدراكه عن غير العربية اذا ما ترجم تفسيره إلى لغات الشعوب الأخرى ممن لا ينطقون باللسان العربي. ذلك صواب الى حد. لكن الصواب كله أن تتحقق مدركات القرآن وما فيه من علوم وأسرار وما يتدفق به من روائع وظواهر مختلفة في الاعجاز..

ان الصواب كله أن تستبين كل هذه العلوم والظواهر عن طريق العربية، باعتبارها المساق المباشر الى استيعاب هذه العلوم والظواهر. وقد بيّنا في

حينه قبل قليل أن ظاهرة الاعجاز القرآني من حيث الروعة في الكلمة والعبارة والاسلوب انما مردها الى العربية التي صيغ منها القرآن. أو أن العربية هي الاساس في تصور الاعجاز للقرآن، فلو حُوّل القرآن الى لغات أخرى لذهب نوره الفيّاض وانطفأت فيه جذوة العذوبة والطلاوة التي تجلله من أوله الى آخره.

على أننا لا نميل الى القول بوجوب تعلم العربية على المسلم. فان مثل هذا القول لا يستند الى دليل من أدلة الشريعة المعتمدة. ولا أحسب مثل هذا القول الا ضرباً من الإفرازات الكلامية المغالية التي تتوارد على الألسن من غير برهان.

أما قولنا بعدم وجوب تعلم العربية فانه يستند الى أساسين من البرهان. أولهما افتقاد الدليل الذي يمكن الركون اليه كما ذكرنا. وثانيهما أن تكليف المسلم بتعلم العربية وجوبا ينطوي على مضايقة أو حرج. ومعلوم أن الحرج في الشريعة مرفوع فلا يكلف به المسلم. وفي هذا يقول الله سبحانه: « وما جعل عليكم في الدين من حرج ».

ويستثنى من ذلك أن يتعلم المسلم من العربية ما يمكنه من التلاوة في الصلاة حتى تتأدى الصلاة على وجهها المشروع خصوصا اذا علمنا أن الصلاة لا تقوم صحيحة مشروعة الا بفاتحة الكتاب وهي احدى الاركان الاساسية في هذه الفريضة العظيمة.

وبذلك فان هذا الاستثناء من التعلم تبرأ به ذمة المسلم لكي يؤدي فريضة الصلاة التي تقوم على جملة أركان أساسية أهمها قراءة بعض من القرآن مضافا الى فاتحة الكتاب. وفي تلاوة بعض منه يقول الله سبحانه: « فاقرأوا ما تيسر من القرآن » وفي أهمية الفاتحة وركنيتها يقول الرسول ﷺ فيما اتفق عليه الشيخان عن عبادة بن الصامت: « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن » وفي رواية أخرى للدار قطني ان النبيّ ﷺ قال: « لا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ».

وخلاصة القول في هذه المسألة أنه لا وجوب لتعليم العربية الا بقدر ما تقوم به الصلاة صحيحة وهي قراءة الفاتحة وبعض مما تيسر من القرآن مهما قلّ حتى ولو كانت القراءة من غير العربي تقوم على الحفظ المجرد غير المقترن بوعي المقاصد التي تحملها كلمات القرآن ما دامت هذه الكلمات تتلى على سبيل التعبّد .

أهمية ترجمة تفسير القرآن

بينّا سابقا أن الترجمة المشروعة والمعتبرة هي التفسيرية . وهي التي تقوم على نقل التفسير لكلمات الله من العربية الى غيرها من اللغات كالفارسية أو التركية أو الاوردية أو الافغانية أو الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية أو غيرها من لغات الارض. وبينّا في حينه أيضا مدى خطورة الترجمة الحرفية التي تقوم على نقل الكلمة القرآنية من العربية الى ما يقابلها من لغات أخرى . وذكرنا أن هذا النوع من الترجمة محظور شرعا وهو حرام لما يتسبب فيه من تحطيم للكتاب الحكيم واذهاب لمقاصده وروائعه وأسراره وإعجازه .

أما ترجمة التفسير للقرآن فهي سبيل لا مندوحة عنها لايصال المعاني القرآنية الى أذهان الناس من غير العرب سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين . ومعلوم أن تبليغ الدعوة الاسلامية للناس فريضة وأن نشر حقائق الاسلام والقرآن كما تقف عليها البشرية أمر مفروض ومحتوم . ومن ثم فينبغي على أولي الأمر من المسلمين ـ العلماء والساسة ـ أن يضطلعوا بهذه المهمة الجليلة في توصيل حقائق القرآن وتعاليمه الى الناس كافة في مختلف بقاع المعمورة وعلى مختلف اللغات الرئيسية المنطوقة في هذا العالم . واذا فرّط المسلمون في هذا الشأن فذلكم تفريط كبير يضاف الى سلسلة كبيرة من سوابق التفريط في كتاب الله والتقصير التعيس في تبليغ رسالة الاسلام للبشرية .

ومثل هذه القضية لا يجوز أن تقع من الاذهان موقع الإهمال والنسيان والا فان المسلمين آثمون مقصّرون وهم كذلك مفرّطون محجوجون أمام

الشعوب الذين لا يعرفون عن القرآن والاسلام شيئا والذين يحجّون المسلمين حين السؤال في يوم العرْض الاكبر والحساب العسير. يوم القيامة.

حكم الترجمة الحرفية

ونود هنا ألا نبرح حتى نقرر حقيقتين أساسيتين في هذه المسألة.

الحقيقة الأولى: ان الترجمة الحرفية من الوجهة الشرعية محظورة ولا تجوز باطلاق. وذلك لان هذا النوع من الترجمة يهدم ما في القرآن من كبريات الخصائص ويذهب بما يجلّل الكتاب الحكيم من مزايا فذة لا تتحقق الا من خلال كلماته العربية المتّسقة على نحو يفوق كل اتساق. وقد بيّنا سابقا أن الترجمة التي تقوم على نقل ذات الكلمة الى ما يقابلها في اللغات الأخرى أمر بالغ الخطورة فيما يودي بالقرآن الى التحلل نهائيا من أية خصيصة من خصائص الاعجاز سواء كان ذلك في الكلمة من حيث ايقاعها المؤثر ومن حيث موضعها المناسب في السياق أو من حيث المضمون الرفيع المتزاحم الذي تحمله هذه الكلمة. وسوف نعرض لبعض النماذج القرآنية في الفقرة الثانية لنبّين أن أية ترجمة حرفية مهما برع فيها المترجمون فانها عاجزة كل العجز عن الاحتفاظ بخصائص القرآن من الروعة والعذوبة والاشراق والاعجاز.

والمهم لدي في هذه الفقرة أن أركز على خطورة الترجمة الحرفية وان ذلك لهو مجاوزة بالمترجم الى ما يقارف به اعتداء على الكتاب الحكيم بما في ذلك من إذهاب لمزيته الكبرى في الاعجاز او تمسيخ لما يجلّله ويتخلّله ويحوطه من خصائص مميزة تسمو به الى القمة الرفيعة من الكلام الفذ الذي يهبط دونه كل كلام.

الحقيقة الثانية: ان الترجمة الحرفية لا تصدق على حقيقة ما تتضمه الكلمات القرآنية من مقاصد وغايات، وما يجللها من ضروب في التصوير وطرائق الاداء والتعبير، فلا جرم أن يكون نقل مثل هذه المعاني والحقائق القرآنية الى غير العربية، أمرا مستحيلا.

ان من المستحيل أن تتحقق أغراض القرآن في التصوير وأغراضه في التحدي واشاعة الجلال والجمال عن طريق اللغات الاخرى. فتلك استحالة عادية أو واقعية يظل يصطدم بها المترجمون كلما تمادوا في الاجتراء على الكتاب المعجز الحكيم وهم يصطنعون ترجمته الى أية لغة من اللغات.

ونود أن نبين الاستحالة العادية أو الواقعية التي تبوء بها الترجمة الحرفية للقرآن وأن هذه ما كانت لتفلح في نقل المعاني القرآنية على وجه الحقيقة والكمال ولا معشار ذلك الى غير العربية. نتبين هذه الاستحالة من خلال نماذج من القرآن نسجلها هنا كيما نتحقق من فداحة الخطأ في الإقدام على ترجمة القرآن بحرفيته. وهي نماذج كريمة تحمل مدلولات شتى غاية في روعة التصوير والأداء من خلال أسلوب فريد متميز وكلمات معبرة مقدورة لا يصلح الإبدال بغيرها البتة. ومن هذه النماذج القرآنية قوله تعالى:

« همّاز مشّاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتلّ بعد ذلك زنيم »

« أفمن يمشي مكبّا على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّا على صراط مستقيم »

« فما لهم عن التذكرة مُعرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرّت من قسورة. بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منّشرة ».

« لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللّوامة. أيحسب الانسان ألّن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوّي بنانَه »

« نساؤكم حَرْثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم »

« أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباسٌ لكم وأنتم لباس لهنّ »

« أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ».

« ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً. وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصّلناه تفصيلا وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً. إقرأ كتابك

كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولا، واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميرا»

مثل هذه الآيات القرآنية بعباراتها وكلماتها المتميزة المتسقة، والتي جيء بها على هذا النسق من الترتيب والاصطفاء وعلى هذه الكيفية من كمال الاداء وجمال الاسلوب، ما كان للترجمة الحرفية أن تظفر بأدنى مقادير النّجح والافلاح في نقلها وتحويلها الى أية لغة كانت. وأية ترجمة من هذا القبيل ليست غير عبث من العبث يتلهى به الفارغون والمستهترون بكلام الله من الذين يحسبون أنهم من هذه الترجمة على شيء، وهم في الحقيقة مكابرون وللكتاب الحكيم محرّفون ظالمون.

والحمد لله رب العالمين.

التوافق المترابط في القرآن

نتناول في هذا الموضوع ما يتجلى في القرآن للمتدبر من توافق مترابط ومن اتساق منسجم. وهذه حقيقة مكشوفة لكل ذي لب متبصر ولكل ذي نباهة مذَّكِر يتلو كلام الله في وعي وتذكر واستيعاب. حقيقة تستبين لأولي المذاق الموهوب من الذين يقرأون الكتاب في ترديد متكرر، وهم لا يرددون التلاوة في تكرار مستديم الا وتأخذ قلوبهم واسماعهم روعة الكلام المتسق وحلاوة التعبير المتشاد الذي يتلو بعضه بعضا في غاية الجمال والعذوبة وفي غاية التماسك والارتباط سواء في ذلك السورة وما يسبقها أو يتبعها من سورة، ثم الاية وما يحيط بها أو يليها من آيات، وكذلك الكلمة من حيث موقعها في الآية أو العبارة، ومن حيث اصطفاؤها هي بالذات لتكون في المكان المناسب ولتختار لاحتواء المعنى الرفيع الكبير المناسب وهو اختيار رباني يفوق كل اختيار من اختيارات البشر ويعلو على كل ارادة من ارادات

المخاليق من أهل البيان واللسان الذين يجهدون ناشطين لانتقاء الكلمة المناسبة للمعنى المناسب، وهم في مثل هذا الاختيار ربما حالفهم التوفيق والنُّجْحُ مرة أو مرات لكنهم طالما أخفقوا بالغ الاخفاق في هذا الفن المتميز.

نود أن نناقش مثل هذه المسائل لنستخلص التصور الأوفى حول توافق القرآن في سوره واياته وكلماته وحول ترابطه الاجلّ ترابطاً وافياً كاملاً يفيض بالتناسق والمتانة ويتدفق بالاشراق والاتساق ضمن أسلوب رباني عجيب لا يضاهيه أسلوب.

ونود لدى المناقشة أن نعزز القول بجملة نماذج من الكتاب الحكيم نسوقها لنتحقق في يقين ودراية مبلغ التوافق المترابط في القرآن. والله المستعان.

التوافق بين السور

لدى إعمال الفكر والنظر في القرآن يمكن ادراك القضايا التالية:

القضية الاولى: معظم كل من السور المكية والمدنية يأتي في القرآن متتاليا بحيث تتبع السورة أختها الاخرى من نفس الصنف سواء كان ذلك مكيا او مدنيا. واذا قلبنا في صفحات الكتاب الحكيم وتتبعنا اسماء السور وجدنا أن السور المكية يرد غالبها في القرآن يتلو بعضها بعضا وكذلك المدنية. فها هي جملة من السور المدنية ترد في القرآن يتبع بعضها بعضا نسجلها على الترتيب التالي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، حتى إن السورة الاولى في الكتاب من حيث الترتيب وهي فاتحة الكتاب، فإنها معتبرة مدنية ومكية في آن واحد، ذلك لما بيّناه في حينه أن هذه السورة قد نزلت مرتين، احداهما في مكة والأخرى في المدينة، وكذلك السور: محمد، الفتح، الحجرات.

ثم السور: الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم

ثم سورتا: البينة والزلزلة.

وهناك سور مدنية أخرى ترد فيها ثنتان متتابعتان غير ما بينا آنفا.

ثم نعرض بعد ذلك لجملة من السور المكية ترد في القرآن يتبع بعضها بعضا سواء في ذلك ثنتان أو ثلاث أو أكثر تأتي مرتبة على تعاقب وهي على النحو التالي:

يونس، هود، يوسف.

ثم: ابراهيم، الحجر، النحل، الاسراء، الكهف، مريم، طه، الانبياء.

ثم: الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

ثم: سبأ، فاطر، يس، الصافات، ص، الزمر، غافر، فُصّلت، الشورى

ثم: سورتا الانعام والاعراف.

هذه نماذج من السور المتعاقبة من كلا الصنفين (المكي والمدني) ذكرناها لنبين أن السور في غالبها جاءت في القرآن متعاقبة بحسب الصنف الذي تنتمي اليه كل سورة فالسور المدنية متعاقبة في غالبها، وكذلك المكية في غالبها متعاقبة يتلو بعضها بعضا. وقد يخرج على هذه القاعدة نماذج أخرى من السور سواء في ذلك المكية أو المدنية التي تأتي في القرآن لتتخلل صنفا آخر غير الصنف الذي تنتمي اليه وذلك لحكمة بيانية أو معنوية ذات علاقة بقضية الاعجاز قد ندركها ونستطيع أن نقف عليها أو يعز علينا ادراكها والوقوف عليها.

القضية الثانية: وهي أن السور المكية جميعها تؤول الى مآل كبير واحد هو تثبيت القواعد الاساسية الاولى في هذا الدين الواسع المتين، وهي التي تتمثل في مجموعة العقيدة والعبادات والاخلاق. وهذه بحق لهي الاسس الركينة التي يقوم عليها الدين كله فهي أسس عظيمة وهامة لا قوام للاسلام من دونها وهي بمثابة الاصول الضاربة في أغوار الكينونة البشرية والمركوزة في صميم الحياة والافراد والمجتمعات لتقوم عليها بالتالي بقية النظام من قضايا التشريع.

والمتدبر للسور المكية جميعها يلاحظ حقيقة التكامل والتضافر بين مختلف

هذه السور وهي تتناول قضايا العقيدة والعبادات والاخلاق وذلك في تبيين مفصل تارة وفي ايجاز شامل تحتشد فيه المعاني المختلفة احتشاداً محبباً ميسوراً لا يعرف الالتواء أو التعقيد تارة اخرى. كل ذلك في آيات كريمة مرغوبة تتعاقب تعاقبا ليناً يسيراً. وهي تخاطب الانسان كله حيث العقل والفطرة والحس والوجدان واذا بالخطاب يؤثر في الانسان تأثيراً وينفذ الى صميم الكينونة فيه فيهزها من الاعماق: «ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة من الكتاب الحكيم لتكون نماذج مشهودة توضح أن هذه السور المكية المتعاقبة تتضافر مجتمعة للتركيز على القضايا الاساسية في الاسلام وكأنما هي في مجموعها تؤلف سورة مؤتلفة موحدة. فهذه سورة الانعام تتناول مواضيع شتى تأتي في طليعتها القضية الاساسية الكبرى وهي العقيدة التي تقوم أول ما تقوم على التوحيد الكامل والاقرار المطلق لله بالالهية وأنه سبحانه خالق كل شيء وهو البديع لما في الحياة والوجود من كائنات وأشياء وخلائق وانه سبحانه الاله المعبود الذي يطلع على الأستار والأسرار والذي يعلم السر والجهر وهو الذي أوجد الانسان من طين لتنتشر سلالته وذريته في مناحي الارض طيلة هذا الزمان الى ان يفنى الزمان، يقول سبحانه في ذلك: «الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذي خلقكم من طين ثم قضى اجلا واجلٌ مسمى عنده ثم أنتم تمترون. وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون»

وفي التركيز على الخصيصة الكبرى من خصائص الله وهي الالهية يقول سبحانه: «قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يُطعَم قل إني امرت أن اكون أول من اسلم ولا تكونن من المشركين».

ويقول سبحانه ايضا: «وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيدٌ بيني وبينكم وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به

ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو اله واحد وإنني بريء مما تشركون».

وفي حقيقة الحساب والمساءلة العسيرة بدءا بالسؤال في القبر عقب الموت طيلة أيام الدنيا ومرورا بالوقفات المكروبة الرهيبة يوم القيامة حيث العذاب الكبير الذي لا تطيقه الانفس ولا تحتمله الابدان والجسوم إلا راغمة مقهورة وهي تطوي في أحشائها لسعات الحريق المستعر الذي يصطلي به الخاسرون اصطلاء، في ذلك كله يقول سبحانه: «ولو ترى إذْ وُقِفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون»

وفي مثل هذه المواقف العصيبة التي ترتجف لهولها القلوب والأبدان يقول سبحانه في سكرات الموت حيث النزع العسير المكروب الذي تشقى به الارواح الا من كتبت له الرحمة واللين، وكذلك في مجيء الناس يوم تقوم الساعة وهم ضعفاء خاسرون عراة فرادى تحيط بهم قوارع العذاب والخوف من كل مكان في ذلك كله يقول سبحانه: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون. ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولنَّاكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون».

وفي العبادات يمارسها المؤمن وهو يتقرب بها الى الله فينال من جرائها الحظوة وينجو من العذاب. وبها يتوجه المؤمن بقلبه وحسه ومشاعره جميعا الى الاله المعبود مالك الملك ورب الارباب ليحتسب من العابدين له والمخلصين. في ذلك كله يقول الله عز وعلا في هذه السورة (الانعام)

«وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

ويقول سبحانه أيضاً: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى الا مثلها وهم لا يُظلمون».

ويقول عز من قائل: «قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»

وفي الاخلاق الكريمة التي يكون عليها المسلم وهو يمارس شؤون حياته وعيشه في هذه الدنيا يقول الله في هذه السورة: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون»

وتعرض السورة كذلك لنماذج من القصص والامثال التي تذكر بأخبار السالفين فيما يحمل القارىء المذكر على الاتعاظ والاستفادة ثم التحسب الحذر لمصائر الامم الخالية التي عتت عن أمر ربها وضلّت الطريق فهوت في الجحيم وكانت في الاذلين.

على أن المراد من مثل هذه النماذج هو تركيز العقيدة في النفوس وشحذ الهمم والطاقات على التوجه لله بالعبادة الصحيحة المشروعة باخلاص. ثم الاستفادة من هذه الدروس والمواقف لتكون موعظة للناس عسى أن يتجنبوا مزالق السالفين ومواطن الضعف والضلالة فيهم فيجتنبوها ويحاذروا منها.

ومن جملة ذلك قوله سبحانه: «ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا

عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مُبْلِسون. فقُطع دابُر القومِ الذينَ ظلموا والحمد لله رب العالمين».

وهذه سورة الاعراف وهي مكية تلي في الترتيب سورة الانعام، وهي تتناول ايضا مواضيع مختلفة ومتعددة في الاساسيات الكبرى وهي العقيدة والعبادات والاخلاق يضاف الى ذلك مجموعة الامثال والمواقف والقصص التي تؤدي دورها الجليل في ترسيخ العقيدة الاسلامية وفي تثبيت المبادىء والقيم الاسلامية من عبادات واخلاق وغيرها مما يوجب على المسلم أن يلتزمه في حياته سلوكا ومظهراً. وهي أمور وقضايا قد تناولتها سورة الأنعام السابقة مع التفاوت والاختلاف في الكلمات والتعبير.

وفي القضية الاساسية الاولى ـ يقول الله في هذه السورة:« ان ربكم اللهُ الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجومُ مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» وقال سبحانه:« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السمواتِ والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون».

وفي حقيقة الساعة وأنها قائمة لا ريب فيها وأنها قد ثقل علمها في السموات والارض فلا يعلم أيان مرساها الا الله، يقول سبحانه:« يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يُجلّيها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفيّ عنها قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون»

وفي العبادة يمارسها المؤمن في طواعية واخلاص يرجو بها رحمة ربه ليكون دائما من الذاكرين وليكتب عند الله من الفائزين يقول سبحانه:« واذا قُرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم تُرحمون. واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين.

ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » .

وفي السلوك الفاضل والخلق الكريم الذي ينبثق عن عقيدة راسخة في النفس والذي يتجلى في مظهر الانسان المؤمن، يقول الله سبحانه في هذه السورة : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »

وفي الدعوة الى دين الله في احتمال للاذى واصطبار على المكاره والعفو عن المسيئين والسفهاء والجهلة الذين يقفون في طريق الدعوة الى الله، يقول سبحانه : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وفي هذه السورة يقص علينا القرآن من أخبار الامم الخالية اذ بعث فيهم رسلا منهم يبلغونهم رسالات ربهم وينذرونهم لقاءه ويحذرونهم من مخالفة أمره وعصيانه ومن بينهم نوح عليه السلام وخبر الطوفان الذي طغى على الارض فاخذ القوم الكافرين أخذة رابية .

ثم هود اذْ بُعِث في قوم فاسدين عتاة وهم عاد الذين أشركوا بربهم وعتوا عن أمره واستكبروا على الحق لما جاءهم ثم آذوا نبيهم هودا والذين آمنوا معه فانتقم الله منهم اشد انتقام اذ أخذهم بريح صرصر عاتية أتت عليهم فجعلتهم كالرميم .

ثم صالح النبي الكريم اذ بعثه ربه في قومه ثمود وجعل لهم ناقة الله آية لتستيقن نفوسهم وتطمئن بالايمان لكنهم فسقوا وعقروا ناقة الله فدمدم الله عليهم ودمرهم بالرجفة فجعلهم هالكين جاثمين .

ثم لوط بعثه الله في قوم مجرمين فسقة من ذوي الطبائع الشاذة المريضة التي تستمرىء الفحش في أبشع أشكاله وصوره وهو الالتياط أو نزو الـذُّكْـران على الـذُّكْـران في مناكحة غريبة قذرة كان هؤلاء القوم يمارسونها في وقاحة وفي موات لاية ظاهرة من ظواهر الحس السليم . ولقد حذرهم نبيهم لوط فما

لانوا ولا استجابوا بل استنفرتهم الشهوة المريضة القذرة فظلوا على تلك الحال حتى أتاهم أمر الله بالتدمير اذ جعل فيهم الارض عاليها سافلها وأمطرهم بعد ذلك حجارة من السماء جزاء من الله ونكالا بما اكتسبوا من الفحش.

ثم نبي الله شعيب الذي ارسل الى قوم مدين فدعاهم الى عبادة الله وحده وأمرهم بايفاء الكيل والميزان والا يبخسوا الناس أشياءهم ولا يكونوا في الارض من المفسدين الذين يصدون عن سبيل الله. لكنهم أبوا وطغوا واستعلوا على امر الله فأخذهم الله بالعذاب البئيس وهي الرجفة العاتية المدمرة فباتوا في ديارهم جاثمين صرعى.

وفي ختام هذه القصص يقول الله في السورة معلنا منبهاً محذراً: « وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرّعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفَوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون »

وبعد هذا القصص تعرض السورة نفسها الى امثال يضربها القرآن للناس عسى أن تلين نفوسهم لدى سماع الحق والموعظة أو أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من السماء من بلاغ. وهي أمثال تؤلفها الكلمات الربانية المصطفاة والتي ترددها الالسن الذاكرة ثم تعيها الاذهان والأسماع وعياً مؤثراً. ومن جملة ذلك قوله سبحانه في الذي يسمع كلام الله ثم ينسلخ منها انسلاخا ينم على طبع كزٍ غشوم وحس فاسد متحجر وقلب لا يصيخ للحق المتكشف المستبين، فهو كالكلب البهيم الذي يظل على الدوام يلهث فهو لا يبرحه اللهث سواء حمل عليه حامل أو تركه من غير تنفير. في ذلك يقول سبحانه: « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلَدَ الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلا القومُ الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلِمون ».

ونتعـرض الآن لسور مكية خمس متعاقبة يتضمن كل واحد منها أمهات النظام الأساسيـــة لدين الاسلام وهي العقيدة والعبادات والأخـلاق لنبين أن السور المكية جميعا ترمي الى ترسيخ هاتيك الكبريات من القضايا وكأنما السور المكية في ذلك تؤلف سورة واحدة متكاملة كبرى تحتوي على الاصول الاساسية الاولى في الاسلام. وهي في كونها سوراً متعددة متتالية إنما تتضافر جميعا في ارساء جملة هذه الحقائق الكبيرة، وهي ليس في استقلال كل واحدة منها عن الاخرى ما يعني شيئا من تناقض أو تعارض او انفراد ولكنها كلها تتفق فيما بينها على الامور التي يركز عليها القرآن في الطور المكي.

وهذه السور المكية الخمس المتعاقبة التي نقتفيها للحديث عنها هي: النحل، الاسراء، الكهف، مريم، طه.

أما سورة النحل فانها تفيض بالمعاني الزاخرة الحافلة والتي تتدفق منها المبادىء الكبرى والقيم الجليلة. انها سورة عظيمة كريمة بما يجللها من روائع العبارات والمعاني ومن حلاوة الكلمات والاسلوب بما ينفذ الى الصميم من الفطرة البشرية للانسان فتؤثر فيه أشد تأثير.

فهـا هي السورة تعرض لامهات القضايا في العقيدة والتي تحتسب من جملة الغيب الذي يؤمن به اتباع هذه الملة. ويأتي في طليعة ذلك الايمان بيوم القيامة، ومثل هذا الامر الجلل جاء متصدراً للسورة ليكون عنواناً بارزاً يستوقف الأذهان ويسترعي الانتباه فقال سبحانه: « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » هكذا بصيغة الماضي بما يثير في النفس المخافة البالغة والرغبة في الترقب المتخوف وكأنما القيامة وقعت بالفعل أو كادت تقع.

وتنوه السورة بذكر الملائكة وهم جزء ركين من أجزاء العقيدة التي لا يتحقق لاحد ايمان صحيح الا اذا استيقنتها نفسه عن توثق وتصديق فقال سبحانه: « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون ».

وفي قضية الخلق من العدم وبناء هذا الكون في إبداع رائع متكامل متسق من غير سابقٍ أو نظير، يقول سبحانه: « خلق السموات والارض بالحق تعالى عمّا يشركون » .

وفي الاصل الذي نشأ عنه آدم بعد خلقه من التراب يقول الله في خلقه من ماء هين مهين حتى إذا دب على وجه الارض واعيا ساعيا نشطا فاذا هو عدو الحق والدين ومشاقق لله ورسوله، كل ذلك في عبارة سريعة وافية شاملة وجيزة تغني عن الكلمات الشارحة التي ترد في غير اطناب: « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » .

وفي الأعمال الصالحة يفعلها المؤمن ابتغاء وجه ربه لينال عنده الحظوة والاجر، يقول سبحانه في هذه السورة: « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

وكذلك يأمر الله أن يتحلى المسلمون بخصال حميدة وأخلاق كريمة تزكي ظواهرهم وتصبغهم بصبغة الخير والصلاح ليكونوا عند الله من المقبولين. فقال، سبحانه: « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون . وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . ان الله يعلم ما تفعلون »

ثم سورة الاسراء، وهي حافلة بالمعاني المختلفة التي تنتشر في مضامين السورة من أولها حتى نهايتها، فلا يكاد القارىء المتدبر يفرغ من تلاوة آية وما تتضمنه من معنى مؤثر كبير حتى يبادره معنى آخر في قضية من قضايا الغيب المستور أو الحس المشاهد. فهي معان كبيرة وجليلة منتشرة تتوارد في السورة على تعاقب منتظم سريع وكأنما هي أمواج هائلة تتتابع في تعاظم منداح في بحر هادر كبير لجيّ.

ويأتي في طليعة هذه السورة المكية العظيمة خبر من أخبار الغيب الذي

يصدقه الذين آمنوا والذين تسمو طبائعهم وأذهانهم على دوائر الحس المادي الصفيق المتبلّد وذلك هو خبر الاسراء الذي كتب للنبي محمد ﷺ كيما يرى من آيات ربه الكبرى فتزكو روحه النقية بعبير الروح الأعظم في السماء وقد خرج من اطار هذه الدنيا الكظيظة برهق المادة واكدار العيش حين التعامل مع الاشقياء والمناكيد في الارض، انه الاسراء الذي تصدّر هذه السورة في قوله سبحانه عن هذا الحدث الكوني الجلل: « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير »

وفي خبر من أخبار الغيب المستور يرد القرآن مسألة طرحها الفارغون في سؤال متحذلق عن الروح في حقيقتها وماهيتها. وتلك قضية لا جرم أن يعز إدراكها على المتسائلين عنها وعن الناس جميعا، لانها قضية الغيب المستور الذي يعلو في حقيقته ومداه على الافاق البشرية ولانها مما استأثر الله بعلمه والاحاطة به فلا تستطيع المدارك المحدودة أو المواهب التي لا تتجاوز نطاقها المرسوم أن تعيها وعيا أو أن تتحقق من طبيعتها على التمام. ومن أجل ذلك فقد جاء الرد الالهي في القرآن مناسبا كيما تؤوب أذهان البشر الى رشدها السليم المتواضع ولكي تدرك أن الخوض في مثل هذه القضايا الغيبية لهو مضيعة للوقت فضلاً عن السقوط في مهاوي الضلالة والزلل. قال سبحانه في ذلك: « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم إلا قليلا ».

وفي السورة دعوة للتحلي بجمال الخلق الذي تتزين به الانسانية في مظهرها الكريم وفي تعاملها واقتضائها لتظل بهية الصورة نظيفة المضمون. قال سبحانه محذرا من ملاحقة العباد واقتفاء أخبارهم والكشف عن عيوبهم، وكذلك التنديد بالإستكبار والاختيال في الارض: « ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولا. ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبالا طولا »

ويدعو القرآن في هذه السورة للبر بالوالدين ومصاحبتهما بالاكرام والرفق مع التحذير البالغ من عقوقهما وعصيانهما ولو كان ذلك بأدنى مراتب الغلظة من القول وهو « أف » وهو تعبير هين، اذ ما قيس بغيره من فاحش القول كان غير ذي قيمة. لكن القرآن توعد الذين يجرؤون على الآباء والأمهات بقولهم « اف » فقال سبحانه: « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغنَّ عندك الكبر أحدهُما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ».

وتدعو السورة للإلتزام بمزية الاعتدال والتوسط لما فيهما من خير وتوازن ولان في ذلك ما يجنب المرء مغبة الافراط والتفريط فقال سبحانه: « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »

ويدعو القرآن في السورة أن تكون قراءة النبي ﷺ في صلاته وسطا بين المجاهرة والمخافتة. فلا هي بالمجاهرة فيسمعها المشركون الذين يعادون الاسلام والذين يتحرشون بالمسلمين فينالون منهم شرا لدى سماع القراءة. ولا هي بالمخافتة فتظل خبيئة الافواه والصدور فيُحرم من سماعها الخيرون من الناس الذين تخشع قلوبهم لدى سماع القرآن فقال سبحانه: « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »

ثم سورة الكهف وهي تنطوي على فيض من الاخبار والمواعظ والقصص المثيرة وذلك كقصّ القرآن عن أهل الكهف هؤلاء الفتية الابرار المؤمنين الذين هجروا الاهل والصحاب والعشيرة، وهجروا الديار والخلان والوطن وهجروا الأواصر جميعا الا آصرة العقيدة والدين التي تلاقوا فيما بينهم على أساسها فخرجوا الى مكان بعيد عن الديار والقوم وعاشوا في كهفهم يعبدون الله وحده بعد أن اعتزلوا مجتمعهم الذي استمرأ الشرك والضلال. فظلوا في كهفهم رهن العقيدة والمبدأ فهجعوا فيه ثلاثمائة سنين وتسعاً ثم أماتهم الله ليبعثهم يوم القيامة مع الصديقين والابرار وليكونوا في هذه الدنيا مثار

اعجاب للشباب كيما يزدادوا تمسكا بدينهم وعقيدتهم وكيما يعتصموا بحبل الله المتين ويتخذوا من الإسلام طريقا ومنهاجا فلا يضلوا ولا تميلن بهم شياطين الأرض عن هذا الدين.

اننا نقرأ في هذه السورة عن أولئك الفتية الاتقياء في عرض محبب مثير يبعث في النفس الدهش والعجب وينشر في الذهن الغرابة والبَهْر. نقرأ في السورة خبر اليقين عن قصة أهل الكهف في أسلوب رباني معجز ذي كلام عذب ندي ليس له في الكلام نظير. فقال سبحانه: « إذْ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا. ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا ربُّ السموات والارض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا اذا شططا ».

وفي الصورة دعوة لاصطبار النفس في العبادة مع المؤمنين وإن كانوا عالة أو ضعفاء. ولا ينبغي للمؤمن الذي يعي حقيقة هذا الدين أن تغريه اسباب هذه الحياة وما تقوم عليه من اعتبارات أو تصورات أو اعراف لينحاز مع الفاسقين لأنهم أقوياء مشاهير في المجتمع. وشأن المؤمن الواعي البصير ألا يبرح صحبة الأتقياء العابدين من الناس رغم ضعفهم وافتقارهم وقلة حيلتهم. قال سبحانه « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربَهم بالغداة والعشي يريدون وجهة ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرُطا ».

ويضرب الله للناس في هذه السورة المثل ليكون عونا للذهن والقلب والفطرة على استجلاء الحقيقة والاستفادة المحققة عسى أن يكون في ذلك ما يثير كوامن الخير بالرضى والقبول أو أن تأخذ الكينونة غمرة من الهزة والارتجاج فتصيخ لكلام الله، أو تنفر من ظواهر التمرد المكابر والجحد المشين المقبوح. قال سبحانه: « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين

من أعنـاب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تَظلِمْ منه شيئا وفجرنا خلالهما نَهَراً وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلَبا. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقكَ من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً. لكنّا هو الله ربي ولا أشركُ بربي أحداً»

ويُختتم المثل بعاقبة السوء التي حاقت بمن ضل سعيه والذي أخلد الى جنته المغرية في هذه الدنيا حتى أخذته نوبة غاشية من الغفلة والنسيان ثم أحاط الله بجنته فأتى عليها الدمار فكانت خرابا يباباً بعد أن كانت خَضِرةً يانعة ذات بهجة» وأُحيطَ بثمره فأصبح يُقلِّبُ كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً».

وفي هذه السورة قرار رباني حاسم مجلجل بأن ما يسعى الناس في عناء لاهث دائم للاستكثار منه لهو متاع زائل وإنْ هو الا زينة هذه الحياة الذاهبة الفانية. لكن ثواب الله وما يدخره العبد لنفسه عند ربه من صالح الاعمال لهو خير وأبقى. قال سبحانه:« المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابا وخير أملا»

ومن أشد ما تعرض له هذه السورة من مواقف، ذلك الموقف المرعب العسير في يوم القيامة، يوم تتبدل الارض غير الارض من حيث الصورة والمظهر لكنها بارزة أمام العزيز الجبار حين تقف الخلائق بين يديه داخرة محشورة فلا يقوى على المغيب منهم أحد. وهناك يُعرض الناس على ربهم اصطفافا اذ يخاطبهم الرب أو الملائكة على سبيل التقريع والترعيب بأنكم قد جيء بكم كجيئتكم أول مرة بعد أنجحدتم وكذبتم لقاء يومكم هذا. قال سبحانه:« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا، وعُرِضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم

أن لن نجعل لكم موعدا. ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربُّك أحدا».

ثم سورة مريم. هذه السيدة الزكية العذراء البتول التي افترت عليها يهود بالقول الفاجر الخبيث مع أنها من خير نساء الدنيا ومن أطهر نساء العالمين إن لم تكن خيرهن وأطهرهن جميعا.

وفي هذه السورة بيان مفصل لقصة مريم عليها السلام من قبل مولدها الى أن حملت بولدها الكريم العظيم عقب نفخة روحية من الله سبحانه. ولقد لاقت هي وولدها المسيح من أذى السفهاء والفساق واليهود ما يحز في النفس حزا لولا أنهما عبدان صابران ممتثلان لامر الله ومحتسبان عنده المثوبة.

وحول هذه المعاني وغيرها تتحدث السورة بايضاح مستفيض وفي أسلوب من القصص على طريقة القرآن بما يسكب في النفس بهجة وحبورا وينشر في القلب والحس والذهن كل ظواهر الراحة والرضى. وذلك هو أسلوب القرآن في كلماته وعباراته وآياته الحلوة المصطفاة والذي ينفذ الى الصميم من الفطرة البشرية فيستوقفها استيقافا. ومن جملة ذلك قوله سبحانه في هذه السورة: «واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا». ويقول سبحانه في ذلك ايضا: «فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا. فأجاءها المخاضُ الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسْياً منسيّا».

وتتضمن السورة كذلك قصة النبي العظيم جد الانبياء ابراهيم عليه السلام اذ خاطب أباه في أدب رفيع ومرحة بالغة داعياً أن يعبد الله ولا يشرك به شيئا من الاصنام التي لا تضر ولا تنفع والتي لا تعي ولا تدرك ثم لا تسمع ولا تبصر فإنها من المخاليق الجوامد التي لا تريم ولا تنطق ولا تفقه. وكلما دعا ابراهيم أباه الى الله في عطف جم وخلق عظيم، بادره أبوه في فظاظة

وسفه بالجحود والتمرد تارة ثم بالتوعد والتهديد والتنذير تارة أخرى، كل ذلك في حوار محتدم بين الابن المخلص المشفق البار، والاب المشرك الواهم الفظ. وذلك ما تعرض له السورة في هذه الآيات: « واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صدّيقاً نبيا. اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك شيئا. يا أبت إني قد جاءني من العِلْم ما لم يأتك فاتّبِعْني أهدك صراطا سويا » ثم يقول سبحانه ايضا عن مقالة الاب ورده الفاسق: « قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنّكَ واهجرني مليا. قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنَّه كان بي حفيّا. واعتزلكم وما تدْعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ».

وتعرض السورة كذلك من بعد ذلك لجملة من النبيين المرسلين أولي العزم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وصدعوا بدعوة الحق فلاقوا في ذلك من أممهم عنتاً وأذىً كبيراً. ومن هؤلاء المرسلين الاطهار موسى عليه السلام فقد استخلصه الله لامانة التبليغ في بني اسرائيل حيث الكيد والتنغيص والانمياع وسرعة التحلل من اسار العقيدة والمبدأ. ثم اسماعيل النبي الصادق الوعد الذي كان عند ربه مرضيا. ثم ادريس الصديق النبي الذي رفعه ربه مكانا عليا.

وفي هذه السورة تذكير بحال المتقين والمشركين يوم القيامة. يوم يساق كل فريق الى مساقه المعلوم جزاء ما قدمه من عمل. جاء ذلك في القرآن من خلال آيات وكلمات مؤثرة مشحونة بأجلى صور التعبير « يـوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا. ونسوق المجرمين الى جهنم وِرْدا. لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا ».

وفي التنديد الشديد المريع بالشرك والمشركين الذين زعموا أن لله ولداً يقول القرآن في تقريع غليظ وفي غضبة شديدة مروعة تنشر في النفس ظواهر الرهبة والوجل: « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إداً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هداً. أن دَعوْا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا »

ويوم تقوم الساعة تأتي الخلائق الى الله لتناقش الحساب وليس في مجيئها والاتيان بها ما يشق على الله وانما يأتونه جميعا كانما هم كائن واحد ولسوف يأتي كل كائن بمفرده وحيدا ليس معه أحد من الأهل والخلان أو بني عشيرة أو قوم، ولات حين خلة أو صحبة ولات حين شفاعة أو مناص. يقول سبحانه في ذلك: « إن كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبداً. لقد أحصاهم وعدّهم عَدّا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ».

ثم سورة طه. هذه السورة التي تحمل فيضا من زخم المعاني العظيمة في العقيدة والعبادة والاخلاق في قصص بني اسرائيل وعدوان فرعون عليهم وغير ذلك من وجوه الدعوة الى الله. والسورة بحق من أعظم ما في الكتاب الحكيم مما يؤثر في نفس القارىء المتدبر فيملك عليه السمع والحس والوجدان. فلا يتلو المتدبر بعض آيات من هذه السورة حتى تغشاه سحائب من الرضىَ واليقين وتتغشاه أمواج من بواعث الرهبة والخوف والإحساس الدافق بجدية الموقف أو المشهد الذي تجليه الآيات في هذه السورة.

والسورة مبدوءة بفاتحة من الفواتح وهي « طه » وفيها النداء الحاني للرسول الكريم ﷺ فيما يرفع عن كاهله وزر العنت والمشقة حين الدعوة الى الله، ليكون في ذلك ما يُسري عن النبي ويكفكف عن نفسه مشاعر الحزن والاحساس بالنَّصب. قال سبحانه « طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى » وتقص السورة بشيء من الإطناب التفصيلي قصة موسى عليه السلام بدءاً بمولده ووضعه في التابوت على ظهر الماء الى أن نشأ وترعرع في قصر الملك المتجبر الطاغية فرعون. ثم فراره الى مدين هربا من فرعون أن يَفْرُطَ عليه. فلبث فيها بضع سنين ثم غادرها وكرَّ راجعا من مدين الى وطنه مصر. حتى رأى في الطريق نارا فعزم أن يأتي منها بجذوة عسى أن يصطلي هو وزوجه. فلما أن وصل النار نودي هنالك من الحضرة الالهية القدسية أن يخلع نعليه تقديسا للواد الذي يسير عليه وهو طوى، وأن يذهب لتبليغ فرعون دعوة الحق. وغير ذلك

من أطراف التكليف ثم الحوار مع فرعون وملأه من الأتْباع والظالمين والأعوان والمنافقين.

ومثل هـذا القصـص يـراد بـه الإشـداد مـن أزر النبي محمد ﷺ ليمضي قُدُماً في الدعوة الى الله رغم الكوارث والعثرات والمعوقات ورغم الأذى والشر الذي يعترضه في الطريق. يضاف الى ذلك حملة المواساة والتسرية عن قلب النبي الكريم كيلا تنال منه الأحزان والهموم وهي تتوالى عليه في كثافة وغزارة وتعاظم. قال سبحانه:« كذلك نقصُ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذِكْرا. من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيها وساء لهم يوم القيامة حِمْلا »

وتتجلى الروعة في هذه السورة العظيمة وهي تقص خبر القيامة في بيان مؤثر عجيب وفي كلمات موحية منتقاه تكشف عن بعض المشاهد التي تمر بها البشرية في هذا اليوم الرعيب العصيب وهو يوم حافل بالأهوال والمتغيرات الكونية بعد أن يتقرر النفخ في الصور إيذانا بزوال الدنيا، وأن الواقعة قد وقعت وحينئذ يحشر المجرمون من الجاحدين والمتمردين والمنافقين والفاسقين وهم ترهق وجوههم زرقة الرعب والاغتام وتغشى ملامحهم علائم الخزي والذل والحسرة وقد أدركوا أنهم في الأذلين.

ويا لها من وقفة حاشرة حرجة يسير فيها المجرمون نادمين حيارى وهم يتهامسون فيما بينهم تهامساً أنهم ما لبثوا في حياتهم الدنيا غير أيام عشرة بل يوما واحدا!

وفي هذا اليوم تتبدل الأرض غير الأرض بعد أن تأتي عليها نفخة الصور فتنتسف الجبال انتسافاً لتزول من امكنتها وتتبدد، ثم تصبح كالقاع الممتد المنبسط من غير عوج أو توعر. كل هذه المعاني والمواقف والمشاهد تتناوله الآيات في هذه السورة في روعة ليس لها في روائع الكلام نظير، وفي عرض كاشف مميز يتسم بالعذوبة والجمال وسرعة التأثير. فيقول الله في ذلك:« يوم

يُنفخُ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا. يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشْرا. نحن أعلم بما يقولون إذْ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً. ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً. فيذرها قاعا صفصفاً. لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً. يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما. وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً».

هذه النماذج من الآيات الكريمة التي اقتفيناها من بعض السور المكية تكشف عن التوافق الذي يربط بين هذه السور جميعاً. فهي سور متعاقبة يتلو بعضها من حيث الترتيب في المصحف الشريف لكنها يؤلف بينها انسجام في المعاني المحتواة وفي المضامين التي تناولتها هذه السور. فإنه ما من سورة في الطور المكي إلا وهي تتناول بقدر مقدور قضايا العقيدة أو العبادات أو الأخلاق أو ما يكون سببا في تحقيق ذلك وتعزيزه كالقصص والأمثال ونماذج الترغيب والترهيب أو التبشير والتنذير.

على أن السور المكية لا يشترط فيها أن تتساوى فيما بينها من حيث الكمية في المعاني المحتواة التي تتضمن الأساسيات من القضايا المبينة آنفا، فإن ذلك غير معقول، بل ان السور تتفاوت فيما بينها من حيث الحجم للسورة أو القالب البياني الذي تتألف منه السورة الواحدة. وبَدهيّ أن يأتي المعنى المضمون في كل سورة من القرآن كفيئاً للحجم البياني الذي تتكون منه هذه السورة. فإنه كلما ازدادت المضامين المحتواة وتعددت المعاني لتتناول مناحي كثيرة وشتى من القضايا، ازداد حجم السورة في اطارها البياني ليجيء كفيئاً للمقاصد والمعاني التي تنتشر من خلال الكلمات والعبارات.

ونستطيع بعد هذا البيان في هذه القضية أن نتحقق من صدق الذهاب الى توافق السور المكية المترابطة وتلاحمها المنسجم لتأتي وكأنها سورة متجانسة واحدة يعززها الترابط الوثيق ويجللها التماسك المؤتلف وهي تنطـــق للبشرية

والأجيال بالاساسيات من القضايا الهامة في العقيدة والعبادات والأخلاق وما اقتضاه ذلك من أفرع ومؤيدات.

القضية الثالثة:

وهي أن السور المدنية غالبا ما تتناول القضايا الشرعية مثل المعاملات والأحوال الشخصية والمسائل الجنائية ومشكلات الحرب وما يقتضيه ذلك من آثار ونتائج كل ذلك جاء مبسوطا في القرآن المدني على نحو من التوزيع المتفاوت بين السور تبعا لطول السورة وقصرها.

على أن السور المدنية تتناول كذلك كثيرا من أمور العبادات أو الاخلاق على نحو ما سنبين. لنعلم ان مثل هذه الأمور غير محصور في السور المكية وانما ينتشر على تفاوت في الحجم بين مختلف السور في الطورين المكي والمدني.

ولعل الضابط الفاصل في هذه القضية من التوزيع بين المكي والمدني تتناول بالبحث والمعالجة جميع القضايا المدنية والشرعية التي لا يتيسر تنفيذها والعمل بموجبها الا من خلال نظام للحكم مسلم، او سلطان يقوم على عقيدة الإسلام ويلتزم التزاماً فعلياً بتنفيذ شريعة الله يحمل لواء الجهاد ويحمي ثغور المسلمين وينشر اسباب الخير والفضيلة والعدل بين الناس، ويبدد كل بواعث الشر والهدم والجريمة في المجتمع وينفذ العقاب في المعتدين، وبين المتخاصمين فيُجري القصاص فيما كان عمدا ويقيم الحد عند الإعتداء على حرمة من حرمات الله كالسرقة والشرب والحرابة والقذف والزنا.

فما كان غير ممكن التحقيق الا من خلال دولة حاكمة مسلمة فهو معتبر من الآيات والسور المدنية. وما كان غير ذلك فهو موزع على تفاوت بين المكي والمدني، وذلك تبعا للأحوال والأوضـــاع ومراعاة للمواقف الناشئة من حين لآخر في فترة النبوة. وبذلك فإن السور المدنية المتعاقبة في القرآن يؤلف بينها الترابط المنسجم الحكيم ويجمعها الائتلاف الموزون لتأتي موافقة تمام التوافق، ومتكاملة تكاملاً يفضي الى اتفاق محكم أوفى. بحيث لا يجوز

الاستعاضة عن سورة يغيرها من السور أو ابدال سورة مكان أخرى في معالجة قضية من القضايا. وكذلك لا يجوز التغاضي عن جزء من سورة مدنية بزعم أن جزءاً آخر من آيات مدنية يغني عنه. ومثل هذا التصور ليس إلا خطأ كبيرا وجهلا بحقيقة التنزيل وحقيقة الأهداف والمقاصد المتكاملة التي يحتويها القرآن في الطور المدني.

ويمكن القول هنا بمثل ما قيل في ترتيب السور المكية إذ جاءت غالباً متعاقبة يتلو بعضها بعضاً كما وضحنا في حينه، وذلك بالنظر للملاحظة التي نوهنا بها وهي وحدة الطابع المدني والتشريعي الذي جاءت عليه هذه السور وعلى نحو من التكامل. وحقيق بنا هنا أن نعرض لبعض السور المدنية وما تضمنته من أمور في مختلف قضايا التشريع لنرى أنها تتسم بالوحدة في الطابع ضمن اطار شامل ومحيط يندرج فيه التكامل المتوافق لهذه القضايا.

فهذه السورة الحافلة الحاشدة العظمى، كبرى السور في القرآن وهي البقرة فانها سورة مليئة بالمعاني وتتناول مناحي كبيرة وكثيرة في مختلف قضايا الدين والدنيا سواء في ذلك التحدي للعرب والناس أن يأتوا بسورة من مثل هذا الكتاب وقصة آدم وخلقه من طين وتعليمه الأسماء وتكليف الملائكة بالسجود له. وقصة بني اسرائيل وتفضيلهم على العالمين وافتئاتهم على دينهم ونبيهم موسى عليه السلام. وقصة تحويل الكعبة الى البيت العتيق بعد أن كانت نحو المسجد الاقصى. ثم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله الا عند الاضطرار. ثم ايجاب القصاص في القتلى على التفصيل في هذه المسألة الا أن يعفو الولي. ثم فريضة الصيام وما يتصل بذلك من مشروعية للرخصة في الافطار حال المرض والسفر مع تبيان لحقيقة اليسر الذي تقوم عليه شريعة الاسلام.

ثم فريضة القتال في سبيل الله. وهي فريضة يضطلع بها المسلمون ليحاربوا اعداء الله وليقتلوهم حيث ثقفوهم وليخرجوهم اخراجا كيلا تقع في الارض فتنة ولكي يكون الدين لله. ثم إتمام الحج والعمرة لله. فان وقع على المسلمين

أو احدهم حصر لسبب حال دون بلوغ أماكن الحج بات مبرئاً للذمة ان يرسل الهديَ الى محله. وغير ذلك من مسائل الحج وكيفيته في شيء من التفصيل.

وفي السورة إخبار عن وحدة البشرية في الملة أصلاً لكن الناس اختلفوا فيما بينهم وتفرقوا الى ملل ومذاهب وعقائد شتى بتعثير من الشياطين الذين يجتالون الناس عن دينهم الى حيث الشرك والضلال. يتضح ذلك من قوله تعالى:« كان الناسُ أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم».

وتتناول السورة عدة قضايا متناثرة تتراوح بين التنذير والتشريع والامر بالمعروف والتحضيض على فعل الخيرات. فهي تعرض لمسألة الخمر بشيء من التلميح الذي يشي بسوء هذه المادة وخبثها. ثم المحيض وأنه اذى فليس للرجال ان يمارسوا الوطء اذا كانت النساء حوائض الا اذا تطهَّرنَ على ان يؤتَين من حيث أمر الله. ثم الايلاء وهو الحلْف. فاذا حلف الرجل ألا يأتي أهله بات واجبا ان يتربص اربعة اشهر فان فاء وإلا كان عليه ان يطلق كيلا تظل زوجته في عنت من أمرها. والمطلقات عليهن ان يعتددْنَ العدة وهي ثلاثة قروء لكي تستبين براءة ارحامهن خلال هذه المدة. أما الطلاق فانه من حيث العدد ثلاث طلقات تقع اثنتان منها رجعيتين وقد تبين الزوجة فيهما بينونة صغرى، حتى اذا وقعت الثالثة كانت الزوجة مبتوتة تماما فلا يحل ارجاعها الا ان تنكح زوجا آخر. وغير ذلك من مسائل الطلاق وتوابعه وماله من مقتضيات.

ثم المحاجّة المثيرة التي وقعت بين ابراهيم والملك الطاغية «نمروذ» فقد استوقفه ابراهيم بما ساقه له من ضروب التحدي:« فبُهتَ الذي كفر».

أو ذلك النبي من بني اسرائيل «عزير» الذي مر على قرية خاوية مندثرة فتساءل في نفسه وفي عجب من قدرة الله وعظمته: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها» فقضى اللـــه سبحانه بموته مائة عام ثم بعثه ليظن انه مكث يوما او بعض يوم.

ثم سورة آل عمران. وهي تتناول مواضيع كثيرة وشتى في اليهود والمنافقين ومختلف القضايا وهي يتصدرها جميعا الاعلان الاكبر بأن الله واحد لا شريك له وانه باريء الوجود والخلائق كافة وانه سبحانه الذي يتصرف في الكون بارادة كاملة مطلقة.

وتعرض السورة كذلك لطبيعة الايات في الكتاب الحكيم وذلك من حيث الوضوح والبيان ومن حيث الخفاء والتشابه وأن هذا الصنف الاخير لا ينبغي تأويله والخوض فيه لان ذلك طريق التجاوز والعبث يقول سبحانه في ذلك «هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات مُحكماتٌ هن أم الكتاب وأخرُ متشابهاتٌ فامّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله».

وفي السورة كشف لطبيعة النفس البشرية التي حُبب إليها زخرف الحياة وزينتها وطبعت فيها رغبة لحوح في النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. مع التذكير بأن ذلك كله متاع يمر ويفنى وإن ما عند الله من فضل وجزاء لهو خير وأبقى.

وفيها تنديد شديد بجرائم يهود: «الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس» وان اولئك قد حبطت اعمالهم فليس لهم في الدنيا والآخرة من خلاق. وذلك لتفريطهم في دينهم وقولهم: «لن تمسنا النار إلا أياما معدودات».

وفيها تحذير للمؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين الا ان يكون ذلك من باب التقية حين الخوف من الكافرين.

وفيها قصة مريم عليها السلام منذ مولدها: « إذ تقبلها ربُّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجدَ عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » لذلك كانت مريم من خير نساء الدنيا ومن أطهر نساء العالمين ان لم تكن خيرهن وأطهرهن جميعا استنادا الى قوله سبحانه: « واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » الى غير ذلك من خبر النبي العظيم المسيح عليه السلام الذي جعله الله آية للعالمين اذ يكلم الناس في المهد وكهلاً واذ أوتي من المعجزات في هذه الدنيا ما يشهد له بالصدق وأنه رسول قد أوحي اليه.

وفي السورة دعوة مخلصة حرّى لأهل الكتاب يطلقها النبي ﷺ كيما يُقبلوا « الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضُنا أرباباً من دون الله ».

وفيها كذلك مساءلة لاهل الكتاب عن محاجتهم في ابراهيم عليه السلام مع أنه سابق للتوراة والانجيل وأن اليهودية والنصرانية ما كانتا الا من بعده بزمن طويل، فلم تزعمون أنه كان على دينكم؟

ثم تقرر السورة في اعلان مبدأي حاسم لا يعرف المواربة أو اللين وهو أن ابراهيم ما كان يربطه باليهودية والنصرانية أدنى رباط من الملة والعقيدة ولكنه على الحنيفية السمحة البعيدة عن الزيف والإشراك فقال سبحانه في ذلك: « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ».

وفي السورة كذلك حديث طويل عن يهود يحتل مساحة كبيرة في هذه السورة فيما يتناول قضايا شتى تتعلق بصورة التمرد والكيد عن يهود وفي ضروب التآمر على الاسلام والمسلمين والنبي ﷺ وذلك لبعث الشكوك والشبهات من حول هذا الدين رجاء إضعافه أو القضاء عليه. ومن جملة ذلك قوله سبحانه: « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين

آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون» وقوله كذلك: «وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون».

ثم يقرر الله بعد ذلك لهؤلاء الضالين المضلين عقابهم الشديد الصارم جزاء لهم على كفرهم بعد ايمانهم وبعد شهادتهم على صدق نبوة الرسول من قبل مجيئه، فلما جاءهم اعلنوا تكذيبه والكفر به وبدينه. قال سبحانه في ذلك «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يُخفف عنهم العذابُ ولا هم يُنظرون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم».

وثمة قرار رباني مقدور قد كتبه الله على بني اسرائيل أنهم قد غشيتهم ظلل من الخزي والذل وأنهم قد باؤوا بالضعف والمسكنة جزاء ما اقترفوه من كبير الخطايا والموبقات قال سبحانه: «ضربت عليهم الذلة أين ما ثُقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

وثمة قرار آخر مقابل لسابقه وهو في حق هذه الأمة أتباع النبي الخاتم محمد ﷺ. وهو قرار لا جرم أن يكون مثابة للمؤمنين في تقدير أنفسهم حق أقدارها كيما يعلموا أن فيهم كوامن العظمة والقوة والاستعلاء لو فاءوا الى هذا الدين. وقرار الله لهذه الامة أنها خير أمة أخرجت للناس قال سبحانه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

وفي السورة تحذير للمؤمنين أن يتخذوا بطانة لهم من دونهم ممن يظهرون بألسنتهم العداوة والبغضاء ويخفون في صدورهم كوامن الغيظ والحقد. أولئك

هم المنافقون الذين يسوؤهم أن يكون المسلمون بخير. وإنْ يصبهم الضر يفرحوا: «إن تمسكم حسنة تسؤهم وان تُصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط».

وتتناول السورة كثيرا من المواضيع الاخرى من بينها الربا وتشديد النكير عليه وتحريمه أضعافا مضاعفة. ثم مواساة المؤمنين والنبي بعد ما أصابهم القرح عقيب معركة أحد. وغير ذلك من قضايا القتال والدعوة الى الاحتمال والصبر وفعل الخير.

ثم سورة النساء.. وهي تتناول كثيرا من قضايا الدنيا وما يتخللها من الامور الاجتماعية والنفسية والخلقية والقتالية ثم قضايا المنافقين واليهود في كيدهم وتآمرهم على الاسلام والمسلمين. على أنها مبدوءة بالدعوة الى تقوى الله سبحانه والتذكير بقضية الخلق الأول في شخص آدم عليه السلام وزوجه وما تفرع عنهما من نسل وذرية.

وفي السورة تشريع للزواج ليباح الجمع بين أربعة من النساء شريطة أن يتحقق العدل بينهن. فان خيف ألا يكون عدل فواحدة.

وفيها مبادىء أساسية لنظام المواريث على نحو غاية في الاعتدال والضبط والتكامل وغاية في العدل والتوازن بما يصون لكل انسان حقه غير منقوص سواء كان ذكرا أو أنثى كبيرا أو صغيرا. وهي مبادىء ترد في السورة كأصول يقوم عليها التوزيع العادل للمواريث ليتمخض ذلك عن نظام عريق فذ لا نظير له في تاريخ النظم والقوانين والشرائع.

وفي السورة لون من العقاب للزناة والزواني لكن هذا العقاب بات منسوخا. فقد نسخته آية الحد للزاني في سورة النور وكذلك ما ورد في السنة من عقاب للزنا بعد إحصان.

وفيها كذلك بيان تفصيلي بالنساء المحرمات من حيث النكاح، سواء في ذلك التحريم للنسب أو الصهرية أو الرضاع. وفيها إحقاق لظاهرة القوامة

للرجال ليكونوا بذلك قوامين على النساء. وذلك في قوله سبحانه: « الرجال قوامون على النساء ».

ثم مراحل الإصلاح الناجعة بين الزوجين اذا وقع بينهما شقاق ثم خيف على الحياة الزوجية من الإنهيار. ومراحل الإصلاح تمر في أدوارها الأربعة أولها الوعظ بالكلام اللين السديد، وثانيها الهجر في المضجع، وثالثها الضرب غير المبرح بقصد التأديب والتهذيب، ورابعها التحكيم بين الزوجين عسى أن يكون في ذلك ما يبدد سبب الخصومة والنزاع ويحفظ للزوجية دوامها واستقرارها.

وفي السورة تشريع للطهارة بوساطة الماء في الأصل. وان تعذر الحصول على الماء شرع التطهير بالتيمم.

وفي السورة كذلك تنديد باليهود الذين يحرفون التوراة ويحذفون منها ذكر النبي محمد ﷺ، يضاف إلى ذلك تنديد القرآن بكيدهم للنبي وتمالئهم عليه وتحيلهم عليه بعبارات الغمز والتهكم والخداع من خلال الفاظ واصطلاحات ما كانت تنكشف للمسلمين لولا القرآن الذي افتضحهم وهتك أستارهم. وفي ذلك قوله سبحانه: « من الذين هادوا يُحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غيرَ مُسمَع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ».

ثم تتحدث السورة عن المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويحرضون على محاربة الاسلام تحريضاً. يقول الله في ذلك: « وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صُدودا ».

وفي السورة تحريض شديد على القتال في سبيل الله إنقاذاً للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان قال سبحانه: « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجْنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعلْ لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ».

وتتناول السورة مواضيع أخرى لا مجال لذكرها هنا وذلك كتشريع الدية

والقصاص في القتل الخطأ والعمد. ثم تشريع القصر من الصلاة حال السفر. ثم صلاة الخوف وذلك حين القتال وقد خشي المسلمون أن يأخذهم العدو على غرة وهم في الصلاة. ثم تشريع المخالعة إذا خافت المرأة من بعلها نشوزا أو إعراضا. ثم الاعلان القاطع بأن المسيح عليه السلام لم يقتل بل رفعه الله اليه. وغير ذلك من مواضيع.

ثم سورة المائدة.

وهي كسابقاتها من سور اذْ تتناول مواضيع كثيرة ومتفرقة. وذلك في مختلف قضايا التشريع وأهل الكتاب خصوصا بني اسرائيل. وغير ذلك من الأخبار والمواقف والمشاهد.

على أن السورة تتصدرها الدعوة للوفاء بالعقود، وذلك في قوله: « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يُتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ان الله يحكم ما يريد ».

وفي هذه السورة تحريم للخبائث من الأطعمة كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع.

وفيها أركان الوضوء الاربعة وهي غسل الوجه واليدين الى المرفقين ومسح بعض الرأس ثم غسل الرجلين. ويجب التطهير بالغسل حال الجنابة واذا لم يتيسر الماء أبيح التيمم بالتراب.

وفيها تكفير للذين قالوا: « ان الله هو المسيح بن مريم ». ثم تكذيب لليهود والنصارى اذ زعم كل فريق منهم أنهم أحباء لله وأن الله اتخذ لنفسه منهم ولدا « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه »، ثم الرفض المتمرد من بني اسرائيل لامر نبيهم موسى إذْ أوحى اليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فقالوا: « يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنَّا لن ندخلها حتى يَخرُجوا منها فإنْ يَخْرُجُوا منها فإنا داخلون » وقوله سبحانه كذلك عنهم: « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ».

وفيها قصة ابني آدم بالحق «إذ قرَّبا قربانا فتقبّل من أحدهما ولم يُتقبّل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين»

وفيها تشريع الحرابة وذلك في حق الذين يحاربون الله ورسوله والذين يقفون في مفارق الطرق ليقتلوا الناس ويسلبوهم أموالهم وينشروا الرعب في المجتمع. فأولئك قد أعد الله لهم عذابا أليماً وهو أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وفيها كذلك حد السارق وهو أن تقطع يده جزاءً بما كسب نكالاً من الله.

ثم تشريع القصاص في النفس وما دون ذلك من جروح استنادا الى ما كان مشروعا في التوراة وذلك في قوله:« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قِصاص».

وفي السورة تأكيد بالغ على الالتزام بشريعة الله والحكم بما أنزل، ثم التحذير من اتباع أهواء القوم ومن فتنتهم. وذلك في قوله:« وأن احكم بينهم بما أنزل اللهُ ولا تتبعْ أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللهُ إليك» وغير ذلك من المواضيع التي تتعلق بقضايا تشريعية أو أهل الكتاب والمنافقين. ثم العديد من المواقف التي تتحدث عنها السورة على نحو متفاوت من التركيز أو التأكيد أو المرور سريعا.

وبعد هذا البيان لتلكم السور المدنية الاربع وما احتوته من قضايا مختلفة يتبين للقارىء المتدبر أن هذه السور تتسم بالتكامل، فما كان من قضايا التشريع غير موجود في سورة ألفيناه في غيرها من السور. وما كان في سورة موجودا وجوداً جزئياً أمكن استيعابه على التمام في سورة مدنية أخرى أو في جملة من السور المدنية الاخريات حتى إذا اجتمعت السور المدنية كلها تمخض ذلك عن تشريع متكامل أوفى يصلح عليه الناس في دينهم وفي دنياهم.

وما ذكرناه من سور مدنية أربع لهو نموذج يكشف عن تضافر هذه السور المتعاقبة في ارساء قواعد التشريع والسلوك على نحو متكامل متوافق. فهذه

السور الاربع وغيرها من سور مدنية متعاقبة جاءت كلها في الكتاب الحكيم يكمل بعضها بعضا وهي يجللها التوافق المترابط والإنسجام المؤتلف المتين.

التوافق بين الآيات

عند الحديث على ترتيب الآيات في القرآن بينا أن ذلك كان توقيفيا أو هو مبني على اشارة من الوحي الذي لا مجال معه للاجتهاد أو القول بالرأي.

وترتيب الآيات توقيفا لا يأتي عبثا من العبث أو الجزاف العشوائي الذي يتجرد من الفائدة بل إن من مقتضيات التوقيف في الترتيب للآيات أن يتضمن ذلك جملة فوائد. وهي فوائد يحس بها المتدبر من خلال الترابط الفني للآيات فيما بينها ترابطا موصولا تقتضية طبيعة النظام أو السياق للآيات، ومن حيث توارد المعاني المتلاحمة المنسجمة التي تترابط فيما بينها على نحو متسق ووثيق يشي بروعة التوافق بين الآية والتي تليها.

ومثل هذا التوافق المترابط المنسجم يمكن أن يستبين ويتضح ونحن نعرض لعديد من النماذج القرآنية من خلال آيات كريمة سواء كانت مكية أم مدنية.

آيات مكية

من سورة الأنعام، نجد السورة مبدوءة بتعظيم الله جل جلاله فهو سبحانه الذي خلق الوجود كله بما في الوجود من سموات وأرض وظلمات ونور. ويتبع ذلك في الآية التالية ما يشبهه في المقصود، فهو الله الخالق الذي أوجد الإنسان من طين الى أجل محدود ثم يميته ليظل ميتاً الى أجل آخر محدود ليكون بعد ذلك من المبعوثين يوم القيامة. ويتبع ذلك في الآية التي تلي سابقتيها أن الله الذي خلق كل شيء لهو موجود بعلمه وقدرته وارادته في كل مكان فهو يعلم ما يدور في السموات والارض من سر خبيء وجهر معلوم ويعلم ما يجري من تصرف وممارسة وهذه معان منسجمة تحملها الآيات الثلاث الأولى في سورة الأنعام وهي تتلو إحداها الأخرى في توافق وثيق تام لا

يعرف الخلل. قال سبحانه: « الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعْدلون. هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده ثم أنتم تمترون. وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ».

وفي السورة تيئيس من فريق من المشركين الذين فسدت فيهم الفطرة وانعدم فيهم التفكير السليم. فهم ليسوا بمؤمنين للنبي حتى ولو شاهدوا قرآنا مكتوبا في قرطاس وهو ينزل عليهم من السماء ثم لمسوه بأيديهم لمساً، ولو رأوا شيئاً من ذلك لكذبوا نبوة الرسول ولقالوا ما هذا الا ضرب من السحر.

وعلى سبيل الاستكمال للمقصود تبيّن الآية التالية جهالة المشركين وضلالتهم وتقضي كذلك بالتيئيس منهم. ذلك أنهم قالوا: هلا أنزل على محمد ملك يحمل اليه الكتاب فنراه. مع أن الملائكة لا تنزل في مثل هذه المواقف الا عند العذاب والتدمير يحيقان بأمة فاسدة فاسقة عن أمر ربها. وكذلك تردُّ الآية التي تلي سابقتها هذا المطلب بأنه لو أنزل ملك ما كان له أن يبقى على صورته الملائكية بل ينبغي أن ينسلخ من طبيعته هذه ليصبح إنسانا رجلاً كي يستطيعوا رؤيته ومعاينته. وذلك يستتبع أن يظلوا في حالهم من الريبة واللَّبس.

ثم جاءت الآية الأخرى التالية لتحمل التثبيت للنبي والمواساة ولتبين أن أولئك الذين كانوا قد تمردوا على ربهم وفسقوا عن أمره قد حاق بهم العذاب الذي نُبهوا اليه وسخروا منه. فما على العرب المشركين المكذبين إلا أن ينقبوا في الأرض ويتحرّوا ما حاق بالامم الفاسقة الهالكة السابقة نظير شركهم وتكذيبهم. هذه المعاني المؤتلفة ترد متتابعة من خلال آيات خمس تتلو احداهن الأخرى في توافق متماسك رصين. قال سبحانه: « ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيدهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين. وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا يُنظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يَلْبسون. ولقد استُهزىء برسلٍ

من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين».

ومن سورة يونس. تجد أن الآيات ترد في تتابع متلاحق وهي تحمل للاذهان والقلوب زخما متراصا من المعاني المنسجمة التي تتوالى من خلال الآيات في أوثق رباط وأوفق التحام.

والسورة مبدوءة بقرار مجلجل أكبر يعلن للبشرية أن هذه الآيات لهي تؤلف كتاب الله المعجز الحكيم. ويتلو ذلك سؤال فيه تأنيب ونكارة للمشركين الذين عجبوا أن اصطفى الله من بينهم رجلا يحمل لهم أمانة الرسالة وليكون نذيراً وبشيراً. ومع ذلك فقد رد المشركون الرسالة وافتروا على صاحبها بأنه ساحر.

ثم تعاود الآية في الفقرة الفاصلة التالية التذكير بأن هذا النبي صادق أمين وأنه مبعوث من ربه. وأن ربه لقادر على ذلك فهو الله في عليائه وجلاله وجبروته الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى بعد خلقهن على العرش. وهو سبحانه الذي يدبر الأمر كله وأنه المتصرف في الكون كله بغير شريك وأنه لا يجرؤ على التشفع امام سلطانه وعظمته إلا من أذن له بالشفاعة. ذلك الله الذي ترجع اليه البشرية كافة كما وعد ووعده حق لا يتخلف. فانه سبحانه قد قرر ايجاد الخلق في البداية وليس بعزيز عليه أن يعيده اليه مرة ثانية بعد النهاية ليجد الناس جزاءهم الذي يستحقونه تبعا لطبيعة أعمالهم الصالحة أو الفاسدة.

ثم يبين الله للناس عظمته وقدرته المطلقة وهو يقص عليهم جزءا من خبر الخَلْق وهو أنه الذي أوجد الشمس ليشرق ضياؤها على الارض وأوجد القمر لينساب نوره الرخيّ المحبوب على وجه هذه البسيطة وقد قدره منازل ليعرف الناس حساب الزمان بسنيه وأعداده. وما اختلاف الليل والنهار من حيث الطول والقصر ومن حيث التداخل والتعاقب، ثم ما ذرأ الله في السموات والارض من خلائق وأشياء الا وذلك كله يزجي بالدلائل على

عظمة الله وسلطانه ووجوده سبحانه.

بعد ذلك يأتي النذير من الله ليتهدد الفاسقين المشركين الذين يكذبون بلقاء الله واطمأنت أنفسهم بهذه الحياة الدنيا بأن مأواهم النار. كل هذه المعاني المتصلة المترابطة ترد في توافق محكم متشاد من خلال آيات عديدة يتلو بعضها بعضا لكننا نقتضب منها ثماني آيات لتكون نموذجا يعطي تصورا وافيا عن المقصود. قال سبحانه: « ألر تلك آيات الكتاب الحكيم. أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدمَ صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين. إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون. إليه مرجعكم جميعا وْعدَ اللهِ حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون. هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمرَ نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون. ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون. إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون».

ومن سورة يوسف. لا نريد أن نستشهد من الآيات التي تتحدث عن قصة يوسف في رؤياه وتمالؤ اخوته عليه والقائه في الجبّ وبيعه مملوكا في مصر ثم اعتلائه سُدة السلطان الى غير ذلك من مراحل القصة المثيرة. لا نريد أن نأتي ببعض من الآيات في هذا المجال وذلك للوضوح الظاهر المستبين في توافق هذه الآيات وتلاحمها لانصبابها في محور مقصود واحد وهي قصة يوسف في مراحلها المتعددة المتتابعة. لكننا نريد أن نستشهد من أواخر هذه السورة ليكون الاستدلال أجلى وأشد ظهورا على توافق الآيات في القرآن الكريم.

وفي آخر هذه السورة تعرض الآيات الأربع فيها الى معان منسجمة يتلو

أخذها الآخر في ائتلاف مكتمل وثيق. وأول هذه المعاني المحتواة هو تكليف الله لنبيه الكريم أن يجاهر للملأ في وضوح ظاهر مكشوف بحقيقة رسالته وهي الدعوة الى الله على بصيرة مخلصة وفي توجه عميق لا يخالطه شرك. وذلك هو شأن المرسلين من قبل النبي اذ أرسلهم الله الى الناس رجالاً عاملين ممتثلين مخلصين. فاذا لم يبادر هؤلاء القوم بالتصديق والايمان فعليهم أن يراجعوا الحساب مع أنفسهم وأن يتخذوا عبرة مما حاق بالذين سبقوهم من الفاسقين المتمردين إذ أخذهم العذاب المدمر البئيس. فليبادروا الى التصديق والإيمان ليكون جزاؤهم عند الله عظيما وهو جزاء الآخرة.

وفي الفقرة التالية تحمل الآية ضربا من المواساة والتثبيت للنبي لتنشر في نفسه الطمأنينة والثقة الكبرى بالنصر وأن ذلك آت لا محالة. وفي الفقرة الاخيرة الرابعة احتواء لجملة معان متضافرة منسجمة يطَّرد جميعها في آية خاتمة واحدة في غاية من الترابط المحكم وغاية من الإحكام المتشابك الوثيق.

هذه الآية تعرض للفائدة المحققة فيما يظهر من عبرة يزجيها قصص النبيين. وهو قصص مصور مؤثر تستجيب له أذهان أولي الألباب. وتعرض ايضاً للتأكيد على صدق هذا القرآن وأنه كلام من عند الله فيه تصديق لما سبقه من الكتب والنبيين، وأنه ينطوي على خير الدنيا والآخرة ليكون فيه الهداية والرحمة للذين استجابوا لربهم.

هذه المعاني جميعها جاءت متعاقبة منسجمة يظللها التوافق والائتلاف عبر آيات متضافرة أربع متتالية. قال سبحانه: « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين. وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون. حتى اذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنُجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين. لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ

وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون».

ومن سورة الفرقان. نقتضب آيات عشرا لنبين أن القرآن في آياته متوافق تمام التوافق ومنسجم تمام الإنسجام وذلك من حيث الترابط الحكيم في العبارات فيما بينها ومن حيث المعاني التي ترد متعاقبة والتي تتدفق بها الكلمات الربانية المصطفاة.

نقتضب آيات عشرا بدءا من الآية الخامسة فنلاحظ لدى التدبر اليسير أنها حلقات من المعاني الأساسية المؤثرة التي تكتمل في تواردها المتعاقب لتؤلف سلسلة من العبارات الرائعة العذبة والحاوية لجملة من المعاني المتفقة المتشادّة. وأول هذه الآيات يكشف من مقالة الجحود والكفر التي نطق بها المستكبرون الجهلة إذ افتروا على الله الكذب فنسبوا القرآن الى الأولين في أساطيرهم وأنها تُملى على النبي بكرة وأصيلا. ثم يأتي الرد الحاسم الرادع بأن الذي أنزل القرآن من يعلم السر في السماوات والارض.

وتكشف الآية التي تلي ذلك عن مقالة أخرى للمشركين إذ تساءلوا في عجب سخيف لا يستند الى شيء من المنطق أو التفكير الراجح السليم وذلك أنهم قالوا كما ذكر القرآن: «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق..» هكذا يعجب هؤلاء الجهلة لرجل يُبعَثُ فيهم نبياً وهو بشر كالناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. فهلا أنزل عليه ملك من الملائكة فيكون له مؤيدا أو أن يلقى اليه كنز من المال أو تكون له جنة يصيب منها طعامه ورزقه بدلا من عيشه مفتقرا! ثم يلفت القرآن النظر لكيفية ضرب الأمثال التي طرحها هؤلاء الفسّاق الجهلة وهم تائهون عن الحق وغير مهتدين للسبيل القويمة.

وعلى سبيل السرد لهذه المقالات الفاسدة الجاهلة يقدس الله نفسه بالثناء مع التبيين القاطع بأنه إن شاء جعل خيرا مما يتصوره المشركون الجهلة من الاماني والخيرات فإن ما عند الله لا نظير له لما يتسم به من كمال وديمومة، وتلك هي الجنات تجري من تحتها الأنهار فتظل خالدة لا يأتي عليها مرور الأزمان والأدهار.

وتقرر الآية بعد ذلك أن ما قاله هؤلاء لهو الكفر أو التكذيب بالساعة، لذلك فقد أعد الله لهم السعير عذاباً حارقاً ويا لهول السعير! فانها النار الحامية المضطرمة المتأججة ذات الصوت الرعيب الذي ترتطم به الأسماع والقلوب لفرط تغيظه وزفيره. وهي نار يقذف فيها المشركون والمكذبون جميعا. وهم إذْ يقذفون فيها من مكان ضيق مقرنين مصفدين في السلاسل نادوا متصايحين: وا هلاكاه! وا ويلاه!

يقول الله في هذه المعاني المترافقة المتوافقة التي حوتها الآيات في تعاقب متساند مشدود:« وقالوا أساطيرُ الاولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا. قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفورا رحيما. وقالوا مال هذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشي في الاسواق لولا أُنزل اليه ملكٌ فيكون معه نذيرا. أو يُلقى إليـه كنز أو تكونُ له جنةٌ يأكلُ منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا. أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الانهار ويجعلْ لك قصوراً. بل كذّبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا. اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا. واذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثُبورا. لا تدعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعو ثُبوراً كثيراً. قل أذلك خير أم جنة الخُلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا».

ومن سورة القيامة. نعرض للشطر الثاني فيها وهو يتضمن آيات قصارا ترد تباعا كأنما هي حبات الجمان المنتشرة في تعاقب متسلسل منتظم رتيب. آيات متتابعة كريمة تفوح منها العذوبة ويتندى منها الإشراق في تقاطر مطّرد متزاحم وفي غاية من الجمال الباهر الخلاب، فضلا عن الإيقاع المؤثر في الذهن والنفس والتصور.

ومثل هذه المعاني التي تحتويها الايات من هذه السورة لتبين ان هذه الكلمات الربانية ترد في كتاب الله على توافق مترابط دقيق. وهي معان يرد جلها في الكشف عن قارعة الموت القاصم وعن قوارع القيامة الطامة حيث

الأهوال وأشد المواقف ارهاقا وكرباً وتعسيراً. والايات التي نقتضبها من السورة مبدوءة بدعوة النبي ﷺ ألا يعجل في القراءة وهو يتلو من بعد الوحي بل عليه ان ينتظر حتى اذا فرغ الوحي من التلاوة كان له ان يقرأ من بعده في طمأنينة ورويّة، فقد تعهد الله سبحانه للنبي أن يجمع له القرآن في صدره وان يمكنه من وعيه وقراءته.

ثم تبادر الاية بعد ذلك لتذكر بطبيعة الانسان العجول، الطبيعة الحادة المندفعة التي تجنح للتسرع والانفعال. وفي ذلك ربط ظاهر بين رغبة النبي اللحاحة في قراءة القرآن واستيعابه سريعا، وطبيعة الانسان في الاصل والتي جيء بها على هذه الصورة من العجل والاندفاع السريع فقال سبحانه في ذلك « كلا بل تحبون العاجلة » والعاجلة هي الدنيا وهي في ذاتها سريعة وكل ما فيها من محتويات ومتاع يمر سريعا وفي عجل. والانسان بطبيعته المتسرعة العجول يجنح دائما الى هذه الدنيا التي تمر على عجل وفي سرعة. وسوف يكون في مقابل هذا الجنوح صوب الدنيا السريعة ان يغفل الانسان عن الاخرة حيث العطاء الابيد والنعيم المقيم. وفي ذلك اليوم الحافل سوف ينعم المؤمنون وهم في الجنة بنضرة الوجوه وبالنظر الى جلال الله. ويقابل هؤلاء صنف آخر من البشر الفاسق التعيس. أولئك الذين تكون وجوههم باسرة يرهقها العبوس والسواد والقتر. وهم يعتقدون بغير شك ان مصيبة عظمى سوف تلحق بهم.

وفي معرض الحديث عن القوارع المزلزلة والأهوال المريعة يوم القيامة فإن القرآن يتحدث كذلك عن اهوال الموت وما يسبقه او يعقبه من مواقف عصيبة بدءا بالغرغرة تتحشرج في الحلقوم وذلك حين النزع المرهق العسير. واذ ذاك تنطلق الصيحة الصارخة المستغيثة من حوله: هل من ينقذه أو يشفيه، وبعدها يدرك المريض المفارق في يقين انه ذاهب الى ربه لا محالة. حتى اذا فاضت روحه سُجي في نعشه جثة هامدة وقد جمعت ساقاه إحداهما الى الاخرى ثم سيق إلى الله ليلاقي جزاءه فإذا هو فاسق خصيم، فما صدق ولا صلى. الى اخر هذه المعاني المتعاقبة المنسجمة. وفي ذلك كله يقول

سبحانه: « لا تحرك به لسانك لتعجل به. ان علينا جمعه وقرآنه. فاذا قرأناه فاتبعْ قرآنه. ثم ان علينا بيانه. كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الاخرة. وجوه يومئذ ناضرة. الى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن ان يُفعل بها فاقرة. كلا اذا بلغت التراقي. وقيل من راق. وظن انه الفراق. والتفّت الساق بالساق. الى ربك يومئذ المساق. فلا صدق ولا صلى. ولكن كذّب وتولى. ثم ذهب الى أهله يتمطى. أولى لك فأولى. ثم اولى لك فأولى. أيحسب الانسان ان يُترك سدى. ألم يك نطفة من منيّ يُمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والانثى. أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى »

التوافق بين الآيات وخواتيمها

لا ينحصر التوافق في القرآن بين السور وهي تتوالى عقب بعضها بعضا ولا بين الايات تتلو الواحدة منها الاخرى ولكن التوافق كذلك متحقق بين الشطر الاكبر من الاية وما يليه من ختام. وهو ختام يرد على هيئة تعقيب مناسب يتلاءم تمام التلاؤم مع المعاني المحتواة في الاية نفسها أو فيما سبق من آيات تتناول قضية أو جملة من القضايا. ولدى التدبر الواعي نجد ان التعقيب الذي تختتم به الاية لا ينفصم أدنى انفصام عن بقية الكلام الذي تتألف منه الاية، لا في الصورة البيانية المعروضة ولا في الحقائق المعنوية المحتواة والتي تتضمنها الكلمات. لا نجد شيئا من انفصام او تنافر ولا شيئا من تفاوت او تشتيت للمعنى حتى ولا شيئا من ذلك فيما بين الشطر الاكبر من الكلام الذي يحتل المساحة الكبيرة للآية وما يليه من ختام أو تعقيب.

وسوف نعرض في الآيات التالية لمثل هذه الحقيقة حتى تستبين للقارىء المتدبر على التمام وليعلم ان القرآن يجلله التوافق الاكمل والانسجام المترابط الوثيق حتى بين الاية وما يختمها من تعقيب مناسب.

من سورة البقرة في الآية « مَثَلُ الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » الشطر الأعظم من الاية يتضمن ثناء على الاسخياء من المؤمنين

الذين ينفقون اموالهم في وجوه البر والخير وهم في ذلك كله لا يبتغون غير وجه الله. فأولئك يرضى الله عنهم ويضاعف لهم الاجر اضعافا كثيرة الى سبعمائة ضعف .ولا شك ان ذلك دليل الفضل من الله اذ يمتنّ على عباده المخلصين بعظيم العطاء نظير ما أدوه من هين البذل.

ومثل هذا المعنى يناسب التعقيب الوارد في الآية وهو قوله سبحانه:« والله واسع عليم ». ان الله جلت قدرته واسع يملك الخير والفضل والرزق وهو سبحانه أغنى الأغنياء بما له من ملكوت مطلق فهو كما قال عن نفسه:« مالك الملك » وهو كذلك « عليم » يعلم ما تكنه الصدور من مخبوء النوايا سواء كان المخبوء إخلاصا لله او غير ذلك من اشراك أو رياء تفسد معه الاعمال ويأتي عليه الحبوط.

والاية:« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم » يبين الله في الآية أفضلية القول الحسن يرد به السائل على إعطائه شيئا من العطاء مع اثقاله بالمن عليه واسماعه ما يؤذيه من الكلام. وانسب تعقيب على ذلك هو قوله :« والله غني حليم » فهو سبحانه غني عن العاطين الممتنين الذين يتبجحون في عطائهم أمام الفقراء والمحاويج. ان الله بفضله وجلاله وملكوته لهو غني عن هؤلاء وعطائهم المؤذي. وهو متكفل برزق الفقراء كيلا يظلوا تحت وطأة المنة المقبوحة والتبجح الجارح. وهو كذلك « حليم » يتجاوز بفضله وواسع رحمته عن اساءات هؤلاء الذين يرفقون عطاياهم بشيء من الأذى يطلقونه في وجوه السائلين والمعوزين. ومعلوم ان الانسان كثيرا ما يعْجل أو يسيء لكن الله الرحيم المنان لهو أهل التوبة والمغفرة وهو شأنه التجاوز عن الذنوب والاساءات مهما تعددت وتكاثرت.

والآية:« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ». الشيطان دائم الإغواء للمؤمنين ليوقعهم في الفتنة ويبعدهم عن أوامر الله خطوة بعد خطوة. فهو يتدسس الى قلوبهم وأحاسيسهم بالنزغ والوسوسة ليخوفهم من الفقر تخويفا فلا ينفقوا من أموالهم في سبيل الله ويأمرهم بالفحشاء كالضن بالخير والامساك عن الانفاق وأداء الزكاة مع ان الله تباركت اسماؤه يبادر هؤلاء المؤمنين بالبشرى والطمأنينة

والمغفرة كيلا يبتئسوا أو يخافوا وكيلا ينثنوا أمام غواية الشيطان لهم بالشح. وأنسب تعقيب لذلك هو قوله سبحانه: «والله واسع عليم» انه سبحانه واسع الرزق وواسع المغفرة فما على المؤمنين من بأس إن بادروا بالطاعة لله وتوكلوا عليه حق توكله وامتثلوا لشرعه تمام الامتثال. فانهم بعد ذلك مرزوقون من الله الخير والغفران. وهو سبحانه: «عليم» يعلم ما توسوس به انفسهم عقيب أن نفث الشيطان فيها ليبعث فيها الخوف والضعف.

والآية: «إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّرْ عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير» تتحدث هذه الاية عن إبداء الصدقات بأن تُعطى للفقراء في ظهور مكشوف،وعن اخفائها واعطائها في كتمان وخفية وكلا الامرين مقبول وليس فيه بأس وإنْ كان في الاخفاء خيراً كما يلاحظ من الاية، وذلك كيلا ينفذ الى قلوب المتصدقين شيء من رياء فتمنى أعمالهم بالحبوط. وأنسب تعقيب لهذا المعنى ان يجيء في الاية «والله بما تعملون خبير» ذلك ان الله كاشف للأعمال وعالم بها ان كانت ظاهرة او خافية، وهو سبحانه عالم بالقلوب ان كانت تطوي في مضمونها الاخلاص او خلاف ذلك من رياء.

والآية: «لله ما في السموات وما في الارض وان تُبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير» كل شيء في الوجود مملوك لله. سواء في ذلك النجوم والكواكب والاقمار والشموس والفضاء والهواء والامواه والأحجار والبحار والملائكة والجن والبشر. هذه الكائنات ملك لله وهو سبحانه خالقها وعالم بها كامل العلم. عالم بأعدادها وأنواعها واجناسها. وعالم بحركاتها وسكناتها ودقائق أفعالها وأقوالها حتى النبسة تهمس بها الحناجر والشفاه فان الله سامعها وعالم بها، وحتى الخبء المجلل المستور والذي تطمره الخلائق الانسية في الصدور فان الله سبحانه كاشف له وعالم به. وقد يخفي الانسان في صدره سوءاً فيزمع أن يمارس ذلك بالفعل فإن لله مطلق الامر أن يمنّ عليه بالعفو

والتوبة أو يعذبة بعذابه المستحق. وذلك كله رهن المشيئة لله والقدرة الكاملة المطلقة التي لا تحدها القيود أو الحدود. وأنسب تعقيب خاتم المعنى قوله سبحانه معقبا: «والله على كل شيء قدير».

ومن سورة آل عمران قوله تعالى: «إن هذا لهو القصص الحق وما من إله الا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم» فهذه آية عظيمة متينة تضم في حجمها الصغير بضعة من المعاني العالية الكبيرة التي تعرض لكبريات الحقائق في عقيدة هذا الدين. فإن ما سبق هذه الاية في السورة من كبير المعاني والحقائق لهو قصص حق يحدثنا به القرآن. ذلك أن القرآن حق وما ينطق به من قصص وذكريات وأوامر وزواجر فهو حق. وكذلك فإن الله ينفي حقيقة الإلهية عن احد في الوجود الا هو، فإنه سبحانه له الالهية وهي من كبريات خصائصه سبحانه. وأنسب الكلام في ختم ذلك قوله سبحانه: «العزيز الحكيم» والعزيز هو القوي الذي لا ينال منه البأس ولا يعز عليه التصرف كيفما يريد ولا يعجزه شيء من خلقه، وهو الذي لا يُغلب وهو كذلك «الحكيم» في قوله المعجز الذي ينطوي على روائع من القصص الحق، وهو الحكيم في تقديره للأمور والشرع بما يلائم فطرة الانسان وينفعه في دينه ودنياه.

وقوله: «بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمدْدكُم ربُكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم» يدعو الله عباده ان يصبروا في ساحات الوغى حيث القتال المحتدم بين المؤمنين والكافرين ويدعوهم كذلك ان يظلوا على تقوى من الله. فإنهم ان كانوا كذلك فإن الله جلت قدرته قد وعدهم بالتأييد والعون وان يمددهم بخمسة الاف من الملائكة، وذلك على سبيل البشرى للمؤمنين الذين تطمئن قلوبهم لدى المعاينة والحس. مع ان النصر من عند الله يكتبه لمن يشاء من عباده. والله سبحانه «العزيز الحكيم» وذلك تعقيب مناسب يوافق مطلع الاية ووسطها تمام التوافق. فالله عز وعلا ينصر من يشاء وهو اهل لذلك، لانه القوي الذي

تصدر عنه كل مظاهر القوة في هذا الكون. وهو الغالب الصمد الذي ترتجيه الخلائق والكائنات والذي لا يقهره او يغلبه قوي وهو كذلك « الحكيم » الذي يدبر الامر بحكمة ويكتب النصر لمن يشاء لحكمة يعلمها هو، فلا يكون للمؤمن بعد هذه الحقيقة نصر ولا يحيق به أذى أو هزيمة إلا لحكمة معلومة مقدورة.

وقوله: « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الارض أو كانوا غُزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعلَ الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحي ويميت والله بما تعلمون بصير »، ذلك في المنافقين الذين يسعون بين المؤمنين إرجافاً وتخويفا ليثبطوهم عن الخروج للقتال ويثنوهم عن فريضة الجهاد. فقد كانوا يزعمون في تخريص فاسد مُغرض أن المومنين لو لم يخرجوا للقتال لما أصابهم الموت أو القتل.

لكن الله يرد هذا الزعم المغرض الاثيم ويدحض هذه الدعوى الكاذبة المتجنية بأنه سبحانه هو الذي يملك الحياة والأحياء والكائنات جميعا. وهو الذي يقدر للاحياء ان تموت إذا حان اجلها او ان تمكث حتى تدهمها قارعة الاجل المحتوم. وقد ناسب هذه المعاني ما ختمت به الآية من تعقيب موافق وهو قوله: « والله بما تعملون بصير » وفي ذلك تثبيت للمؤمنين كي تطمئن قلوبهم ويعلموا علم اليقين ان الله مطلع على أعمالهم وأنه سبحانه لن يبخسهم الحق في الجزاء نظير ما قدموه من صالح العمل.

ومن سورة العنكبوت قوله تعالى: « أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ». ذلك برهان للكافرين المعاندين الذين يكذبون بيوم الدين. وهو برهان حافل بالمنطق الواضح من خلال سؤال فيه نكارة لأولئك الذين تعطلت فيهم الأذهان وأسباب الوعي. وخلاصة ذلك في ايجاز ميسر مكشوف أن الله قد بدأ الخلق أول مرة فليس بعسير عليه أن يعيده مرة أخرى يوم القيامة. لذلك يأتي خَتْمُ الآية في تعقيب من الله مناسب وهو قوله: « إن ذلك على الله يسير ». ويتضح المقصود من الآية في الآية التي تليها

وهو قوله تعالى: «قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الاخرة إن الله على كل شيء قدير» وذلك زيادة في البرهان والتوضيح للمقصود السابق. فالله يدعو عباده أن يضربوا في الارض ناظرين مفكرين ليتدبروا كيف بدأ الله الخلْق عسى ان يهديهم هذا التدبرُ الى وعي الحقيقة القاطعة الجلية وهي أن الله لا يعزُّ عليه إعادة الخليقة من جديد بعد أن تفنى ما دام هو نفسه قد أنشأها النشأة الاولى. ان ذلك ليس على الله بعزيز. فهو سبحانه الاله الخالق المبدع وهو «على كل شيء قدير»

وقوله من السورة نفسها: «يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين» يسأل المشركون في تهكم وسخرية وجهالة عن العذاب الموعود. وهم لا يستعجلون العذاب ولا يطلبون من النبي إنزاله بهم إلا وهم منكرة قلوبهم ذلك بعد أن تعطل فيهم التفكير السليم والفطرة السليمة. فها هم يسألون عن عذاب القيامة في استعجال شقي سخيف، ويأتي الرد المناسب على اجمل صورة وأوفى معنى فيما يحمل لهذه الزمرة الكافرة الفاسدة من الناس نذيراً بالعذاب المخوف الحارق وهو عذاب جهنم التي تحيط بالكافرين الأشقياء تمام الاحاطة وتطبق عليهم تمام الإطباق فقال سبحانه معقبا: «وان جهنم لمحيطة بالكافرين».

فهذه جملة نماذج من الآيات الكريمة ذكرناها لنبين أن الآيات في القرآن ذوات التعقيب تتناسب تناسبا كاملا مع هذا التعقيب وأنه لا انفصام بين أواخر الآيات المعقبات وما سبقها من كلام ومعنى وانما هو الترابط الوثيق والتوافق المحكم يشد الآيات في أوائلها ومطالعها الى ما تختتم به من تعقيب مناسب ذلك ان كان ثمة تعقيب، واذا لم يكن في الآية شيء من ذلك فلا مجال للكلام إذاً.

وجدير بالقول كذلك أن المتدبر لآيات الله في القرآن لا يشترط في نفسه أن يكون واعياً للتوافق في المواقع في جميع الآيات فقد يغيب عن ذهن القارىء المتدبر وجه الحقيقة في الكشف عن التوافق الموجود في كثير من

الايات، وما على القارىء هنا إلا أن يتلو كلمات الله في وعي وتدبر فان تجلى له المقصود فذلك الفضل من الله وان عُمّي عليه ذلك فليستعن بالله ولا يجهد نفسه فيما قد يولجه مواطن التكلف والزلل.

التوافق بين السورة وختامها

لدى تلاوة السورة من القرآن نلاحظ روعة متميزة مؤثرة تتجلى في الآية الخاتمة منها، ليكون في ذلك من الانسجام الوثيق والترابط الأوفى ما يشد الآية لما قبلها شداً متيناً حتى اذا بلغت السورة ختامها برزت للقارىء آية الختام وهي بالغة في تأثيرها وفعاليتها، ورائعة في توافقها المناسب والذي يتلاءم مع السورة في جمال مبناها وعظيم معناها. ولا جرم بعد ذلك كله أن نجد الآية الخاتمة حاسمة في انهاء السورة ليتسنى الانتقال الى مرحلة جديدة عبر سورة أخرى تتلو سابقتها. وذلك في غاية من كمال التعبير المؤثر الذي يقع في ختام السورة من خلال آية الختام المناسبة الفعالة الحاسمة.

نتناول بعد هذا التقديم عددا من آيات الختام للسورة لنجد روعة التوافق وكمال التأثير الذي يتجلى في تميز واشراق. واليك اسماء السور التالية وما يعقبها من آيات خواتيم.

فهذه سورة البقرة، السورة الطويلة العظيمة التي تتدفق منها المعاني في كل مناحي الحياة وفي كل جوانب الانسانية العقلية والنفسية والروحية والبدنية وما يرافق ذلك من قضايا السلوك والاجتماع والخلق والسياسة والقضاء والجهاد والعبادات وغير ذلك.

ان هذه السورة لا يحصي عليها الوصف إطراء وثناء ويعز على العلم أن يسجل كل ما انطوت عليه من علوم في الحياة وفي الانسان. مثلما يعز على القارىء المتدبر البصير أن يحيط بكل ما في السورة من مواقف ومشاهد ومضامين وذلك لفرط روعتها وبَهْرِها وتواردها وغزارتها. وهي تختمها آية معقبة رائعة تحتشد فيها جملة معان كبيرة يتصدرها القضاء بعدم الارهاق في التكليف فيما يزجي بصورة مشرقة مرغوبة عن طبيعة هذا الدين الميسور.

الدين الذي يرفض الارهاق والتنطع وينبذ المغالاة والحرج. وان كل نفس ليس لها من الجزاء الا ما عملت ولا تحتمل من الوزر الا ما احتملت من غير أن يعينها في ذلك أحد.

ويأتي في خاتمة الختام عدة دعوات تنطق بها حناجر المؤمنين وقلوبهم وهي تضرع الى الله سبحانه بالعفو والتجاوز والرحمة. ذلك ختام حاشد جامع كريم في كلمات ربانية تفيض بالسمو والجمال. قال سبحانه: « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ».

وهذه سورة آل عمران، تجتمع فيها كل مناحي الاسلام من عقيدة وتشريع وأخلاق وعبادات ومن قصص النبيين والمرسلين وأخبار الأمم السالفة والأولين ومن أخبار أهل الكتاب والمنافقين والتحريض على مجاهدتهم باللسان وفي الحرب. وكل هذه المعاني والدروس والمواقف تنمّ على حجم المعركة الحامية العاتية التي يخوضها المسلمون مع أعدائهم من مختلف العقائد والمذاهب والملل. معركة فظيعة رهيبة لا يهدأ لها أوار ولا ينطفىء لها لهيب ما بقي الزمان، وما بقي الشر والأشرار! ليعلم المسلمون في ضوء ذلك كله أن اعداءهم كثيرون متربصون وأنهم يملأون جوانب الأرض وما عليهم بعد ذلك الا التماسك في صف رصين واحد ليكونوا يدا على من سواهم يحدوهم في ذلك الإخلاص لهذا الدين، وذلك في صبر ومصابرة ومرابطة وخشية لله تملأ القلوب قال سبحانه في ختام هذه السورة: « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ».

وهذه سورة المائدة، تتناول فيضا من القضايا والأحكام، وتركز على أهمية العقيدة التي لا تحتمل المصانعة أو اللين. وتجادل أهل الكتاب بالمنطق والبرهان لتعاود التنديد بعد ذلك بقضية الإشراك البشعة وأبشع ما يكون عليه الإشراك أن يفتري الكافرون الكذب على الله اذ ينسبون له بنوة عيسى

المسيح تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويحتل الحديث عن أهل الكتاب مساحة واسعة في حجم هذه السورة العظيمة، وذلك ما بين مجادلة ودية رفيقة، وبرهان منطقي مكشوف، وتنديد بفظاعة الشرك من غير لين، ونكير شديد لهؤلاء المشركين جميعا الذين يكذبون على الله أعتى الكذب بأن الله ثالث ثلاثة أو أن المسيح ابن الله مع أن الله غني عن العالمين وهو سبحانه مالك العالمين والمالكين فله الوجود وما فيه والسموات والأرض وما بينهن. وأكرم ختام لهذه السورة بما ينطوي على شمول رفيق مناسب قوله تعالى:« لله ملك السموات والارض وما بينهن وهو على كل شيء قدير».

وهذه سورة يونس، تدعو للتوحيد الخالص وتحذر من فظاعة الشرك الذي يؤدي الى غضب الله ثم الى النار مع ما يرافق ذلك من صور شتى من التبشير والتنذير ومن القصص الذي يدعم قضية العقيدة والتوحيد وهي الاساس الاول والركين الذي ينبني عليه هذا الدين برمته. وبقدر ما تحرّض السورة على الالتزام بعقيدة التوحيد والصيرورة في طريق الله وعلى منهجه السليم فانها تختتم بأجلى تكليف وأعظمه وهو أن يتبع النبي ﷺ ما يوحى اليه من ربه وأن يصطبر اصطباراً يعصمه من الزلل والضعف الى أن يحكم الله بما يريد ويقضي في الناس بقضائه العادل الذي لا معقب له. قال سبحانه:« واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكِمين».

وهذه سورة هود تحمل جزءا من قصص الانبياء بما يثبت به فؤاد النبي ﷺ ويسكب فيه اليقين والطمأنينة ويشرح صدره للعقيدة والايمان ويبعث فيه التسرية والسلوان. خصوصا وهو الذي عانى من قسوة قومه وجحودهم ما لا يطيقه بشر إلا من كان مصوناً بعصمة!

وفي السورة من أخبار السابقين في مهلكهم وما يؤولون إليه من سوء المآل حيث النار المحيطة بهم ما يثير في النفس الخوف ويذكر بضرورة التوْب الى

الله والانصياع لامره الكريم. وفي ختام السورة بعض من المعاني والحقائق والتكليف، كل ذلك جاء محتوىً في آية خاتمة كريمة تؤثر في السامع أو القارىء المتدبر أشد تأثير وتحرِّض تلقائيا على معاودة القراءة لهذه الاية بتكرار. وهي قولهسبحانه: «ولله غيبُ السموات والارض واليه يرجعُ الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون» أية عجيبة تنطوي على جملٍ خمسٍ في معان كبيرة متنوعة ما بين الإخبار عن ملكية الله الكبرى للوجود وأن كل شيء في الحياة وفي الوجود مرده الى الله، ثم التكليف بعبادته سبحانه والتوكل عليه، ثم نفي الغفلة عن جناب الله سبحانه وأنه عليم بما يعمله الناس جميعا.

وهذه سورة يوسف. السورة التي تعرض لقصة ذلك النبي المبتلى الصابر. النبي الذي أزلقه اخوته حسدا من عند أنفسهم حتى رموه في الجُبّ فالتقطه بعض السيارة الى أن بيع في مصر بثمن بخس دراهم معدودة. فربا في قصر العزيز فترة من الزمن ثم افتتنت به امرأة العزيز فراودته عن نفسه وغلقت الابواب وطالبته أن يحقق لها ما تصبو إليه من مطلب حارق غلاّب بعد ان شغفها في نفسها وقلبها حباً. لكنه عليه السلام وهو المستعصم برباط الله المتمكن بعقيدته وخُلقه الرفيع لهو اسمى من ان تزلقه امرأة حسناء بغوايتها وفتنتها فأنجاه الله من شراك هذه الفتنة العاصفة. ثم اودعوه السجن بضع سنين ريثما يأتي على هذه القصة طائف النسيان. الى أن جاء الفرج وخرج من السجن ثم ارتقى في مصر مكانا علياً. واخيرا التقى بأبويه واخوته فتعارفوا فيما بينهم وايقن إخوته انه خير منهم. مثل هذا القصص المعبر الجلي المثير وغيره من قصص لاخبار النبيين السابقين جاء يطابقه ختام السورة في اية مؤثرة حاسمة تحمل القلب والذهن معا على التصديق واليقين في قناعة تامة وطمأنينة كبرى. قال سبحانه:« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديقَ الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون».

وهذه سورة ابراهيم. فيها عديد من الأنباء والقصص والأمثال، وعديد من مواقف التنذير والتهديد إذ يتوعد الله الذين يخالفون امره بأن لهم النار وذلك في يوم تبدل فيه الارض غير الارض والسموات، ويومئذ يساق هؤلاء المجرمون الى العذاب وهم مقرّنون في الاصفاد ويلبسون قمصانا من قطران وتغشى وجوههم النار. كل هذه المعاني والمواقف والأخبار لهي بمثابة تحريض للناس على الفرار الى الله والإقبال عليه بالطاعة. والختام الموافق هنا بعد ما سبق من تخويف وتبشير وامر وزجر، أن هذا القرآن بلاغ كامل للناس فيه خير الدنيا والآخرة. يقول سبحانه بايجاز شامل يحوي المقصود من كل اطرافه وفي غاية التأثير والحسم: «هذا بلاغ للناس ولِيُنذَروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكَّرَ أولو الألباب».

وهذه سورة الإسراء بما تحويه من نبأ الإسراء هذا الحدث المذهل الفذ الذي تحقق للنبي ﷺ. ثم خبر بني اسرائيل وإفسادهم في البلاد حيث يعيثون مرتين وما يرافق ذلك من ضرب لدولتهم وتشتيت لشملهم. ثم ما سيق في الآية من جملة الأحكام والاخبار والمواعظ وما تخلل ذلك كله من مشاهد التنذير والتخويف الى غير ذلك من المعاني الفرعية والكلية التي حوتها السورة، حتى جاء الختام الموافق لما سبقه من مواقف ومشاهد ومعانٍ واخبار واحكام. وهو ختام قصير وجيز لكنه يضم اساسا يقوم عليه البنيان الشامخ لهذا الدين. وهو اساس التوحيد لله والإقرار له بكامل العبودية والنفي المطلق لفرية الشرك عن جلاله سبحانه في الوالدية أو في التشريك أو في الخُلّة والنصرة تحت وطأة الاحساس بالذل. تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً. يضاف الى ذلك ابتداء الآية بالثناء على الله سبحانه ثم انتهاؤها بتكبيره تكبيراً. قال سبحانه: «وقل الحمدُ لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذل وكبره تكبيرا».

وهذه سورة القصص. تقص علينا أنباء السابقين ليكون في ذلك عبرة لهذه الامة تمدها بطاقة من الصبر والعزيمة والثبات على دين الله القويم. وليكون فيه

طمأنة لقلب النبي الكريم ﷺ فيزداد ثباتاً على ثباته.

أما قصة موسى عليه السلام فإنها تحتل مساحة كبيرة في محيط هذه السورة اذ يجيء خبره عليه السلام على نحو من التفصيل بدءا بمولده وانتهاء برجوعه وزوجه من مدين الى مصر كما يحدّث فرعون بنبأ الوحي ودعوته الى الله. الى غير هذه القصة من نبأ قارون واستكباره في الارض فخسفت به وبداره. ودروس أخرى متفرقة تتناول أطرافا شتى من العبادة والسلوك والتحذير. ثم يأتي الختام المناسب الذي يركز على قضية الدين الاولى وهي العقيدة بما يلائم القضايا الأساسية الأخرى التي وردت في السورة والتي تندد في مجملها بالشرك والمشركين، وبالكبرياء والمستكبرين الذين استحبوا العمى على الهدى والذين ارتضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها. يقول سبحانه: « ولا تدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر لا إله إلا هوَ كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهَه له الحكم واليه تُرجعون ».

وهذه سورة الأحقاف تسوق للمشركين المعاندين عديداً من البراهين على صدق هذا الدين والنبي الذي جاء به، وذلك في مُحاجَّةٍ شديدة صارمة لا تعرف المداهنة أو الهوادة. فهؤلاء القوم كانوا عتاة مستكبرين وكانوا غلاظاً مدبرين يناسبهم من القول أشد تأثيرا وايقاعا واكثره سوقا للحجة والتحدي.

وتعرض السورة كذلك لمصارع القوم الكافرين قوم عاد الذين عصوا رسول ربهم وضلوا طريق الحق فأخذهم الله بعذاب دمر عليهم كل شيء. وثمة أقوام آخرون قد اخذهم الله بالبأساء فلا يُرى منهم شيء الا أماكنهم التي باتت أثراً بعد عين. ومثل هذا القصص عن أخبار الهالكين الكافرين واصطبار النبيين عليهم فيه ما يهوّن الامر على النبي وينشر في نفسه العزاء والسلوان حتى يأتي أمر الله. لذلك جاءت الاية الخاتمة فيها الموافقة الوثقى لما سبقها من معان وعلوم، وهي تضم في كلماتها زخما عظيما من كريم المعاني في عبارة جامعة وجيزة تضم الوانا من الكلام كالامر والنهي والنفي والتوكيد والاستثناء والإخبار والسؤال والتقريع كل ذلك في هذه الاية الخاتمة: « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون

لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يُهلك الا القومُ الفاسقون».

هذه نماذج من الآيات الخواتيم لبعض من السور في كتاب الله قد سجلناها لنبين روعة التوافق وكمال الاتساق بين الاية الخاتمة للسورة لتأتي عظيمة الايقاع والتأثير في نفس القارىء أو السامع وتأتي كذلك بالغة الحسم والفعالية. وتلك حقيقة يدركها القارىء المدّكر وهو يلاحظ فيض المعاني وكبيرها التي تحتويها الآية الأخيرة في السورة. وذلكم هو التوافق المقصود الذي يزجي بالدلالة الحاسمة القاطعة على أن هذا القرآن معجزة، وهو توافق يتميز بالإنسجام والإتساق يدركه المدّكر بحسه النقي وفطرته الواعية السليمة. وفي ذلك كله من البرهان القاطع على أن هذا القرآن معجز وأنه كلام الله.

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

مقدّمة	٥
تعريف القرآن الكريم	٩
تعريفه في اللغة	٩
تعريفه في الإصطلاح	١٠
الفرق بين القرآن والحديث	١١
الحديث القدسي	١٥
أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل	١٨
تنجيم القرآن	٢١
السر في إنزاله جملة واحدة الى السماء الدنيا	٢٣
تنزيله مُنجَّما	٢٤
أسرار تنجيم القرآن	٢٨
معنى الإنزال وتباين الأقوال في ذلك	٤١
الترجيح	٤٢
حقيقة ما نزل على النبيّ	٤٢
ظاهرة الوحي	٤٥
معناه في اللغة	٤٥
صوره وكيفياته	٤٥
الوحي في القرآن	٥٠
المكي والمدني	٥٥
معرفة المكي والمدني	٥٧
ضوابط كل من المكي والمدني	٥٨
ضوابط المكي	٥٩

ضوابط المدني ٦٠
تعقيب على هذه الضوابط ٦١
الآيات المدنية في السور المكية ٦٢
الآيات المكية في السور المدنية ٦٣
بحوث أخرى ٦٤
ما نزل بمكة وحكمه مدني ٦٤
ما نزل بالمدينة وحكمه مكي ٦٤
ما نزل من القرآن ليلا ٦٥
ما نزل من القرآن على النبي في الشتاء ٦٦
ما نزل من القرآن في السفر ٦٦
ما نزل مشيعاً ٦٧
معنى السورة والاية ٦٨
أسباب تسمية السور بأسمائها ٦٩
أسباب نزول القرآن ٧٦
زعم مردود ٧٦
فوائد معرفة اسباب النزول ٧٩
هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ٨٠
طريقة معرفة اسباب النزول ٨٢
ما تكرر نزوله من القرآن ٨٣
نزول القرآن على سبعة أحرف ٨٤
القول الراجح ٨٩
تنبيه ٩٠
القراءات السبع ٩٤
القرّاء السبعة ٩٦
سبب اشتهار القراء السبعة ٩٧
شروط القراءة الصحيحة ٩٨

القراءة الشاذّة ٩٩
أسباب اختلاف القراء ١٠٠
جمع القرآن وكتابته ١٠٢
الجمع الأول ١٠٢
الجمع الثاني ١٠٢
الجمع الثالث ١٠٥
الفروق بين الجموع الثلاثة ١٠٦
عدد مصاحف عثمان ١٠٨
افتراء جاهل ١٠٨
ترتيب الآيات والسور ١٠٩
ترتيب الآيات ١٠٩
ترتيب السور ١١٢
تنبيه ١١٤
اعجاز القرآن ١١٦
شهداء وأدعياء ١١٨
وجوه الإعجاز في القرآن ١٢٣
افتراءات وردود ١٣٥
القرآن قائم يتحدى ١٣٨
التفسير ١٤١
التفسير في اللغة ١٤١
التفسير في الاصطلاح ١٤١
التأويل ١٤١
الفرق بين التفسير والتأويل ١٤٢
مصادر التفسير ١٤٤
أقسام التفسير ١٥٣

العلوم التي يحتاج اليها المفسر ١٥٤
أنواع التفسير ١٥٧
التفسير بالمأثور ١٥٧
التفسير بالرأي ١٥٨
تفسير الصوفية ١٦٥
طبقات المفسرين ١٦٧
طبقة التابعين ١٧٠
أشهر كتب التفسير ١٧٢
كتب التفسير بالمأثور ١٧٢
تفسير الطبري ١٧٢
تفسير ابن كثير ١٧٣
تفسير القرطبي ١٧٤
كتب التفسير بالرأي ١٧٥
في ظلال القرآن لسيد قطب ١٧٥
الكشاف للزمخشري ١٧٧
المحكم والمتشابه ١٧٩
محكم القرآن ومتشابهه ١٧٩
تعيين المحكم والمتشابه ١٨١
هل يمكن العلم بالمتشابه ١٨٢
المتشابه من آيات الصفات ١٨٥
تنبيه ١٨٦
الناسخ والمنسوخ ١٨٧
النسخ في اللغة ١٨٨
النسخ في الاصطلاح الشرعي ١٨٨
ضروب النسخ ١٨٨

الضرب الاول	١٨٨
الضرب الثاني	١٨٩
حكمة هذا الضرب من النسخ	١٩٠
الضرب الثالث	١٩١
غالب النسخ في الجزئيات المدنية	١٩٢
ما يقع فيه النسخ	١٩٤
مصدر النسخ	١٩٧
النسخ بين القرآن والسنّة	١٩٨
نسخ القرآن بالقرآن	١٩٨
نسخ القرآن بالسنّة	٢٠٢
نموذجان من نسخ القرآن بالسنّة	٢٠٤
نسخ السنّة بالقرآن	٢٠٥
نموذجان من نسخ السنّة بالقرآن	٢٠٦
الخلط بين النسخ وغيره	٢٠٦
المنسأ	٢٠٧
رفع ما كان عليه الامر سابقا	٢٠٧
تحريم ما كان مباحا أصلا	٢٠٩
تخصيص العام	٢١٠
أقسام العام	٢١١
تقييد المطلق	٢١٣
تبيين المبهم	٢١٦
المجمل وتبيينه	٢١٧
أسباب الإجمال	٢١٨
تبيين الإجمال بالقرآن	٢١٩
تبيين الاجمال بالسنّة	٢٢١

ترجمة القرآن ٢٢٦
معنى الترجمة ٢٢٦
أنواع الترجمة ٢٢٦
الترجمة الحرفية ٢٢٧
الترجمة التفسيرية ٢٢٨
أهمية تعلم العربية ٢٣٠
أهمية ترجمة تفسير القرآن ٢٣١
حكم الترجمة الحرفية ٢٣٣
التوافق المترابط في القرآن ٢٣٤
التوافق بين السور.
التوافق بين الآيات ٢٦٣
التوافق بين الآيات وخواتيمها ٢٧١
التوافق بين السورة وختامها ٢٧٧